المجلس الأعلى للثقافة

ذكريات مصورة عن مصر

المشروع القومى للترجمة





تأليف : خالد ضياء الدين

ترجمة : سامية محمد جلال

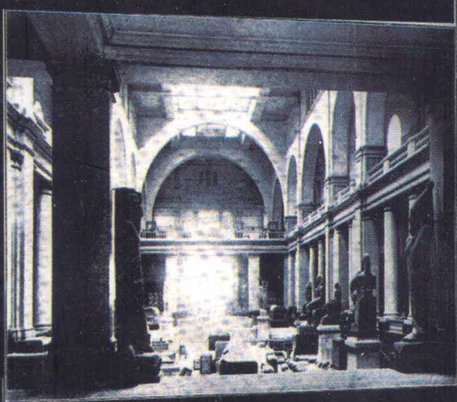
1038



مراجعة: الصفصافى أحمد القطورى







هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارئ العزيز هو مجموعة من الذكريات سجلها كاتب تركى هو "خالد ضياء الدين" (١٨٦٧-١٩٤٥م) حيث كُلف بمأمورية خاصة فى مصر من قبل البلاط السلطانى فى عهد السلطان "محمد رشاد الخامس" عام ١٩٠٩م فشد الرحال من بلاده، وفى ذهنه تصور واضح لطبيعة المهمة التى من أجلها زار مصر، وراح يرصد بعينيه مستقصيا ومحققا لما يشاهد ويسمع، ومزودا كتابه بمجموعة من الصور الفوتوغرافية للأماكن التى قام بزيارتها.

تمثل هذه الذكريات وصفا حيًّا موضوعيًّا دقيقًا لمصر، شمل العديد من الموضوعات المهمة التى تبين تقدم مصر ورقيها فى هذه الفترة: مثل بناء القناطر الخيرية، والكبارى التى تعبر ضفتى النيل وغيرها من الأماكن التى أبدى الكاتب التركى إعجابه الشديد بها إلى الحد الذى جعله يتمنى فى كثير من الأحيان أن يرى ما رآه فى مصر - وهى إحدى الولايات العثمانية - فى دار الخلافة ألا وهى إستانبول "در السعادة" وأراد بذلك أن يشد انتباه قومه وأن يدفع بهم إلى سبل التقدم.

تصميم غلاف: مروك يونس

ذكريات مصورة عن مصر

المشروع القومى للترجمة
إشراف : د. جابر عصفور

- العدد : ١٠٣٨
- ذكريات مصورة عن مصر
- خالد ضياء الدين
- سامية محمد جلال
- الصفصافى أحمد القطورى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :
مصوَّر
مصر خاطراتى
خالد ضياء الدين
استانبول ١٩٠٦

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

المشروع القومى للترجمة

ذكريات مصورة عن مصر

تـألـيـــف : خالد ضياء الدين

ترجمة وتقديم : سامية محمد جلال

مـراجـعــة : الصفصافى أحمد القطورى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ضياء الدين ، خالد
ذكريات مصورة عن مصر / تأليف خالد ضياء الدين ؛
ترجمة وتقديم سامية محمد جلال ؛ مراجعة أحمد القطورى - ط ١ -
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٢٦٤ ص ؛ ٢٤ سم
١ - مصر - وصف ورحلات
أ - جلال ، سامية محمد جلال (مترجم ومقدم)
ب - القطورى ، أحمد (مراجع)
جـ - العنوان ٩١٦,٢

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٩٥١٠
الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 043 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجمة

مدخل :

الرحلة التركية إلى مصر بين الواقعية والانطباعية
من أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين

من المعروف أن مصر كانت لها طبيعة متميزة فى علاقاتها بالدولة العثمانية ـ خاصةً خلال القرن التاسع عشر ؛ فقد كانت لها شخصيتها شبه المستقلة ؛ مما دفعها إلى قيام نهضة شملت مختلف مناحى الحياة ، والتى كانت نتاج عوامل فكرية وحضارية واقتصادية ، وأيضًا نتاج التأثير والتأثر بالفكر الأوروبى الذى حمله المبعوثون المصريون فى تلك الفترة .

تمثل فترة النصف الثانى من هذا القرن، وأيضًا بداية القرن العشرين ، نقطة تحول فيما يخص العمران المدنى ، وبدأت القاهرة تأخذ مظهر المدنية الحديثة، ولهذا السبب ، ولأسباب أخرى اتجهت إليها أنظار الرحالة الأتراك ، وأصبحت محط اهتمامهم ، فقصدها الكثيرون منهم خلال هذه الفترة .

ومن الملاحظ أن هؤلاء الرحالة قد تنوعت وظائفهم وتعددت دوافعهم الخاصة، واختلفت درجة اهتماماتهم ومصداقيتهم وأمانتهم، وكذلك أساليبهم ومناهجهم والمصادر التى اعتمدوا عليها وتأثروا بها .

ولقد استقرأنا من خلال مطالعتنا لمؤلفات هؤلاء الرحالة الأتراك خلال هذه الفترة أن أغلبية أصحابها قد انصرف بعضهم إلى إبراز صورة تحليلية نقدية للمجتمع المصرى من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويجب أن نوضح فى البداية وجود تنوع فى مستويات الرؤية للمجتمع المصرى ، ليس فقط خلال فترة القرن التاسع عشر فحسب ، بل إنها تختلف أيضاً خلال فترة وجيزة لا تتعدى عشر سنوات بكثير ، ويمكن أن نميز هذا التنوع فى كتاباتهم ، مقتصراً على وجود مستويين مختلفين وهما :

١ - النظرة الواقعية والموضوعية : - وهى التى حرصت على تقديم صورة صادقة ودقيقة عن مصر وأحوالها من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، ومن بين أصحاب هذا الاتجاه من لم يلتزم بتقديم صورة موضوعية للفرد والمجتمع المصرى إلا لأسباب قد تتعلق بضرورة تقديمهم تقريراً واقعياً عما يشاهدونه فيها ، وربما يتم رفع هذا التقرير إلى المركز أو إلى الباب العالى ، ولهذا السبب نجد ممثلى هذا الاتجاه يقدمون صورة حقيقية واقعية ، لا مجال فيها لإبراز الجانب الانطباعى ، وعلى هذا الأساس يجنح هؤلاء فى تناولهم للموضوع إلى إبداء إعجابهم الشديد ، وانبهارهم بما وصلت إليه مصر من تقدم وازدهار فى تلك الفترة ، وتفوقها فى كثير من المجالات ، وهم يتمنون أن تستفيد تركيا من ذلك النموذج الرائع الذى حدث فى مصر فتحذو حذوها . وفى هذا الإطار، فقد حاولوا الكشف عن شخصية مصر من ناحية تفرد مجتمعها المتقدم خلال تلك الفترة . وأبرز من يمثل هذا الاتجاه هو خالد ضياء الدين .

٢ - النظرة الانطباعية التى تناول فيها الرحالة الأتراك مصر من زاوية أنا والآخر ، وبمعنى آخر صورة الذات ومفهوم الآخر ، ومن ثم يصبح من الصعوبة بمكان أن نلمس فيها نظرة موضوعية توضح أبعاد التفرد التى تتميز بها مصر، فهى غالباً ما تجنح إلى التعميم فى أحكامها ، وتكون ملاحظاتهم عابرة ، مع التركيز أحياناً على الجوانب السلبية دون مراعاة للجوانب الإيجابية .

وأبرز من يمثل هذا الاتجاه هو " جناب شهاب الدين " فى كتابه " حج يولنده " (على طريق الحج) الذى سبق ترجمته .

وعلى هذا الأساس ، يرجع سبب اختيارى لترجمة هذين الكتابين من بين كتب الرحالة الأتراك (وهما على طريق الحج ، وذكريات مصورة عن مصر) إلى أن ما

جاء من مادة عن مصر بقلم صاحب المؤلف الأول يشكل نوعية تختلف تمامًا عن الموضوعات التى تطرق إليها الآخر . وقد يذهب البعض إلى تفسير هذا الاختلاف فى الصورة التى قدمها كل منهما إلى حدوث تغيرات جذرية فى مصر خلال الفترة الواقعة بين الرحلتين ، غير أنه لا يمكن أن يعد الفارق الزمنى بينهما كبيرًا ؛ إذ إنه لا يتجاوز عشر سنوات بكثير . هذا بالإضافة إلى أن النظرة المتأنية والتحليل الدقيق لكلا الكتابين توضح أن هذا الاختلاف يكمن فى الهدف الرئيسى للرحلتين ؛ فهدف أحدها ذاتى والآخر موضوعى ، وكذلك فإن البون الشاسع فى شخصية كل منهما قد نتج عنه نوعان مختلفان تمامًا فى وصف أوضاع مصر ؛ فبينما كان الأول وهو " جناب شهاب الدين " أديبًا اتسمت كتاباته بأسلوب السخرية والتهكم ، وانطبع ذلك فى وصفه للحياة الاجتماعية لمصر ، كان الآخر وهو " خالد ضيا " على النقيض منه دارسًا ومستقصيًا ومحققًا لما يشاهد ويسمع . ويستطيع القارئ أن يلمس هذين المستويين فى إطاريهما الواقعى والانطباعى .

خالد ضياء الدين

ولد خالد ضياء الدين سنة ١٨٦٧م ، كان أبوه يعمل فى مهنة التجارة ويهوى الأدب ، بعد أن أفلست تجارته فى إستانبول عاد إلى أزمير موطنه الأصلى عام ١٨٧٩م . تلقى خالد ضيا تعليمه فى إستانبول ، وبدأت اهتماماته بالرواية تظهر فى سن مبكرة . هجر خالد ضيا المدرسة دون أن يتم تعليمه بها حتى يتسنى له مساعدة أبيه فى تجارته ، ثم التحق بوظيفة فى البنك العثمانى ، ثم عمل مدرسًا للغة الفرنسية فى إعدادية أزمير . بدأ فى ترجمة الروايات الفرنسية ، وفى سنة ١٨٨٤ م أصدر عدة جرائد غير منتظمة الصدور مثل : " نوروز " ، و" خدمتى " ، و" آهنك " . ومن خلالها نشر رواياته " سفيله " و "بر اولونك دفترى " وغيرها من الروايات . وفى سنة ١٨٨٩ م ذهب لمشاهدة معرض باريس ، وفى عام ١٨٩٣ م تولى رئاسة المكتبة فى إدارة التنسيق بإستانبول التى استقر مقامه فيها ، ثم انضم إلى مجلة " ثروت فنون " ، وحقق شهرة

كبيرة بعد أن نشرت رواياته " مائى وسياه "، و " عشق ممنوع " . ويعد خالد ضيا أول روائى فى الأدب التركى على الطراز الأوروبى ؛ حيث كان قد ألف حكايات وقصصًا مليئة بالتحاليل النفسية متخذًا من القصاصين الفرنسيين نموذجًا يحتذى ؛ فقد قدم بعد عام ١٩٣٨ نماذج من أقيم النماذج فى مجال القصة والحكاية ، بشخصيته القوية الواقعة تحت تأثير الأدب الفرنسى ، ومتأثرًا قليلاً جدًا بالشرق .

يحتل خالد ضيا مكانًا مهمًا فى ميدان النثر خلال الفترة الأدبية التى اصطلح مؤرخو الأدب التركى على تسميتها " بالأدب الجديد " أو أدب " ثروت فنون " نسبةً إلى المجلة ، ويعتبره البعض أبا الروائيين الأتراك الذين ظهروا فى تلك الفترة مرورًا بـ "رشاد نورى " و " يعقوب قدرى " و " خالده أديب ". خاض خالد ضيا تجربة الكتابة المسرحية ، وعين رئيسًا لمابين السلطان محمد رشاد الخامس ، ثم أستاذا لتاريخ الأدب الغربى وعلم الجمال فى جامعة إستانبول . ظل خالد ضيا يكتب بعض المقالات والأقاصيص حتى سنة ١٩٣٦ م ، وتوفى فى مارس ١٩٤٥ م .

ونظرةً إلى ما كتبه مؤرخو الأدب التركى وكُتَّاب التذاكر والمعاجم الأدبية والتراجم عن خالد ضيا ونتاجه الأدبى ، توضح تجاهل هؤلاء جميعًا لذكر ذكرياته هذه عن مصر رغم أهميتها ، ويكاد محمد طاهر البروسلى أن ينفرد من بينهم بذكرها فى المجلد الرابع من كتابه " عثمانلى مؤلفلرى " المؤلفون العثمانيون ، وربما يعود ذلك إلى أنهم قد استبعدوا كتب الذكريات من دائرة اهتماماتهم ، ولم يدركوا أنها تنتمى إلى كتب أدب الرحلة .

مصادر الرحلة

لم يصرح لنا خالد ضيا بالمصادر التى اعتمد عليها فى رحلته ، وإن كانت طبيعة المهمة التى كلف بها لم تكن لتسمح له بأن يعتمد على مصادر لرحلته إلى مصر ؛ فقد كانت دقة ملاحظاته والمعاينة الفاحصة هى من أهم المصادر التى اعتمد عليها . ولقد

اجتهد فى جمع مادته وكابد من المصاعب والمشاق الكثير ، واتبع فى سبيل ذلك عدة وسائل ؛ أهمها حرصه على المعاينة الشخصية واعتماده على الدراسة الميدانية المباشرة ، واستقصاؤه والسعى لمواجهة الصعاب والتعرض للأخطار من أجل حب الاطلاع والكشف، وهذا يدل على تطبعه بروح المغامرة وحب الاستكشاف فى داخله ، وخير برهان على ذلك وصفه الدقيق للمخاطر التى جابهها عند ولوجه بداخل الهرم ورد فعله إزاءها ، وهو فى هذا الأمر قد أظهر أنه رحال محقق ومدرك للدور الذى يقوم به .

دوافع الرحلة

يرجع سبب تأليف خالد ضيا لذكرياته هذه إلى دافعين :

(أ) دافع موضوعى .

(ب) دافع ذاتى .

أما الدافع الموضوعى فيتمثل فى القيام بمأمورية كان قد كُلِّف بها تستغرق فترة قصيرة ـ كما يذكر فى مقدمة كتابه – ولكنه لم يوضح كنه هذه المهمة أو ماهيتها أو من هو الذى كلفه بهذا الأمر ، ولكنه يفسر بعضاً منها عند حديثه عن الدافع الرئيسى من كتابة ذكرياته ، برغبته فى التنبيه وتوضيح ما آل إليه الإقليم المصرى من تقدم ورقى ودراسة أسبابه حتى تستطيع بلاده أن تستفيد منها وتحتذى حذوها .

وأما الدافع الذاتى فهو رغبته فى أن يؤلف كتاباً فى أدب الرحلة عن مصر ؛ فهو لم ينسَ وضعه ككاتب وأديب ، وبذلك استطاع أن يستغل ما توصل إليه من معلومات أثناء أداء مهمته فى تحقيق مآربه الأدبية .

ذكريات خالد ضيا ... نظرة فى الشكل

راعى خالد ضيا أن تتصدر ذكرياته مقدمة قصيرة ، حرص أن يدون فيها زمن مغادرته إستانبول إلى مصر والهدف الرئيسى لذلك ، وضمَّن فيها كذلك سبب اختياره لهذا الاسم عنوانًا لمؤلفه والدوافع التى جعلته يقوم بنشر هذه الذكريات ؛ حيث يشير فى مقدمته إلى سبب اختياره لكلمة ذكريات عنوانًا لمؤلفه ؛ فهو - كما يقول - عبارة عن مجموعة من الذكريات شرع فى تحريرها ونشرها ، هذا بالإضافة إلى أنه تمكن من أن يزود كتابه بمجموعة من الصور الفوتوغرافية للأماكن التى قام بزيارتها ، ولهذا أطلق عليه اسم " ذكريات مصورة " . هذا بالإضافة إلى أنه وفِّق فى اختيار هذا الاسم عنوانًا لكتابه ، والذى يفصح عن موضوعه وما ينطوى عليه من مغزى منهجى كما سيتضح للقارئ فى الدراسة الشكلية والمنهجية للكتاب .

ومما يلفت النظر فى هذه المقدمة أنه يشير إلى تفرد موضوع الكتاب عن غيره وريادته ، وهو محق فى هذا ؛ فهو يعد أول أثر تركى يصف مصر وصفًا حيًا موضوعيًا دقيقًا شمل العديد من الموضوعات المهمة التى تبين تقدم مصر ورقيها فى هذه الفترة ، إلى حد جعل الكاتب التركى يتمنى لو تحتذى بلاده بهذا النموذج الرائع . ولذلك فإن هذه الذكريات تمثل بادرة تجديد خَطَاها خالد ضياء الدين فى أدب الرحلة التركية ، والملاحظ أن التجديد فى مضمون هذه الرحلة والهدف منها ، قد واكبه تجديد فى الشكل أيضًا ، ولهذا يصدق من يقول إن للرحلة أشكالاً بعدد نصوصها . ولا يتوقف الأمر على اختراع شكل جديد مختلف فحسب ، بل لابد من ضرورة التناسق بينه وبين الهدف من العمل . ولقد حدد خالد ضيا لنفسه نهجًا محددًا سواءً من ناحية الشكل أو المضمون .

أولاً : من ناحية الشكل

تتضح أهم سمات هذا النهج فى :

(أ) البنية :

خرج خالد ضياء الدين من بلاده وفى ذهنه تصور واضح لطبيعة المهمة التى من أجلها وصل إلى مصر فى أوائل القرن العشرين (١٩٠٩ م) ، ولهذا اتخذ منهجًا علميًا يحقق له الغرض الرئيسى من الرحلة من ناحية ، ويكفل التماسك أو التوافق بين المادة وهذا الغرض؛ فلم يتبع البنية النمطية فى كتابته ، وهى تلك البنية التى تتبع نمطًا معتاداً من صورة الرحلة المعتمدة الواقعية ، والتى تتكون من المقدمة (التى تشمل التمهيد للرحلة من مغادرة البلاد سواء بالقطار أو غيره) ، ورحلة الذهاب ، ووصف هدف الرحلة ، ثم رحلة العودة ؛ وعلى هذا الأساس لم يُبدِ خالد ضيا اهتمامًا يذكر بتوضيح خط سير رحلته ولا تتبعها ـ كما يفعل أغلب الرحالة ومن بينهم رفيقه جناب شهاب الدين ـ ولكنه استند فى رحلته على البنية المحورية ، أى تلك البنية التى تهتم بتحديد محاور بعينها ، وهى بهذا أقرب إلى البحث العلمى منها إلى السرد القصصى أو الأدبى ، وبدت كتابته وكأنها تقدم تقريراً رسميًا للسلطان أو لأى جهة عليا ، وهو فى سبيل ذلك اتخذ من الوصف الموضوعى نهجًا وأسلوب عمل .

(ب) طريقة التدوين :

إذا كان شكل الرحلة والهدف منها يتحكمان فى طريقة التدوين ، فإن خالد ضيا قد اعتمد على الذاكرة فحسب ، وعلى الرغم من عيوب هذا النهج فى العمل الأدبى ، إلا أنه من الملاحظ أن رحالنا كان على وعى بمميزاته وعيوبه ، وقد رآه بأنه النهج الأمثل . وينطبق على خالد ضيا الرأى الذى يذهب إلى أن " الفنان لابد له ـ حتى يكون

فنانًا ـ أن يملك التجربة ، ويتحكم فيها ، ويحولها إلى ذكرى ، ثم يحول الذكرى إلى تعبير أو يحول المادة إلى شكل ... " .

وقد تكون فترة التوقف عن كتابة الرحلة أثناءها فرصة للتأمل ، ومن ثم ينعكس ذلك على التدوين المتأنى والنظرة الصحيحة والحكم الدقيق ، ولا شك فى أن خالد ضيا قد شرع فى كتابة ذكرياته ، بعد أن اختمرت فكرة المحاور تلك فى ذهنه ، فاستعان بذاكرته القوية ، ومن الملاحظ أن ذكرياته هذه لم يصبها أى تشويش أو خلط .

منهج تدوين الرحلة

مما يلفت النظر أن خالد ضيا استطاع أن يوازن بين الغرض من الرحلة والمادة التى جمعها ، وذلك عن طريق استخدامه منهجًا مختلفًا عن أعمال سابقيه ، وهو يقوم على اختيار موضوعات بعينها والانطلاق منها إلى وصف عدة أماكن محددة ، وهو ما يطلق عليه البعض " التدوين الموضوعى " ، ومن مميزات هذا المنهج حرية اختيار الرحال للتسلسل الزمنى والمكانى أو عدم مراعاته لذلك الأمر ، وكذلك إمكانية اتباع الشكل العلمى ، فيتتبع موضوعًا بعينه فى كل مكان يحل به ، ولهذا استغل خالد ضيا هذه المميزات وتمكن من أن يدرج تحت الموضوعات الأساسية المحددة موضوعات أخرى متعلقة بها وتنطلق منها ، وهى فى الوقت نفسه ترتبط بالهدف الرئيسى وتنسجم معه كما هو واضح من المحاور التى اهتم بها . ولقد حاول خالد ضيا أن يقدم هذه المحاور من خلال إطار ذاتى واضح أراد به أن يحقق تنوعًا فيما بينها ، خاصةً وقد تمسك بالبنية متعددة المحاور المتباينة ؛ فقد قسَّم موضوعات كتابه إلى ٣٥ مبحثًا ، تعكس مدى حرصه على تنوع المادة التى جمعها ، ولكنها فى الوقت نفسه يجمعها هدف وغاية واحدة ؛ وهى البحث عن أسباب تقدم مصر ورقيها فى تلك الفترة ، سواء كانت هذه الأسباب تتعلق بآثارها أو أحوالها الاجتماعية أو العسكرية أو الدينية أو الثقافية .

(ج) اللغة :

تكشف النظرة الأولى إلى اللغة التى كتبت بها هذه الذكريات عن طبيعة أسلوبية تكاد أن تنحصر خلال فترة أدبية يطلق عليها اسم " أدب ثروت فنون " تلك الفترة التى تنافس فيها أدباؤها فيما بينهم من أجل استعمال الجمل ذات التراكيب والكلمات المتناغمة والرقيقة فى كتاباتهم . ولذلك أحدثوا لغة خاصة سميت لغة ثروت فنون ، وهى لغة مستمدة ومستخرجة من الكلمات والتراكيب العربية والفارسية المتنوعة . لم يكن هؤلاء الأدباء يكتبون بلغة الشعب ؛ فهم يكتبون لطبقة المثقفين أو الصفوة المختارة كما يطلقون عليها .

لقد كان خالد ضيا فى بداية حياته يكتب بأسلوب مزخرف يصعب فهمه إلى حد كبير ، واستعمل الكثير من الكلمات العربية والفارسية ، وخاصةً التراكيب الفارسية - مثل رفاقه الذين كونوا جماعة ثروت فنون ، أو جماعة الأدب الجديد كما يحلو للبعض أن يطلق عليهم . غير أنه بمرور الوقت بسط لغته وجدد تعبيراته تاركًا الكلمات الدخيلة والقديمة التى لا توجد فى اللغة التركية ؛ فقد قدم بعد عام ١٩٣٨ م نماذج قصصية روائية لجأ فيها إلى البساطة فى اللغة .

والكتاب الذى بين أيدينا كان خالد ضيا قد ألفه وقت تحريره لذكرياته وهو عام ١٩٠٦ م ، وعلى هذا الأساس استعمل خالد ضيا - مثل رفيقه جناب شهاب الدين - الكثير من الكلمات الجديدة ، والتى أخذها من اللغة القديمة ، واستخدم بعضاً منها بمعانٍ جديدة ، والبعض الآخر اخترعها، وكذلك استخدم الكثير من الأفعال المركبة المتغيرة كنتيجة طبيعية لقبوله الكلمات الجديدة فى لغته ، وأيضاً أكثر من استخدام تراكيب متغيرة سواء كانت إضافية عربية أو فارسية .

ثانيًا : من ناحية المضمون

تعنى الرحلة عادةً فى أبسط معانيها حرية التنقل والحركة من مكان إلى آخر؛ فالرحال يحاول أن يتخلص من كل القيود التى تمنعه من إعاقة حركته . ولكن هذه

الرحلة التى بين أيدينا لها طابع خاص ، وهدف محدد خضع له خالد ضيا ، فتم تحديد خط سير (لعله كان محدداً سلفاً) وهو محكوم بواقع فترة زمنية محددة أيضاً وقصيرة ، فلن تتجاوز فترة إقامته ١٥ يوماً إلا إذا مدت له الفترة وأصبحت أربعين يوماً وفقاً لما تقتضيه الضرورة كما ذكر فى المقدمة .

ولذلك لم تسنح له الفرصة لسرد كل ما يشاهده فى مصر ، وإنما اضطر إلى الوقوف على موضوعات بعينها والتعمق فى تسجيلها حتى ليبدو وكأنه يريد أن يرسم لوحات كاملة ومنفصلة عن بعضها البعض .

إن طبيعة المهمة التى كُلِّف بها خالد ضيا لتنبئ عن كونها مهمة ذات طابع رسمى ، ويستطيع قارئ الذكريات أن يستشف أسلوبه التقريرى الفاحص المدقق والمدعم أيضاً بكثير من الإحصاءات والأرقام (عكس ما صرح به فى المقدمة من نسيانه إياها) . هذا فضلاً عن أن الرحال لم يبين ماهية المأمورية التى كُلِّف بها ، ومن الذى أصدر إليه هذا التكليف ، ومن خلال البحث فى كتب التأريخ الأدبية اتضح أن وقت رحيله إلى مصر كان معيناً فى بلاط السلطان محمد رشاد ، ولعله كان مكلفاً من قبله بإعداد تقرير عن الأوضاع فى مصر وأسباب تقدمها فى تلك الفترة ، لكن إذا صحت تلك الفرضية يتبادر إلى الذهن هذا السؤال :

هل هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو ذاك التقرير الذى قدمه ؟

إن الاعتقاد الأقرب إلى الصواب ، والذى نستشفه من خلال المقدمة وكذلك من طبيعة موضوعات الكتاب ، أن التقرير الأصلى قد تم رفعه مباشرة بعد انتهاء الرحلة ، ثم بعد ذلك بدأ الحافز الذاتى ونصيحة الأصدقاء يدفعانه إلى الشروع فى تحريره ليكون مؤلفاً فى أدب الرحلة من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون باعثاً وحافزاً على حث تركيا على البحث عن أسباب رقى مصر ، والرغبة فى التنبيه على ما يصادفه ونقل كل ما يراه لكى يعين قومه على التقدم .

وهذا معناه أن الرحلة لابد أن تكون فى هذه الحالة قد مرت بمرحلتين : الأولى وهى كتابة التقرير ، والثانية كتابة الذكريات .

وأيًا ما كان الأمر ، فإن ما يهم القارئ هو تلك الذكريات التى بين أيدينا ، والتى قسم فيها المؤلف موضوعاته إلى ٣٥ بحثًا طبقًا لعدد الأماكن التى قام بزيارتها ، وتمثل مقدار أهمية هذه الأماكن عنده المحك الرئيسى لتقديمها أو تأخيرها ؛ فقد أعد مذكرة خاصة به رتب فيها الأماكن الجديرة بالزيارة طبقًا لأهميتها كما صرح بذلك عند قيامه بجولة فى المتحف الزراعى .

إن تنوع المادة التى أوردها خالد ضيا فى ذكرياته تدل على مدى إحاطته بمختلف المعارف إحاطة جيدة ، الأمر الذى انعكس على مادة كتابته عن مصر ؛ فهو لا يتناول موضعًا أو أثرًا دون أن يتحدث عنه تاريخيًا أو جغرافيًا أو اجتماعيًا أو ثقافيًا أو سياسيًا . ولم تمنعه إقامته القصيرة بمصر من الدراسة المتعمقة للمجتمع المصرى .

مقدمة المؤلف

كنت قد غادرت " دار السعادة " = إستانبول ، يوم الثلاثاء الموافق السادس من كانون الثانى (يناير) سنة ثلاثمائة وأربع وعشرين ، ووصلت إلى الإسكندرية يوم السبت الحادى عشر من الشهر المذكور عن طريق أزمير وبيره ، ثم وصلت إلى القاهرة بعد ثلاث ساعات ونصف بالقطار السريع الذى تحرك عند غروب شمس اليوم نفسه ، نظرًا لضرورة عودتى بعد ذهابى إلى مصر مكلفًا بمأمورية تستغرق خمسة عشر يومًا أعود بعدها إلى الوطن .

يعد شهر كانون الثانى (يناير) شهرًا مفزعًا للغاية بالنسبة لنا بسبب قسوة الشتاء ، أما فى الإقليم المصرى ، فهو وقت الربيع وزمن تنزه الأغنياء الأجانب فى هذا الإقليم. وكنت قد عقدت العزم وأنا ما زلت فى القطار ، أن تكون فترة مكوثى بالقاهرة أربعة أيام حسب المأمورية المكلف بها - وهى فترة قليلة - ثم أقوم بجولة لتكوين رؤية مجملة عن المتحف والأهرامات التى أذهلت العقول ، وكانت سببًا من أسباب تكامل عمرانها الحاضر ، وكذلك رؤية الهيئة العامة للمدينة والمنشآت المائية التى تم تنفيذها لرى الأراضى بمياه النيل المبارك .

وفى الحقيقة ، فإننى وإن كنت أملك الوقت الكافى لتنفيذ ما عقدت العزم عليه خلال فترة إقامتى التى قد تمتد أربعين يومًا ... إلا أنه لم يكن قد تم تحديد مدة إقامتى مسبقًا ، وهكذا فقد توالت المفاجآت .

وعلى الرغم من أن هذا الوضع كان معلومًا لى من قبل ، فإنه بالتنظيم والعمل وطبقًا لحرصى على الوقت فيمكن الإقدام على تنفيذ مهام أساسية وتتبع أهداف معينة كما يفعل الرحالة الذين يفدون بكثرة إلى مصر فى تلك المواسم ، مستمتعين باعتدال

المناخ فى هذا الإقليم ، وإجراء الدراسات اللازمة أيضًا ، أو على الأقل توسيع دائرة التجوال وتشعيبها . وبناءً على ذلك ، فقد ظلت مشاهداتى عبارة عن مشاهد عادية تجذب نظر كل زائر ، غير أنه من الممكن أن أقدم كتابًا فى أدب الرحلات ، يهتم بدراسة الإقليم المصرى دراسة دقيقة فاحصة طبقًا لتمديد إقامتى فيه .

وبينما كان القصد أن أنقل كل ما استطعت أن أشاهده بشىء من التفصيل للرفقاء عند عودتى ، وأقدم ما بقى فى الذهن من أمور كثيرة يمكن أن نطبقها لدينا اليوم ، وكذلك ما شاهدته فى مصر من أحوال العمران والثروة والنظام ، إلا أنه قد أوصى بعض الأصدقاء بكتابة مشاهداتى وتحريرها من أجل أن تكون كتابًا فى أدب الرحلة . غير أننى كنت لا أستطيع أن أتجرأ على تحرير هذه الخاطرات ؛ لأننى لم أكن قد سجلت بعض الإحصاءات واحتفظت بها ، ولم أسعَ لجمع المعلومات من مواقعها، من أجل الرجوع إليها عند الضرورة ، وذلك لأننى لم أكن آمل فى نشر ذكريات فيما بعد خلال فترة وجودى بمصر التى لم تكن تكفى لكتابة مشاهداتى وملاحظاتى .

وإننى أزعم أن ذلك الأثر يناسبه تمامًا العنوان الآتى " مصر خاطراتى " (ذكريات عن مصر) من كل النواحى ؛ نظرًا لكونه مجموعة من الذكريات التى سوف تتضح فيما بعد ، والتى شرعت فى تحريرها ونشرها باسم " خاطرات " . ومما دفعنى إلى كتابتها هو التنبيه إلى توضيح الحال التى يتمتع به الإقليم المصرى حاليًا ، وهو موضوع ينبغى علينا تتبعه ، وهو من متطلبات المهام الوطنية أيضًا ، وذلك بالنسبة لموضوعاته ومحتوياته ، كما أنه يدفع للنهوض أيضًا ؛ لكونه أول أثر مدون فى هذا المجال - وإن كان أثرًا متواضعًا ، إلا أنه كتب بهدف التذكير فيما بعد فى إستانبول ، للتدليل على أن الأصل الذى اكتسبت به مصر معارفها ، وأدركته هو شعار المعرفة ، ويبدو أن أسلوب الإدارة له تأثير كبير أيضًا فى بلوغ مصر إلى درجة عالية من العمران والنظام اليوم .

وإن أمعنا النظر قليلاً ، وجدنا أن أسباب تقدم مصر هو عبارة عن حسن الإفادة من الوسائل والثروة المحلية المتوافرة بها ، أكثر من اعتمادها على الوسائل والمؤثرات الخارجية وتطبيقها وفقًا للاحتياج المحلى .

وقد عقدت العزم على القيام بمهمة صغيرة فى هذه الرحلة المختصرة ، ألا وهى البحث عن أسلوب الإدارة فى مصر الذى استقصينا عنه قليلاً ، وتوضيح النواحى التى يمكن تطبيقها عندنا من الموضوعات التى تناولتها فى كتابى " خاطرات " (ذكريات) ، ويحتوى الجزء الأول من " خاطرات " (ذكريات) على المؤسسات المدنية الحديثة والآثار القديمة والتاريخية التى هى سبب عمران مصر ورفاهيتها ، والقسم الثانى يشتمل على الموضوعات الآتية :

القسم الأول

١ – الأهرامات .

٢ – متحف آثار الفراعنة .

٣ – القلعة والبئر .

٤ – حدائق البلدية .

٥ – حدائق الحيوانات والنباتات .

٦ – الهلال الأحمر .

٧ – الأحوال المناخية .

٨ – الجوامع .

٩ – متحف الآثار الإسلامية والعربية .

١٠ – دار الكتب الخديوية .

١١ – الحافلات الكهربائية .

١٢ – الطرق ، الميادين ، التماثيل .

١٣ – الكبارى .

١٤ – غاز الفحم .

١٥ – العربات والمشاة .

١٦ – مهام البوليس ، دوريات البوليس وتشكيلات بوليس مصر .

١٧ – الفنادق .

١٨ – الموسيقى .

١٩ – مكاتب البريد .

٢٠ – الزى ، والتربية ، والمعاشات ، وبعض المعلومات العسكرية .

٢١ – هليوبوليس ـ عين شمس .

٢٢ – المراكب .

٢٣ – القناطر الخيرية ـ النيل ـ الخليج .

٢٤ – الحدائق القومية فى القناطر الخيرية .

٢٥ – متحف المنشآت المائية فى القناطر الخيرية .

٢٦ – خريطة المنشآت المائية فى القناطر الخيرية .

٢٧ – ترسانة القناطر الخيرية ، والسجن العمومى ، والقلعة .

٢٨ – اضطلاع موظفى الحكومة لمهام عملهم ، وأيام إجازاتهم .

٢٩ – جباية الأموال .

٣٠ – المطافى .

٣١ – موكب المحمل .

٣٢ – مراسم العرس .

٣٣ – مراسم الجنازة .

٣٤ – المزارات .

٣٥ – المتحف الزراعى .

الأهرامات

تعد الأهرامات التى يطلق عليها الأوروبيون اسم " بيراميز " Pyramides، والعرب " الأهرام " ، والأتراك اسم" تلال فرعون " ـ من الآثار القديمة التاريخية القيمة للغاية ، والخاصة بالقطر المصرى فحسب ، وهى جديرة بالبحث والدراسة .

وهى أبنية حجرية بُنيت بشكل هندسى خاص يعبر عنها باسم " الأهرام " التى يزداد الاقتناع بمتانتها القوية جداً ؛ إذ إنه لا يمكن أن تظل قائمة منذ إنشائها وحتى اليوم دون أن يصيبها أى خلل فى أساسها ، ويخال أنها سوف تحافظ على قوتها حتى يوم القيامة ، ولا ريب فى أن هذه الركامات الحجرية لم تُبنَ عبثًا .

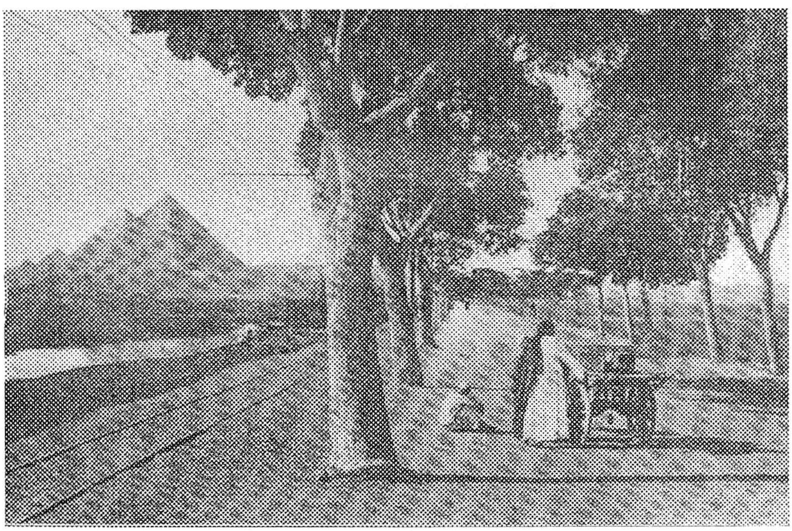
وبعد أن تيسرت قراءة الخطوط الهيروغليفية التى استعملها القدماء المصريون ، وبعد أن أمكن الحصول على عدد من الكتابات الحجرية مع ظهور الاكتشافات الجديدة ، فقد اتضحت حقائق الأحوال التاريخية للآثار الموجودة الخاصة بالفراعنة ، وكلما اتضحت حقائقها ازدادت قيمتها وأهميتها .

يبلغ عدد الأهرامات الموجودة فى الإقليم المصرى ـ باستثناء ما محى منها وما خرب تمامًا ـ تسعة وستين هرمًا ، معظمها مشيد على سلسلة الجبال التى تمتد بموازاة النيل ، ويقع بعضها فى الجانب الغربى من شاطئ نهر النيل . وتلقب الأهرامات الموجودة منفردة أحيانًا ومجتمعة أحيانًا أخرى فى الأراضى الممتدة من مدينة الجيزة المواجهة تماماً للقاهرة اليوم حتى أسوان ، ويسمى كل منها باسم المكان المبنى فوقه ، بأهرامات الجيزة ؛ لوجود معظمها بالقرب من مدينة الجيزة .

ونظرًا لأن أهرامات الجيزة قريبة جداً من القاهرة ، يوجد طريق رائع مرصوف بالحصباء ممهد لكل أنواع وسائل النقل من المدينة إلى موقع الأهرامات ، وعلاوةً على

ذلك هناك خط تراموای كهربائی ممتاز من أجل الذهاب والإياب بفاصل نصف ساعة فقط بشكل مريح جداً . وأصبح من السهولة بمكان سرعة الوصول إلى هذه الأهرامات بالنسبة للمسافرين إلى مصر من أجل مشاهدتها ، وذلك من الساعة السابعة صباحاً حتى منتصف الليل .

شُيِّد الطريق المؤدى إلى الأهرامات بعناية فائقة ومتانة عظيمة ، وقد انتصبت الأشجار على جانبيه ، وتجرى محاولات للمحافظة على نظامه واستمرار تجديده ، والتى بلغت أعلى درجات الكمال .



صورة رقم (١)

الطريق المؤدى إلى الأهرام - خطوط الترام الكهربائى

ويعتبر هذا الطريق شارعًا منظمًا ومتنزهًا محليًا يتجول فيه أعاظم مصر وأغنياؤها والراغبون فى التنزه عمومًا فى أيام الجمعة والأحد بالعربات والأوتوموبيلات ، ولا توجد أية موانع تحول دون ذلك ؛ بسبب انتظام الطريق والظلال التى تعكسها تلك الأشجار ؛ لعدم وجود ما يحول دون المرور عليه على الإطلاق من بين سهل مفروش بالخضرة ، والاستمتاع برؤيته .

خرجنا إلى الطريق سيراً على الأقدام من سراى الإسماعيلية من أجل ركوب الترامواى من محطة الجزيرة مارين من كوبرى قصر النيل بصحبة صديقين مثقفين ، و على الرغم من أنهما قد اقترحا عند وصولنا إلى الكوبرى ، شرب القهوة فى أى مكان ، وحتى فى فندق " سميراميس الموجود أمامنا مثلاً ، إلا أنه عندما رأينا الكوبرى لم يكن قد أغلق بعد ، انضممنا إلى البشر الذين كانوا ينتظرون من أجل المرور من الكوبرى ، والتى وقفت على أقدامها برضا وطواعية لتتأمل ما سوف يحدث فى بادئ الأمر لحظة إغلاق الكوبرى وفتحه ، وخاصةً إغلاقه .

وبينما كان موظفو الكوبرى يؤدون أعمالهم بحيوية ونشاط ، استغرقنا نحن فى المتابعة ، وكلما اقتربت فتحة الكوبرى ، لم يكن هناك حاجز يمنع أو يوقف المسافرين المتعجلين الذين يحاولون المرور والقفز عليه سوى سلسلة رقيقة ومأمور البوليس المناوب الذى يقوم بعمله على ناصية الكوبرى وبيده عصا قصيرة ، ورغم حرصه الشديد على أداء وظيفته بجدية وبإصدار الأوامر - دون أن يقطب حاجبيه - والتى كان يطيعها الكثيرون من الكبار فلم يستطيعوا التحرك من أماكنهم ، فإن بعض القرويات ومعهن أطفالهن كن يحاولن العبور من الخط الممنوع وسط الكتل المنتظرة غير مكترثات بأوامر الشرطى الذى لم يكن يملك حيال ذلك سوى الابتسام وسط ضحكات المنتظرين إزاء هذا التصرف الطائش .

يفتح كوبرى قصر النيل يومياً فى الواحدة والنصف ، ويغلق فى الثالثة صيفًا ، ويفتح فى الصيف والأيام الأخرى عند الضرورة فى الحادية عشرة قبل الظهر ، ويغلق فى الثانية عشرة . وعند غلق الكوبرى تماماً ، يبدو منظر الخلق بعامة وكأنهم يشرعون فى الهجوم بعد أن ترفع السلاسل التى كانت تعوق دون المرور والعبور ، ويجرى كل البشر ؛ إذ إن الكوبرى أصبح خاليًا من أوله إلى آخره ، ولقد صدقنا وآمنا أيضًا بأنهم على حق فى هذا الهجوم ؛ لأنهم عرفوا بالتجربة أنه سوف يصعب المرور والعبور بعد أن تتداخل العربات القادمة من كلا الاتجاهين ، وخاصةً فى المنتصف ، وبعد أن يختلط القادمون من كلا الاتجاهين ؛ بسبب السماح للقادمين فى الاتجاه المقابل

بالمرور فى الوقت نفسه . وبينما يسرع الجميع بمجرد فتح الكوبرى على هذا النحو ؛ فالنظام يقتضى السير والتحرك باتباع يمين الشارع دائمًا ، نظرًا لوجود لوحات معلقة فى الأماكن المناسبة مكتوب عليها (السير على اليمين) ، وهنا شىء يستحق الإشادة به ولفت الأنظار إليه ، وهو أن المصريين سواءً أكانوا من المشاة أم العربات قد اعتادوا على السير وفقًا للقواعد والأصول التى قبلتها الحكومات فى المدن المتحضرة .

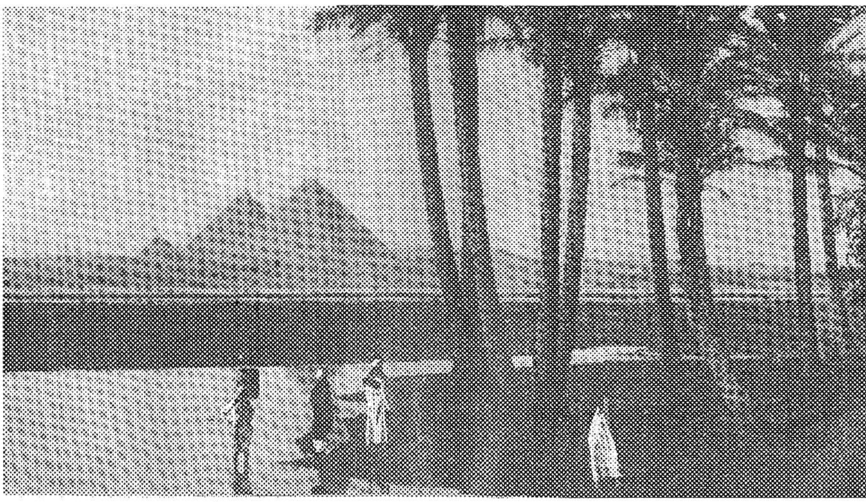
وكنا نحن نتحرك من الناحية اليسرى التى كنا نظن نتيجة لعدم المبالاة ، أنها خالية للسير عليها بسهولة ، وأدركنا خطأنا بعد وصول القادمين من الاتجاه المقابل ، ولكننا كنا قد وصلنا إلى محطة تراموای الجيزة ، إلى مشارف الجزيرة ذات الطريق السداسى ، وقد واصلنا طريقنا بصعوبة ، وهذا ناتج بالضرورة عن عدم إمكانية المرور فى الاتجاه المقابل لعدم وجود مسافة بين العربات والسائرين داخل الازدحام ؛ فالصدر ملاصق للصدر ، والمرفق فوق المرفق لضيق طريق المترجلين أساسًا .



صورة رقم (٢)

صورة التقطت على مقربة من أهرامات الجيزة

كان من الضرورى أن ننتظر ساعة وربع من أجل أن تتحرك القطارات فى الوقت نفسه معًا خلال النصف ساعة . وبينما كنا نستفيد وقت انتظارنا على ناصية الكوبرى ، إلا أننا هنا ننتظر بلا جدوى ، لقد ضاقت روحى حقيقةً .



صورة رقم (٣)

كورنيش أهرامات الجيزة من ناحية القاهرة

تحركنا مع وصول القطار الذى انتظرنا مجيئه من الاتجاه المقابل . يبدو أن جميع قضبان الترامواى الكهربائى داخل المدينة ذات خطوط مزدوجة ، غير أنه بينما تكون قضبان المدينة الجديدة (عين شمس) من الخطوط الخارجية ذات الخطوط المزدوجة ، إلا أن القطارات تتلاقى فى التحويلات التى تقام فى أماكنها المناسبة ؛ حيث تتقابل عند خطوط واحدة .

وعلى أثر إخبار محصل الترامواى خطأً بالوقوف أمام حديقة الحيوانات ؛ فقد تسبب ذلك فى السير مسافة مائتين أو ثلاثمائة خطوة بمجرد هبوطنا من الترامواى من أجل الانتقال إلى ترامواى الأهرام ، بينما كان القادم من تراموايات الأهرام يتلاقى مع الترامواى الذى هبطنا منه أمام ميدان الجيزة . كانت الممرات التى تعاقبت على محطة مدينة الجيزة تبدو على هيئة شاعرية بحق ؛ فقد كان يمين الترامواى

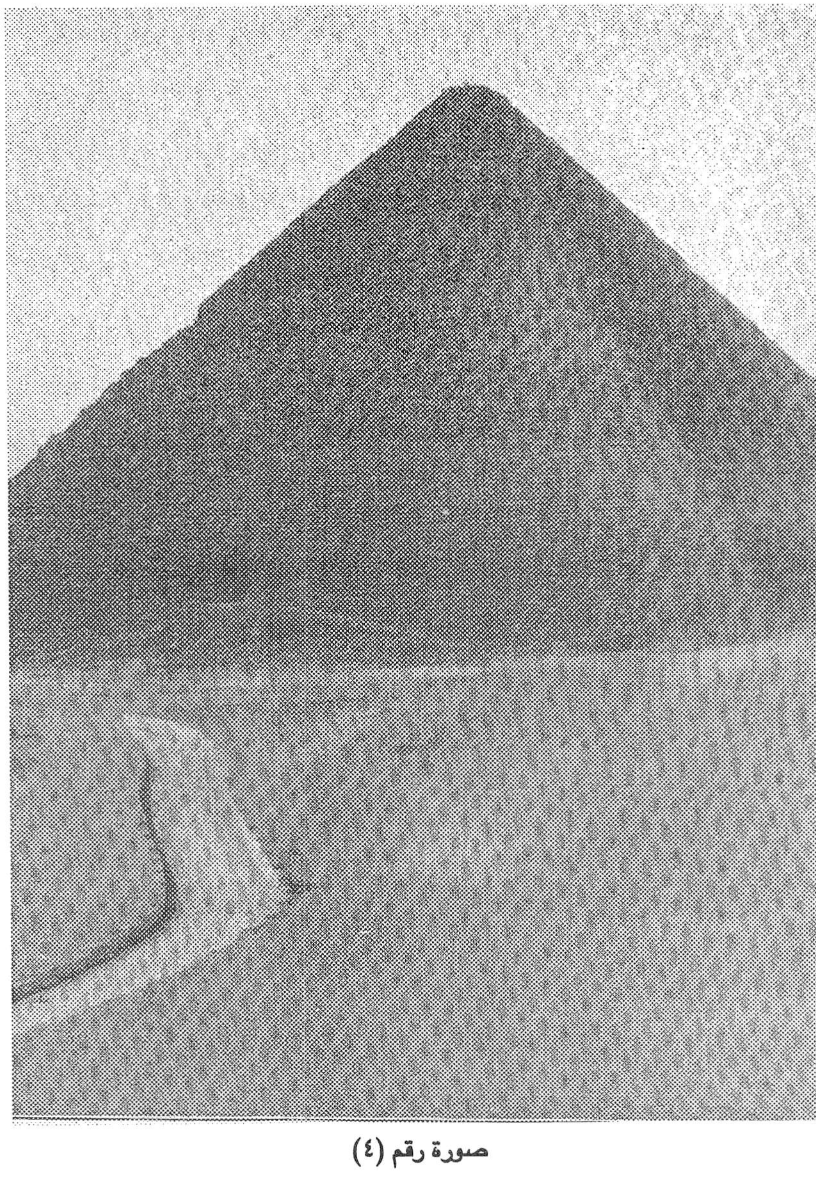
شارعًا فخمًا جميلاً نظيفًا مكنوسًا ومرويًا بالماء ومنتظمًا ، وقد اصطفت الأشجار على جانبيه .

وما يمكن أن تلتقطه العين بعد ذلك هو حقول الشعير والبرسيم ؛ فهى مثل الزمرد ، ولم تكن قنوات النيل لم تفتح بعد وقد كانت من قبل مفتوحة ، ومستنقعات المياه المتخلفة من الفيضان فى بعض الأماكن ، بالإضافة إلى النخيل الجميل المنظر والمنازل القروية المصنوعة من الطوب الأسود .

تبدو الأهرام الثلاثة التى تكبر تدريجيًا عند الهضبة ، والتى تمتد فى نهاية الطريق الممتد مثل شريط أمامنا . انتظرنا القطار خمس دقائق، وقد قدم من الاتجاه المقابل فى منتصف هذا الطريق ، خلال هذه الفترة تجولت أعيننا فيما حولنا ، وجذب انتباهنا بشدة رجل البوليس ، وهو يقوم على خدمته فى وضع نظامى فى ذلك المكان الخالى الذى لم يكن به سوى منزل وحيد ومركز بوليس على حافة الطريق . أدركنا فى ذلك الوقت أن رشيد عاكف باشا قد أقام فى مصر من أجل تغيير الهواء فى هذا المنزل .

ومع وصول الترامواى واصلنا الطريق مرة أخرى ، وكانت الأهرامات تبدو رائعة جدًا بعظمتها وضخامتها كلما اقتربنا من المنزل المقصود .

وحينما وصلنا إلى المحطة الأخيرة أحاط كثير من البدو والباعة العجم بالزبائن من السياح والمسافرين الذين هبطوا من العربات ، وكان كل منهم يمدح جِماله أو حماره ، ويحاول أن يبين ما سوف يقوم به من خدمة وإرشاد ، وهم يقومون بمنافسة بعضهم بعضًا ، ولم تكن محاولاتهم إزعاج المسافرين ومضايقتهم من الأشياء التى يمكن تحملها ، إلا أنه كان يحد من هجومهم وجود البوليس الذى يقوم بأداء مهمة الخدمة المكلف بها ، ومن ثم فلم يستطيعوا مواصلة محاولاتهم بعد ذلك مرة أخرى . وبسبب أن الموقع الذى أقيمت فيه محطة الترام كان واقعًا فى منخفض الجبل الذى شُيِّدت عليه الأهرام ، فقد كانت مختفية عن الأنظار فى هذا المكان .



صورة رقم (٤)

ضخامة الهرم " خوفو "

كانت توجد هنا كل الاستعدادات المختلفة (من فندق ممتاز يسمى مينا هاوس) أو فندق الأهرام ، وإسطبل تابع للفندق ، ومكان خاص بالعربات ، ومقهى خاص بفرع البريد ، ودكاكين للتصوير والأنتيكات ، وهناك نقطتان للبوليس : إحداهما أمام الفندق ، والأخرى فى محطة الترامواى ، بينما تقف الجمال الموضوع عليها السُّرجُ المخصصة للركوب والمسحوبة إلى ظلال الشجر على حافة الطريق ، وتقف الحمير وعليها السرج المخصص لركوب النساء والرجال .

كان يوجد أطفال العرب وهم يرتدون القمصان البيض والطواقى ، والبدو الملتحف بالكوفية ، والمرشدون اليمنيون ذوو الجبة الحمراء والقمصان البيض ، وبعد ذلك توجد عربات الأجرة ، بل ويقف أوتوموبيل أو اثنان على أهبة الاستعداد لتلبية الأوامر .

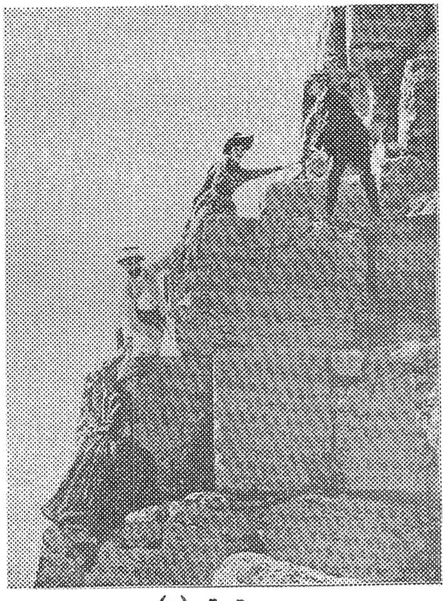
كنت قد اقترحت امتطاء الجمال من أجل إضفاء شكل رحلة صحراوية حقيقية على رحلتنا ، ولكون الطريق يستغرق عشر دقائق . وقد وافق رفقائى على هذا الاقتراح ، وبناء على تجارب سابقة قام بها هؤلاء الرفاق ، فقد ساومنا بقوة مع الجمالين . ولقد أدركنا أن التنقل والترحال ليس له تعريفة موحدة هنا؛ فهو يتبع الكيف والمزاج ، حتى أن الأجرة المقدمة عن طريق المساومة فى صورتها المعتادة ، لم تكن لتسعد أصحاب الجمال والحمير .

وإذا صادفوا زبونًا لطيفًا فمن المعتاد نقض اتفاقهم واستغلال الزبون بقدر ما يستطيعون وانتزاع أموال أكثر مما يستحقون ، والإلحاح والإزعاج كلما اعتراه الملل من مطالبتهم بالبقشيش .

وفى النهاية ركبنا الجمال، وشرعنا فى تسلق طريق مرتفع . لم نستطع رؤية ما يحيط بنا حتى موضع الطريق الملتوى ، نظرًا لوجود حائط أعلى من قامة الإنسان على جانبى هذا الطريق ليحميه من زحف الرمال المحيطة به . وكلما تقدمنا نحو ذلك المكان كانت تلك الأهرام العظيمة تتسارع فى الظهور أمامنا بكل عظمتها وفخامتها .

وعلى الرغم من وجود ميدان واسع جداً يمتد من نهاية الطريق وحتى موضع الأهرام ، فإنه كان يمنع رؤية ما يحيط بنا محاولاتنا الحثيثة لكى نكون متيقظين خشية السقوط المفاجئ واصطدام صدورنا وأظهرنا بالأعمدة والقوائم الأمامية والخلفية لسرج الجمال . أوقفنا الجمال عند سفح الأهرام وهبطنا .

وعند الوصول إلى الأهرام ، لم يكن فى الإمكان التعبير عن الأحاسيس الجديدة المتولدة عن عظمة المكان . فالأهرام تغيب حيناً ، وترى حيناً آخر من بين أراضى النخيل والأشجار الكثيفة والنيل المبارك الذى يتلألأ على شكل مرآة فضية مع انعكاس الشمس ، وحقول المزروعات التى تبدو على هيئة بروج واسعة على امتداد مرمى البصر ؛ وبسبب وجودها فى موقع منخفض تظهر الأهرام فى ناحية ما فتبدو فى ضخامة جبل صغير عظيم جداً ...ثم يظهر الميدان الواسع الذى بنيت عليه الأهرام ، وفى ناحية من الميدان يوجد منخفض صحراوى رملى .



صورة رقم (٥)

اعتلاء الأهرام

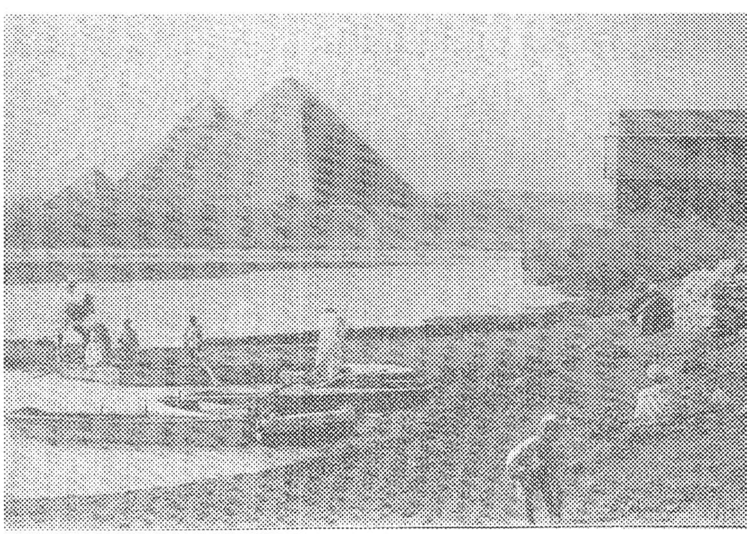
تبـدو مـدينة القاهرة بعـد ذلك ذات طابع بانورامى بقلعتـها المشيدة عند مؤخرة جبـل المقـطـم الحـاكم للمدينة ، وجـامـع مـحـمـد على باشـا الذى يتـمـيـز عن الجـوامـع الأخرى بمنارتيه .

وعلى الرغم من أنه يمكن الاكتفاء بما تمنحه هذه الزيارة من بهجة مفرحة وانشراح داخلى ، فإن الهدف الأصلى هو أن أتسلق هضبة الأهرام - التى سمعت عن إمكانية تسلقها ، ورأيت رسمها فى تلك البقعة الصغيرة قبل وصولى إلى هنا - وأن أدخل إلى الأهرام من المدخل الخاص وأهبط منه ، بعد أن نستخلص فكرة عن الموقع مدققًا وفاحصًا ومتأملاً فيما حولى . فقد كنت اعتقد أن معاينتى للمكان بنفسى والبحث فيه سوف يحتاج إلى فحصه فحصًا شاملاً ودقيقًا ، بل إننى صرحت لأصدقائى فى الطريق بملاحظاتى هذه ، وقالوا لى إنه لابد من وجود ملابس ذات طبقة واحدة نرتديها لتنفيذ هذه الفكرة وجعلها فى حيز الفعل ، وأن ملابسنا اليوم لا تساعد كثيراً على هذا .

غير أننى كنت لا أستطيع أن أستوعب ذلك على الإطلاق ، لقد كانت ضخامة الأهرام فى الواقع أكبر مما تستوعبه مخيلتى . كنا لا نستطيع أن نتخيل حتى ولو بمقدار العشر ولا حتى واحد فى المائة ضخامة الأهرام الحقيقية . فالزائر الذى يعتلى سفح الأهرام ، تبدو له على شكل معين ونسبة محددة من مجموعة من الأحجار موضوعة فوق بعضها بعضًا بكيفية معينة، كما أن حيطانها عادية وتتركب من أحجار سبق أن رأينا ضخامتها فى الصور ، وهى تتكون من قطع من الصخور الضخمة والمنتظمة، وهى فى ضخامة طول الإنسان حقيقةً ، وعندما يرفع الزائر رأسه نحو السماء لكى يستطيع رؤية قمة الأهرام ، فإنه يقر ويسلم طوعًا أو كرهًا بأنه أمام معجزة تاريخية ، وهو يعاين مدى الضخامة الحقيقية التى تتجسد أمام ناظريه بروعة فائقة . ويكون الاعتراف والتصديق بأنه ليس من السهل الصعود إلى قمة الهرم الذى يبلغ ارتفاعه ١٤٦ مترًا ، بواسطة المدرجات التى ترتفع بمقدار مترين تقريبًا .

هكذا تبرز لعين الحقيقة أن الأهرام تحوز قيمة خاصة سواء لضخامة هيئتها العامة أو بسب أجزائها الداخلية ، فضلاً عن أهميتها التى تحظى بها بسبب قدم بناء هذه الأهرام التى تعد مدار فخر المصريين ... ونظراً لهذه المزايا الخاصة ، فإنه من الضرورى دراستها دراسة عميقة وجادة تليق بمثل هذه المبانى العظيمة أنفة الذكر .

تعد الأهرام أثرًا تاريخيًا بنى على صخرة ذات قطعة واحدة سوداء مستوية وصلدة ، وهى تبدو وكأنها قطعة من جبل اصطناعى . طول كل ضلع من أضلاع القاعدة المربعة ١٣١ متراً ، وارتفاع الهرم كله أيضًا ١٤٦ متراً ، أما ارتفاع جبهة المثلثات فتبلغ ١٨٦ متراً ، ولا يمكن أن يتجاهل ذوو الإنصاف والإذعان المنهج والطريقة التى تم اتباعها فى وضع وترتيب قطع الصخور الضخمة التى رتبت فوق بعضها البعض بانتظام معمارى ، وهو يبدو من بعيد فى ضخامة حائط حجرى عادى ، وكذلك يعجز أى ثناء عن تقدير مدى القوة والمقدرة العقلية التى بذلت من أجل إظهار هذه الأهرامات ، وعن تقدير مؤسسيها وبانيها .



صورة رقم (٦)

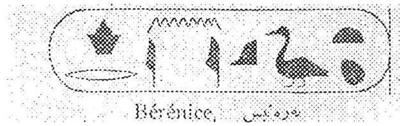
أهرامات الجيزة وآثار فيضان النيل

وطبقًا للإرشادات والبحوث المختلفة والدراسات الوثائقية التى تناولتها الاستكشافات ، فإن هذه الأهرام هى مقر النوم الأبدى ، أو بعبارة أخرى هى قصر الخلود الذى بناه الفراعنة المصريون من أجل أن تكون مقابر لهم ، وهم الذين حكموا وأسسوا حكوماتهم قبل ٥٠٠٤ ق . م / ٥٦٢١ ق . هـ .

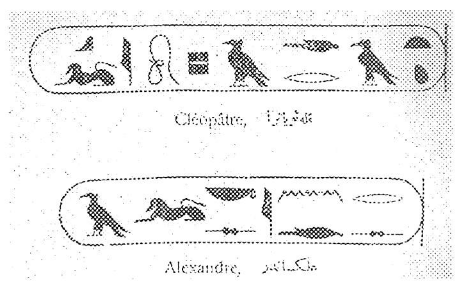
ويسلم المؤرخون والعارفون بقيمتها ، بأن ذكرى الأزمان والعصور السابقة هذه تضفى قيمة معنوية لا تقدر بمال مهما بلغت ضخامته . ولاشك أنه طالما بقيت الآثار الخالدة مثل الأهرام وأبى الهول والتماثيل والمعابد هذه ، فسوف تحافظ مصر أيضًا على قيمة حاضرها التاريخى وأهميته .

عندما كان حل الهيروغليفية **Hieroglyphes** وقراءتها لغزًا مجهولاً لكل شخص حتى قبل مائة عام ، فقد كانت الأحكام تصدر متتابعة على الآثار التى ظهرت عن طريق الاستكشافات التى أجريت . ويحوى الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى فى قلعة رشيد عام ١٢١٤ هـ (وهو موجود اليوم فى متحف بإنجلترا) ، و يمثل قيمة تاريخية عظيمة ؛ حيث يعد اكتشافه بمثابة مفتاح قراءة الخط الهيروغليفى - يحوى هذا الحجر على عبارات أو أسطر لها نفس المعنى : - الأول مكتوب بالهيروغليفية التى استعملها القدماء المصريون ، والثانى بالديموطيقية التى استعملها الفينيقيون ، وقد اقتبسوها من الخط الهيروغليفى ، والثالث العبارة التى رسمت بالحروف اليونانية ، والتى وفق فى حلها وكذلك حل لغزها العالم الإنجليزى (يونغ) **Young** بعد مقارنتها مع الجملة نفسها وحروفها مع بعضها البعض ، وكان قد قُرئ فى هذه العبارة اسم "بطليموس الخامس" **Ptolemis** الذى جلس على العرش عام ٢٠٤ ق . م .



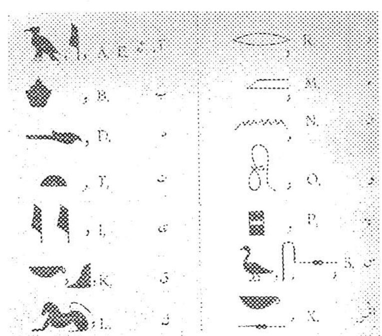


وفى الفترة الأخيرة وفق العالم الفرنسى " شامبليون " فى حل وكشف قراءة جمل (علكساندر ، وقله وباترا ، وبهرهنيس) وساعده ذكاؤه الفطرى ومجهوداته وإقدامه الذى وجهه لتوسيع تطبيق أسماء الأشكال المصرية القديمة نفسها ومقارنتها .



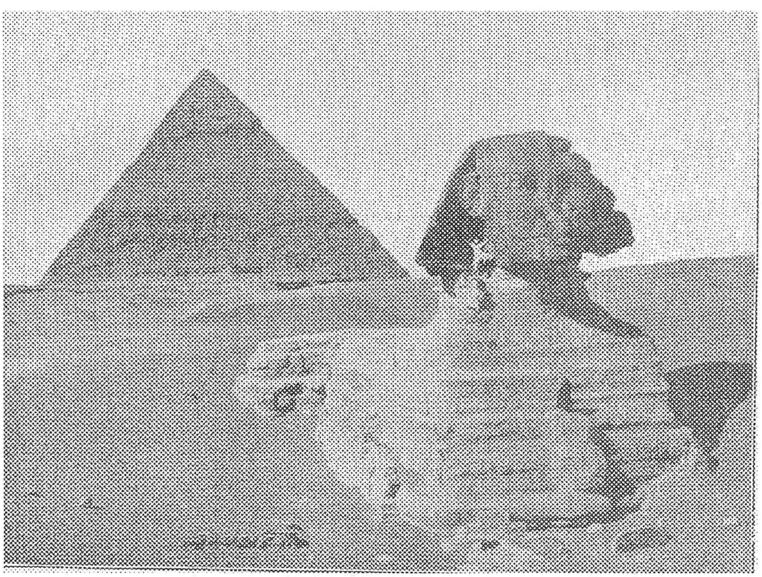
(به ره نيس / قله وباترا / وعلكساندر)

وكان قد اطلع على تواريخ المصريين، ورتب ألفباء الأبجدية الهيروغليفية التى هى مفتاح القراءة على الوجه الآتى :



ومن الحقائق التى تصل إلى درجة البداهة اليوم، بالنسبة للأشخاص المعنيين بالبحوث اللغوية ، أن طريقة قراءة ونطق مخارج الحروف للغة الهيروغليفية ، تتشابه مع اللغة القبطية المستعملة اليوم فى مصر .

وتتزايد قيمة الآثار الموجودة والمكتشفة، وتتعاظم أهميتها يومًا بعد يوم ؛ خاصةً بعد أن تيسرت قراءة الهيروغليفية اليوم بفضل ذكاء " شامبليون " وجهود وسعى أصحاب الاجتهادات الذين جاءوا من بعده فى هذا المجال ، بالإضافة إلى وضوح صرفها ونحوها ، مما جعل العبارات الهيروغليفية المنقوشة على المبانى والمعابد والحوائط والمرسومة على الأهرامات والتماثيل ، تنظم الأحداث التاريخية ووقائعها طبقًا للوثائق التاريخية المصورة ، وبالتالى ظهر العديد من الوقائع التاريخية التى ظلت محجوبة فى الظلام ومجهولة ، واتضحت تدريجيًا الحقائق التى نستدل عليها من خلال الآثار التى أظهرتها الحفريات .



صورة رقم (٧)

تمثال أبى الهول وهرم خفرع

وفى بداية زيارتنا التى قمنا فيها بالتجول حول الأهرام بشكل عام ، وبعد أن شاهدنا صورها التى يعرضها محل تصوير يتجول مصورره فى ساحة الأهرام ، وكذلك شاهدنا القصر الذى يقال إن " إسماعيل باشا " الخديوى الأسبق بناه فى الزاوية المؤدية ناحية سهل التل الذى بنى عليه الأهرام ، قصدنا مباشرةً تمثال أبى الهول ونحن نسير فوق أراضى رملية تعوق حركة المشى ، متجهين ناحية الجنوب متخللين أهرامات صغيرة مهدمة يمناها ويسراها وعلى مقربة من أكبر الأهرامات .



صورة رقم (٨)

أطلال معبد مدفون تحت الأرض بالقرب من تمثال أبى الهول

وعلى الرغم من أن الأهرامات بنيت فوق هضبة ، فإنه يوجد فى منتصفها منحدر يشكل واديا يمتد تجاه سهل تمثال أبى الهول . وعلى الرغم من أن التمثال تظهر رأسه فقط من على البعد ، فإن جسده يظهر أيضا من بين الرمال النقية التى تغمره من كل جانب . هذا الهيكل الذى أطلق عليه العرب اسم " أبى الهول " والأوروبيون " اسفنكس" **Sphinx** هو تمثال رأسه إنسان وجسده أسد ، ظهر منحوتًا من قطعة صخر واحدة ، وكون رأسه رأس إنسان إشارة إلى العقل ، أما جسد الأسد ففيه

إشارة إلى القوة ، والتماثيل التى تركها الفراعنة هى تذكير للأجيال التالية بالفرعون الذى بناها .

وعلى الرغم من أنه يكثر وجود مثيلاتها بوفرة سواءً متفرقة أو مجتمعة فى البلد ، فإن أكبرها تلك الموجودة فى الجيزة .

يبلغ طول أبى الهول ١٩,٩٧ ذراعًا ، وأذنه ١,٨٠ ، وأنفه ١,٧٩ ، وفمه ٢,٣٢ ، وهو يحتل مكانًا واسعًا ؛ حيث يبلغ حجمه ٤,١٥ مترًا ، ويتجه وجهه ناحية الشرق ، ويقال إن العبيد قد اتخذوا هذا المكان ميدانًا لرمى الرماح ، واستهدفوا رأس التمثال لرمى الرماح ؛ لكى يتعلموا ويتدربوا على الرماية ، وقد تهشم وجه التمثال، ولم يستطع أن يصمد أمام تخريب يد الزمان . ويوجد على مقربة من تمثال أبى الهول بقايا معبد صغير اكتشف عن طريق الحفر بالقرب منه تماماً .

وطبقًا لما يرى فى صوره ، يتم الدخول إليه عن طريق منحدر مفتوح من فوقه . إن أثر الفن الذى يبرز فى تسوية ونحت أعمدة وحوائط المعبد بأرضيته المغطاة بالرخام الصوماكى الأبيض ، والمبنية باعتناء خاص من الرخام الصوماكى الأحمر فى الطول والعرض الضخم للغاية ، يبرهن على أنها شيدت بمهارة بهرت أصحاب الفنون فى العصر الحاضر . وترى بكثرة الأحجار التى يبلغ طولها ثلاثة أمتار أو ثلاثة أمتار ونصف وعرض مترين فى حوائطه ودهاليزه وأسقفه .

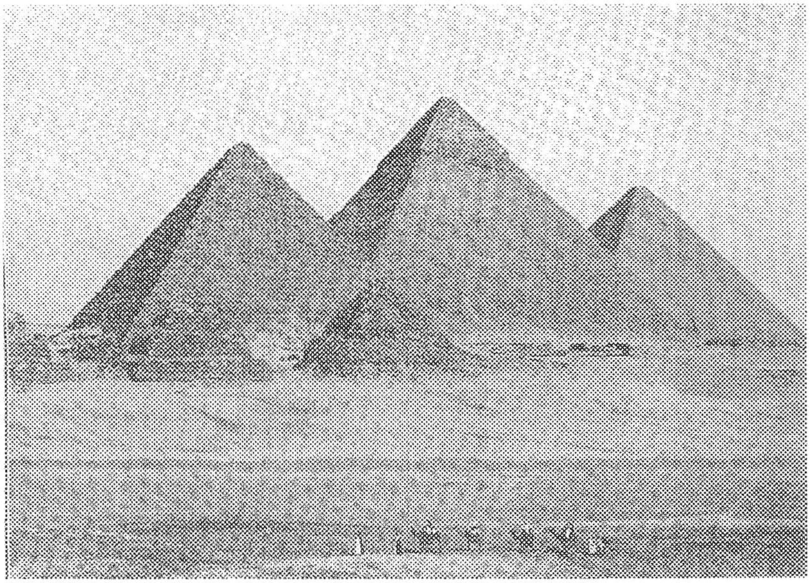
وأهرام الجيزة هى الأهرامات الثلاثة الضخمة الواقعة غرب جنوب الجيزة . أما تمثال أبى الهول فهو يقع تقريبًا شرق هذه الأهرام وإلى الجنوب الشرقى منها . وتتجه الأسطح المثلثة التى تشكل جهات الأهرام تمامًا إلى الجهات الأربع الأصلية أى إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب ؛ بسبب أن اثنين من أضلاعها المربعة الأركان تتوجهان إلى الغرب والشرق ، والضلعان الآخران إلى الشمال والجنوب .

وطبقًا لما عرفناه اليوم عن تاريخ بناة هذه الأهرامات التى عرفت على شكل حكاية وبأسلوب سطحى ، فإن أسماء الفراعنة هم خوفو وخفرع ومنكورع . ويتبين

من هـذه الإيضـاحات أنه خلال أوقات تشييدهم كانت الحكومة الفرعونية المصرية التـى تأسست منـذ ٥٠٠٤ ق .م ، ٥٦٢١ ق . هـ هـى عـبـارة عـن الأسـرات الحـاكمة الأربع والثلاثين ، وكـانت كـل عـائلة – طبـقـًا لما أورده " مانيتون"[١] فى جدوله ، وما اتضح من الآثار المكتشفة - تتشكل من الفراعنة من الأسرة الثامنة حتى الرابعة والثلاثين .

كـان الفـرعـون الأول للعـائلة المنـفيسية الرابعة التى استمر حكمها ٢٨٤ عـامًا اعتـبـارًا مـن ٤٦٢١ ق هـ ، هو الفرعون الذى يدعى " خوفو " مشيد الهرم الـذى سبق تعـريفـه ، وهـو أضخم الأهرامات فى الإقليم المصـرى ، وقد بدأت الآثار - التى قدمت لتاريخ مصر خدمات جليلة - تظهر بدايةً من عهد هذه العائلة الحاكمة .

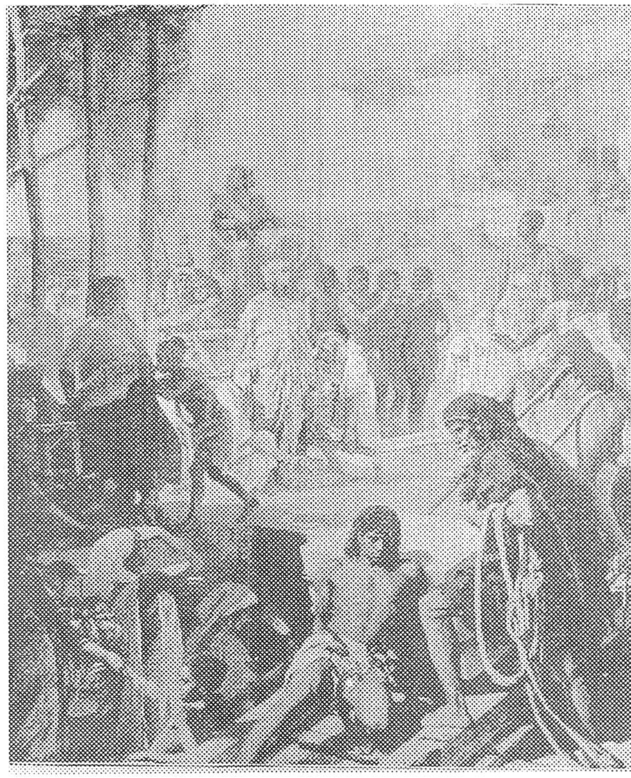
(١) مانيتـون : من الكهنة المصريين ، ألف فى البداية كتابًا عن تاريخ القدماء المصريين بأمر بطليموس الثانى ، ولد فى مصر فى أطلال مدينة قديمة تسمى " صجوت " عام ٨٧٢ ق . هـ ، والتى بنى عليها اليوم مدينة " سمنود " ، وتعد الجداول التى لا يتجاوز ما بقى منها سوى بضع صفحات ، من الآثار التاريخية القيمة التى اتخذت مصدرًا لتاريخ القدماء - وتوجد حاليًا فى متحف بمدينة " تورينو " بإيطاليا - نظرًا لضياع التاريخ الذى ألفه ، وكذلك ضياع ما كتب من قبله باستثناء الآثار التاريخية التى ألفت بالخط الهيروغليفى .



صورة رقم (٩)

صورة عامة لكورنيش أهرامات الجيزة من موقع بعيد للغاية ناحية الجنوب

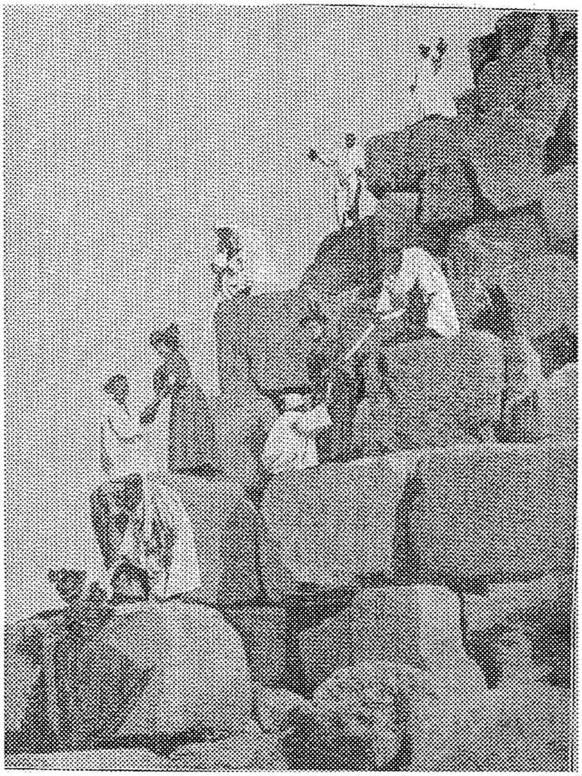
وكان هذا الشخص المقدام للغاية قد أمر ثلاثين ألف عامل بتشييده خلال ثلاثين عامًا ؛ فقد جهز موضع الأهرام في عشر سنوات ، وبنى الحجرات الداخلية فى عشر سنوات ، وأمر بإتمام أعلاها أيضًا فى عشر سنوات . كان هذا العظيم خوفو – الذى يرى فى الصورة رقم (١٠) ، وهى مثل أية صورة تظهر عند تشييد هرم ما – قد أمر ببناء هرم بالقرب من تمثال أبى الهول ، ويكون اسمه على اسم كريمته ، والتى تدعى "خوت " ، ومعناها يفيد الجمال والقيمة أيضًا .



صورة رقم (١٠)

مشاهدة الفرعون " خوفو " وزوجته وغبطتهما خلال تفقدهما عمليات تشييد الهرم

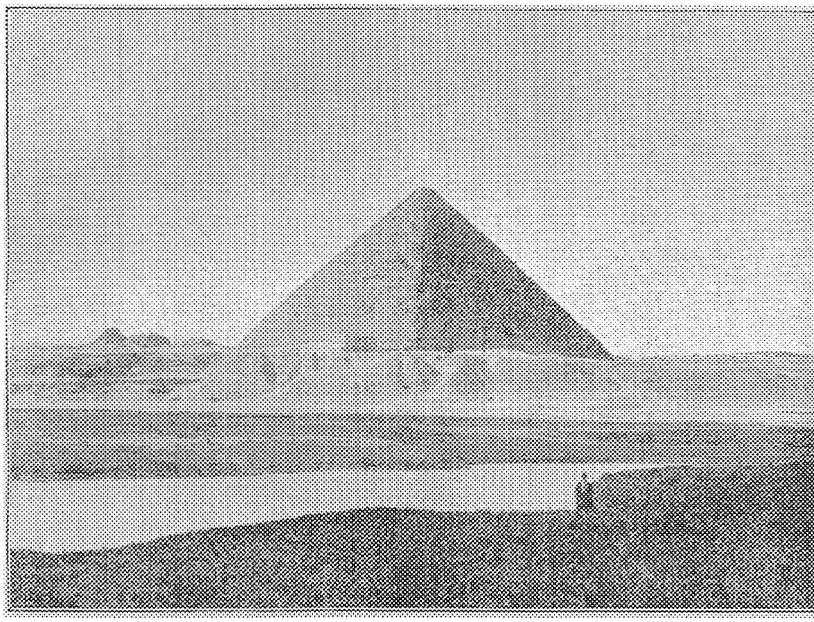
يفهم من الهيروغليفية المقروءة ومن الآثار التى ظهرت أنه أمر الأسرى الذين سباهم من قبيلة تدعى " بنى عون " ، ببناء هذا الهرم القائم حتى الآن . ويتبين من الآثار التى ظهرت أن الفرعون الثانى لهذه العائلة ، كان عادلاً للغاية ، وعطوفًا على رعاياه ، وقد وضعه الشعب بعد وفاته بين الآلهة المقدسة .



صورة رقم (١١)

اعتلاء الهرم بمعاونة المرشدين ، وأطفال البدو وهم يناولون الماء

كان خفرع الذى تولى الحكم من بعد وفاته ، قد أمر ببناء هرم بالقرب من هرم خوفو ، وطبقًا لروايات تيودور السائح وهيرودوت المؤرخ المشهور (صورة رقم ١٣) فإن الشعب قد عمل على ألا يدفن جسدى خوفو وخفرع داخل الهرمين اللذين أمرا ببنائهما ليكونا مقبرتين لهما بسبب عدم حبهم لهما نتيجة ظلمهما . ولا يمكن أن نجد أثرًا عن خفرع هذا سوى حجر معروض فى متحف مصر الآن ، وكان موجودًا فى حفرة مفتوحة إلى الآن داخل معبد تحت الأرض بالقرب من تمثال أبى الهول .



صورة رقم (١٢)

كورنيش هرم خوفو العظيم من جهة القاهرة

يعد منكورع الحاكم الرابع لهذه الأسرة ، صاحب أصغر أهرامات الجيزة . وكان عادلاً جداً وسخياً ، ويغرق بلطف إحسانه من يظهر فقره وعوزه من رعاياه ، وكان يحق الحق لمن ظلم منهم . ولقد تحطمت السفينة التى أقلت جسده المحنط الذى كان فى الهرم المشيد ، وهى فى طريقها إلى إنجلترا ، عند سواحل بورتكيز ، غير أن غطاء التابوت والجسد فقط تم إنقاذهما ، وحُفظا فى متحف لندن .

صار أحد أفراد العائلة ، ويدعى " شبسكاف" هو خير خلف له ، وكان قد تربى تربية حسنة جداً ، ولقد ارتقت العلوم والمعمار فى عصره .

أمر "شبسكاف" ببناء إيوان غرب معبد " بتاح " فى ممفيس عاصمة الفراعنة القديمة ، ويعد هذا الشخص من ضمن خمسة أشخاص من القدماء المصريين الذين وضعوا القوانين . ويفهم من الآثار التى ظهرت أنه قد سن القوانين الدينية بأشكالها

وصورها ، وأوجد أصول رصد الكواكب ، ووضع الأسس الخاصة بالمديونيات ، على سبيل المثال الاستدانة بواسطة رهن جسد الوالدين ، وتصرف الدائن فى مقبرة عائلة المدين حتى ينتهى الدين ، ويكون من حق الدائن إمكانية تحريم المدين ، بل وتحريم ذريته من مقبرة الوالدين فى حالة عدم وفائه بالدين .

كما يتضح أن مصر - وخاصةً مدينة ممفيس - قد شهدت تقدمًا كبيرًا جدًا فى العلوم والثقافة .

كنت فى بداية تجولى بالأهرام التى تتعاقب فوق بعضها البعض ، قد اعتليت هرم خوفو أضخم الأهرامات ، وكنت أشاهد ما حوله متأثرًا . وعندما تتجول العين فيما حولها فى هذا المكان ، فإن ما يجذب النظر بشدة هو منظر الأهرامات المتعددة المبنية أحيانًا منفردة ، وأحيانًا مجتمعة حتى موقع سقارة بمحاذاة سلسلة ساحل غرب النيل .

كما يرد على الخاطر أن وضع بعض التلال ووضع جوانبها المغطاة بالرمال يوحى بأن كثيرًا من الآثار القديمة مدفونة تحتها اليوم ، ويستدل من الحفريات التى قامت بها هيئة ألمانية أمام الهرم الثانى - والتى لم تقم فى الواقع بأعمال التنقيب على أسس عميقة حتى هذه اللحظة - على وجود آثار مهمة سوف يكشف عنها الغطاء تدريجيًا .

وحينما تتجه العين الراصدة جهة الغرب ، فإنها تشاهد آثار موجات فوق سطح الرمال الدقيقة جدًا حسب تغير الرياح ، وقد غطت الرمال الجبال والوديان والتلال وكل مكان ؛ حيث لا يجذب انتباه الأبصار أية عارضة سوى بحر الرمال ومنظر الصحراء على امتداد مرمى البصر .

ويجذب النظر المقابر الضخمة والمنتظمة ، وتوجد فى الشوارع على شكل مدينة أو حىّ ، وأسست بشكل منظم جدًا شمال الأهرام التى تقل وتصغر عن بعضها البعض ، والموجودة فى شكل دائرى على طراز نظام القلعة فوق السلسلة التى بنيت عليها الأهرام ، بين الصحراء والنيل . وعندما يتجول أى زائر من أى مكان على وجه الأرض ، فإنه من المستبعد أن يدركها بوصفها مقابر بسبب تخريب الزمان وتغطية الرمال لها .

إن كيفية الصعود إلى الأهرام والهبوط منها ليست سهلة بالدرجة التى نظنها كذلك . ويقترح أهالى قرى الضواحى - ومن يرغب منهم فى امتهان حرفة إرشاد الأجانب - أن يرافقوا الراغبين فى الصعود إلى الأهرام ، وهم يطلبون أجرتهم ويأخذونها حسبما يستطيعون إذا أصروا عليها ، سواءً تمت الصفقة أو لم تتم . ويقتضى لسهولة التحرك الاستعانة بثلاثة من المرشدين ، وإن كان من الممكن الصعود بمرشدين بشكل عادى .

وبسبب ارتفاع أصغر الأحجار التى تشكل سطح الأهرام الذى يبلغ مترًا أو مترًا ونصفًا ، أى فى ارتفاع طول الإنسان ، فإن الارتقاء يتم بأن يجذب الصاعَد فلاحان من يديه من الطرفين ، ويساعده ثالثهم من الخلف . ويكون الصعود والهبوط دائمًا من الجوانب ، فأسطح أحجار الزوايا تكون واسعة ، كما أن انحراف زواياها تكون أقل ، بينما يكون الميل وسط الأطراف بدرجة اثنتين وخمسين ونصف درجة .

يقبل العرب البدو على مهمة الإرشاد بأجرة تبلغ حوالى مائة بارة (فضة) فى جميع الأيام فيما عدا الأحد . يقدر اتساع قمة الأهرام فى حدود ستين أو سبعين متر مربع . وفى منتصف هذه القمة انتصب عمود مدقوق ثابت من ثلاثة أطراف ، فهو قائم على شكل سارية ارتفاعها ثمانية أمتار ونصف ، ويظنه من يراه من الأسفل عمودًا طوله ذراع واحد ، ومن المؤكد أنه يتم الاستراحة هنا فترة من الوقت ، لمشاهدة النواحى وما يُحاط بها وشرب ما تقدمه أيادى أطفال البدو الصغار بفرح غامر من ماء عكر . وفى الحقيقة لم يكد يرى هؤلاء الأطفال أية رحالة وهو فى طريقه للصعود ، حتى يخرجوا متسلقين مثل الماعز حاملين بأيديهم ثمرة حصيلتهم التى حصلوا عليها فرحين بالبقشيش .

وعلى الرغم من قدم منظر الأهرام اليوم بالنظر إلى حال أحجار الأسطح الخارجية لها ، فإنه يتضح من خلال ما تبقى من أثر أعلى قمة الهرم الثانى فحسب ، أنها اكتسبت هذا الحال من القدم نتيجة سقوط الأحجار المجلاة والمنتظمة التى تشكل الأسطح الخارجية المقاومة لعوامل التعرية ، وبالتالى يمكن الاستنتاج بالضرورة أنها تهدمت من أجل الاستفادة من الأحجار .

ولا ريب أنه حين تشييدها تم تغطية الأسطح الخارجية بالأحجار المنتظمة الملساء ، أو تم تجصيصها بمادة مثل الأسمنت أو المصيص للحصول على التسوية المطلوبة . وفى البداية كان المأمون - وهو من الخلفاء العباسيين - يرغب فى فتح الهرم الأكبر أملاً فى العثور على كنز بداخله ، وقام بمحاولات كثيرة جداً ، وفى النهاية عندما تم فتح المدخل بواسطة النار ، والولوج بداخله، اتضح أنه كان عبارة عن مقابر .

مدخل الأهرام

يوجد باب طوله متر وعرضه متر ، وفى داخله يكون المدخل عموديًا بارتفاع أربعة أو خمسة أمتار تقريبًا عن سطح الأهرام ، وبارتفاع ثلاثين مترًا تقريبًا عن سطحه الشمالى .

وطبقًا لأوضاع الأحجار التى تُرى فى هذا المكان ، فقد شُيِّد مدخل خُصص من أجل إدخال الهواء والضوء أو إدخال التابوت عند دفن الأموات . وبعد أن سُدَّت بأحجار الرخام الصوماكى الضخمة للغاية التى أعدت من قبل وجهزت ، فإن هذه البنايات قد دفعت إلى عدم تصور وجود أى مدخل هنا ، واليوم وضع باب حديدى فى الموضع المذكور ، وقياسًا على هذا المدخل ، يعد من أقوى الاحتمالات أن يكون كثير من المداخل - وإن لم تكن المنافذ كلها - قد سُدَّت عند أسطح الأهرام المختلفة .

وطبقًا لرواية التاريخ ووضع الأرض ، فقد أمكن تسوية قطعة من الصخر الأسود الصلد الذى بُنى عليه الهرم ، عن طريق حفرها طيلة عشر سنوات .

وحسب وضع الأهرام قبل سقوط الأحجار التى تشكل أسطحها الخارجية ، فقد كانت ترى أغطية مثل رؤوس المسامير الضخمة والمصنوعة من النحاس والحديد فى الأماكن التى يوجد فيها صخور الجوانب ، أى أنهم ربطوا الصخور التى ظننا أنها سطح الأرض بالطبقات السفلى . ويرد على الخاطر اضطراريًا ملاحظة ما هو مجهول بصورة خاصة عن المداخل والمخارج الخاصة بكثير من الحجرات والمخازن المحجوبة اليوم تحت سطح الأرض الذى بنيت عليها الأهرام ، والتى كان كل منها يؤدى مهمة ووظيفة ، بل إنها كانت مقرًا أبديًا للملوك .

لم يكن هناك ظلام حالك بداخل الأهرام ، وهو ما يؤكد أن الهواء يجرى من ثقوب صغيرة فى حوائط الحجرات الموجودة فوق بعضها بعضا ؛ فلا ترى أية نافذة ينفذ منها الضوء أو أى منفذ أو منور يعمل على تجديد الهواء على الإطلاق .

يكون التجول داخل الأهرام بمساعدة المرشدين تماماً مثلما هو الحال عند التجول خارجه . وتعد كل الطرق التى تتشعب وتستمر بأشكال مختلفة اعتباراً من المدخل ، فهى إما هابطة أو صاعدة إلى مركز الأهرام ، وتتجه بميل ٤٥ درجة .

وعند الولوج إلى المدخل يلاحظ أن أرضيته فى حالة زلقة متآكلة من كثرة العبور والمرور عليه ، وهو مصنوع من الرخام الصوماكى الأحمر أو الأبيض الضخم للغاية ، والمجلى بشكل مستوٍ ومنتظم جداً وبارتفاع وعرض متر واحد . ويتم الدخول إليه عن طريق إمساك المرشدين الأيدى من الأمام أو الخلف والتزحلق وقوفاً على الممر أو المجرى ، وهو يشبه مجرى مستقيماً ليس به موضع للاتكاء عليه ، ومن ثم يكون الإمساك بالحوائط ، غير أنه كانت تظهر بعض آثار الأقدام . وحين الهبوط إلى هذا المجرى الذى يميل ٤٥ درجة بمسافة تقدر بخمسة وأربعين أو خمسين متراً تقريباً ، يبرز حائط مصنوع من الرخام الصوماكى الذى يبدو كأنه قد شُيِّد ملتصقاً فى مواجهة المجرى حتى يظن أنهما قطعة واحدة .

يوجد دهليز فى هذا المكان اتساعه متران وارتفاعه بقدر الوقوف على الأقدام . وعلى الرغم من وجود فوهة بئر مفتوحة مثل النافذة تحت الحائط المقابل للمجرى التى دخلنا فيها ، فإنه لا يمكن الهبوط داخلها لأنها مغلقة بقفص حديدى محكم . وعلى الرغم من أن المرشدين قالوا إن هذا المكان ما هو إلا بئر عمقه مائة متر ، فإنه يفترض أن يكون المدخل الذى يهبط إلى أسفل الأرض .

يتضح بالنظر إلى الآثار التى ظهرت فى الأهرامات الأخرى ، أن يكون هو المدخل الذى يهبط إلى الحجرات الموجودة تحت الأرض .

فى هذا المكان كان المرشدون قد شرعوا فى إنارة الأماكن التى نطؤها بإشعال شمعة أخرجوها من جيوبهم . وللوهلة الأولى يعتبر الإنسان نفسه فى زنزانة ضخمة،

بما تنثره ضياء الشمعة الواهى الذى لم يكن كافيًا لإزالة الظلام المخيف والعظيم . وبدا فى ظل نور الشعلة التى أشعلتها للمرشدين أن هذا المكان يتسع اتساعًا جزئيًا ، وبدا مهدمًا وكأنه ينهار فى صورة غير منتظمة ، وأنه يتجه إلى اليمين دائمًا بميل من الأعلى بنحو متر واحد ، ويمكن الوصول إلى خارج الأهرام بممر يمكن العبور عليه انحناءً فقط .

وعلى هذا النحو، فإن هذا الممر ما هو إلا المدخل الأول الذى فتح بالتفجير بواسطة النار ، وكذلك يمكن الخروج عن طريق هذا المكان بالتسلق على الجانب الأيسر ويبلغ ارتفاعه مترين ونصفًا تقريبًا . ويؤدى إلى ممر صاعد بارز مصنوع من الرخام الصوماكى الضخم ومن الصخور المكسرة المحطمة مثل الممر ، ويميل دائمًا بدرجة ٤٥ درجة .

وبالنظر إلى مدخل هذا الممر ، فإن ذوى الأطوال المتوسطة لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم تمامًا، على الرغم من أنه مرتفع فى جزء منه وواسع فى أغلبه . ويعد الممر الثانى هذا مخيفًا حقيقةً عن الممر الأول ، فبينما ينير الضوء المنبعث من الخارج فى الممر الأول أى فى المدخل ، قسمًا من المجرى ، يكون الآخر فى ظلام حالك .

كان قد تصدر أحد المرشدين ، وشرع فى الصعود موافقًا على أن يطأ الأرض بأقدام عارية . وبسبب أننا مشينا بدون أن نخمن ونحن لا نرى حتى مواضع أقدامنا ، كما أن الشمعة الصغيرة - التى أمسكها بين أصابعه الوسطى ، وقد أصابت كفه بلسعة منه ، وضياؤها المهتز الذى ضعف نتيجة الحركة والمشى - لم تكن كافيةً لإنارة الحوائط التى بدت سوداء تمامًا ، والأسقف المصنوعة من الصوماكى الضخم المزخرف والمتجانس بدرجة يظن معها أنها قطعة واحدة . ويتضح إلى حد ما مدى المعاناة إذا ورد على الخاطر فكرة التسلق باستمرار بميل ٤٥ درجة على امتداد أربعين أو خمسين مترًا ، ويُضاف إلى ما سبق الغبار والحرارة الخانقة .

وبينما نحن على هذا الوضع ، اتضح أن رحالتين قد عادا من زيارة داخلية أحدهما عقب الآخر ، وبدا اقترابهما من خلال خياليهما المنعكس على الحوائط بالشعلة

السخامية ، ومن النور الذى بدا من سمت الحدور الصاعد إلى أعلى . كانا قد هبطا من الممر الذى صعدنا منه ، واستطعنا أن نمر متماسين كتفًا بكتف وصدراً بصدر . بينما كنا نعبر بجانب بعضنا البعض ، وعند الوصول إلى منتصف الممر ، التقطنا أنفاسنا قليلاً ... ويتسع الممر هنا بشكل عام - فى ظل الشعلة التى أشعلناها لعدم مقدرة نور الشمعة على رؤية السقف - لوجود سدود ، يعلو كل سد منها الآخر تدريجياً حتى وصولنا إلى طرف الممر ، وهو سقف مائل مرتفع وقائم حاد يضيق بداخله بناء مائل موازى للممر الذى صعدنا منه ، وارتفاعه عشرون متراً تقريبًا ، بنسبة معينة وبصورة تعادل الخمسة سنتيمترات وبشكل يتعاقب بعضه وراء بعض .

وبعد رؤية البناء الصوماكى الضخم القائم عمودياً، والذى يصل طوله إلى قدر معلوم من الارتفاع ، كان يوجد أيضًا حينما صعدنا إلى هنا كذلك ، فوهة بئر اتساعها متر وهى على هيئة نافذة يمين الممر ، وعلى طرف أسفل الحائط .

وطبقًا لما أفاد به المرشدون ، فإنه يوجد هنا بئر آخر مثل البئر الذى شاهدناه بالأسفل . وبعد توقف دقيقتين أو ثلاث دقائق واصلنا الصعود متتبعين ممراً ضيقًا ، وفى النهاية وبعد مسيرة عشر خطوات و مواصلة السير فى ممر أفقى السقف وينحصر بين السدود ، دخلنا حجرة مصنوعة من الصوماكى والجرانيت الأملس ، كل جوانبها مبنية بانسجام تام وامتزاج غاية فى الإتقان ، وارتفاعها ثمانية أمتار تقريباً ، وطولها عشرة أمتار وعرضها ستة أمتار ، ولم ير أى أثر مطلقًا فى هذه الحجرة لنافذة أو منفذ يدخل النور والضوء فى أى ناحية ، ولا أى أثر لكتابة أو رسم فى أى مكان على الإطلاق .

كان يلفت الأنظار لون أسود وقد تكاثف على الأسطح الداخلية بمرور السنوات منذ تاريخ إنشائها . وبعد أن أضأناها بالشعلة ، دققت النظر هنا فى ضخامة قطعة الصوماكى التى تشكل سقفًا لكل جانب خاصةً وأنها تثير دهشة العقول . وعند وصولنا إلى مكان فوهة البئر وبداية السدود ، كان مرشدونا يحاولون إنزالنا سلمة السلام ، وبسبب أنه توجد حجرات أخرى هنا ، فإننا عندما سألناهم عن أماكنها ، قالوا

إن رؤيتها ليست بذات قيمة ، فجميعها حجرات متشابهة وواحدة ، وعلى الرغم من مخاطر الصعود إلى الحجرة الثانية ، فإننا شرعنا فى الصعود إليها ، مجبرين المرشدين على ضرورة استمرارهم فى مهمتهم منبهين إياهم بالاتفاق المبرم بيننا، ويبدو أنهم كانوا يسعون إلى تخليص أنفسهم من هذه الخدمة المزعجة، واستمر الحال على هذا النحو.

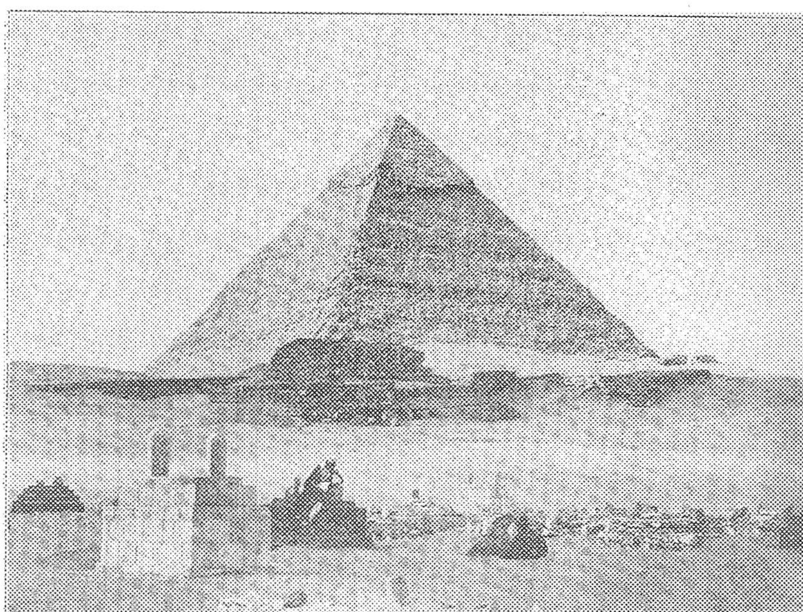
وكما قال المرشد ، فإن هذا المكان حقيقة ليس من الممرات التى يمكن السير عليها بسهولة ، وشرعنا فى تتبع ميل صاعد بميل ٤٥ درجة أيضًا ، شريطة السير جنبًا إلى جنب ، وقد وافقنا على ذلك سواء فى الأماكن التى وطأناها ، أو تلك التى سوف نطؤها . والصعود إليها فى ناحية الشمال من السدود التى تتسع تقريبًا نحو ٢٥ سنتيمترًا ، والتى يزداد ارتفاعها تدريجيًا . ويزيد من صعوبة الممر ، أنه قائم عموديًا ، فضلاً عن ضيقه وانزلاق علامات الوطء ووجود ظلام حالك فى كل ناحية ، وأخطار السقوط واردة فى كل دقيقة ، وبعد أن يتم الصعود على هذا النحو وبعد عشرين خطوة برز ممر اتساعه متر واحد ومتصل بالسدود ، وبدأ الصعود يتسم بالراحة أكثر ، فارتفاع هذا المكان لم يكن يجبر على السير منحنيًا على الأقل ؛ فهو يمتد حتى السقف الموضح ارتفاعه من قبل ، وبعد الصعود بنحو ٤٠ أو ٥٠ مترًا فى مجرى أو ممر يقع بالأسفل ، دخلنا ممرًا أفقيًا .

وبعد السير أفقيًا بمقدار عشر خطوات - ونحن فى وضع منحنى فى ممر عرضه وطوله متر واحد – مثل مدخل الحجرة الأخرى التى رأيناها فى هذا المكان ، دخلنا حجرة أخرى بالطراز نفسه ، وهى متسعة قليلاً عن الحجرة الأخرى فى الحقيقة . وفضلاً عن هذا ، فإنه كان يقبع فى زاوية بالقرب من وسط الحجرة لحد منقوش من قطعة من الصوماكى الأبيض . ويوجد الكثير من أمثال هذا اللحد فى متحف آثار الفراعنة .

كان قد نقل إلى المتحف غطاء هذا اللحد وبعض الحليات الفضية والذهبية التى ظهرت فى جسد المومياء القابع بداخله وبأطرافه . ويتضح من تركه عاريًا هنا بهذا

الوضع ، ومن الأحجار الموجودة التى تم البحث عنها ، أنه قد تم نزع قطعة من حطام هذه الحجرة .

وتوجد فى منتصف حائط من حوائط هذه الحجرة حفرتان يبلغ قطرهما من ١٥ إلى ٢٠ سنتيمترًا ، ويدل علو الكبريت الذى حملناه إلى هاتين الحفرتين - وقد أصابتنا لسعات من النار - على أن الهواء يدخل صافيًا من ناحية ، ويخرج من ناحية أخرى ، ويمتد مباشرة إلى الداخل من ناحية ويخرج من ناحية أخرى ، ولكن مع الأسف لا يبدو أثر لأى ضياء ، ولو بقدر خرم إبرة .



صورة رقم (١٣)

كورنيش هرم خوفو العظيم من جهة مدافن القرية الواقعة بالقرب منه

وواصلنا السير حتى ممر ضيق منخفض ، وبعد أن التقطنا أنفاسنا برهة من الوقت فى الحجرة ، عدنا . ويستدل من العش الموجود على الحائط ، والذى يتدلى من أعلى إلى أسفل ، ومن الأغطية التى كانت فوقه ، أنها قبور ، وليس من المستبعد وجود

مومياء خاصة لكل قبر ، ويعتقد حاليًا أنها حائط حجرى ؛ إذ إن هذا المدخل بدا لحظة تنويره بالشعلة ، وكأنه سُدَّ بقطع من القبور المغطاة بأغطية متدلية عن عمد من الأعلى بشكل خاص .

عند العودة ، وعند وصولنا إلى بداية الممر الهابط ، اتضح ضرورة الصعود فى وضع متسلق على قيود أو مفاصل حديدية بالأركان ، وهى فى حجم المعصم ، ومربوطة فى زوايا الحائط بمسافة متر واحد بين كل منها ؛ إذ إنه لم يكن هناك أى ممر يمكن الصعود إليه ، على الرغم من أنه قد ظهر مدخل مفتوح بشكل يدل على وجود حجرة أخرى فوق الحجرة التى نتواجد بها ، ووجود ممر ذى سقف عال بالقرب منه .

ويتضح من القبور التى بقيت فى الحوائط أنها سقطت منكسرة فى مواضعها ، وهى قبران من الحديد الموجودان بالأسفل . الصعود إلى هنا ! فقد أجبرت على العودة صارفًا النظر عن الصعود إلى هذا المكان ؛ لما فى ذلك من هلاك ملحوظ ، ولا داعى للتضحية ؛ فالاختيار بلا روية لا يعتبر من البطولة فى شىء .

وقد بدت العودة أكثر رهبة ؛ إذ مع كل خطوة ترد مخاطر الوقوع ، وعند السقوط يحتمل فقدان الحياة ، حفظنا الله ، فبعد أن يبدأ الإنسان فى التدحرج دون أن يتكىء على أى موضع قط ، يتجسد أمام ناظريه الوقوع فى جب سحيق فى نهايته بئر مجهول العمق ومفتوح فى نهايته ممرات هابطة دائمًا .

وفى نهاية الدهاليز توجد الصخور الصوماكية الجرانيتية التى تسد ممراته ، فيظل الإنسان فى رعب ، ومع ذلك فما إن وصلنا إلى المدخل الخارجى عن طريق الشروع فى الصعود من هناك والوصول إلى المركز مع استمرار الهبوط تاركين أرواحنا إلى مهارة مرشدينا ، حتى التقطنا أنفاسنا لمدة عشر دقائق ، مستنشقين هواءً صافيًا ، ونفسًا عميقًا ، جالسين على سلمة السلام فوق حجر جرانيتى .

تحوز الزيارة الداخلية للأهرام على أهمية أكثر من إنعام النظر إليها من الخارج . ولا يمكن عدم إبداء التعجب والدهشة إزاء القوة والذكاء اللذين يتمتع بهما هذا الفن

المعمارى والطريقة المتبعة فى بنائه والهدف من ورائه .. كما أن الممرات الطبقية ، بل وضع الأحجار يميل ميلاً ثابتًا ؛ فهى تتجه دائمًا نحو المركز ، وكل شىء وكل ما هو مرئى فيه يشغل جميعها الفكر فيما يخص نتيجة البحث والتحرى ، فهو يجبر على التقصى وراء الأسرار التاريخية فى هذا الموضوع .

ومن يشاهد الأهرام بدقة ، لا يستطيع أن ينظر إليها حقيقةً نظرة عابرة ؛ فلا يمكن أن تشيد بدقة وعظمة ممزوجة بتلك الضخامة والهيبة ، ويوجه كل هذا عبثًا . وفى اعتقادى ، فإن الحجرات والدهاليز التى تجولنا بداخلها ، هى بالضرورة الحجرات والممرات المجهولة والمسدودة مخارجها ومداخلها أيضًا فى باقى الأقسام ؛ نظرًا لأن المدخل ينحصر جهة الشمال فقط .

اكتشف مصادفةً عام ١٣١٢ ، أن مدخل أحد الأهرام الموجود بدهشور عبارة عن أحد الآبار التى وجدت على بعد عدة مئات من الأمتار من الأهرام ، ومن ثم ، يرجح أن تكون مداخل الأهرام من الخارج بالوضع نفسه ، وأن يكون الدخول بسهولة إلى جميع الحجرات بعد اكتشاف المدخل الأصلى والوصول إلى الخزائن والدفائن القيمة تاريخيًا . ومن البديهى أنه عن طريق دلائل عديدة ، أن يكون سبب إخفائها هو الالتزام بعدم اطلاع أى شخص - سوى أفراد العائلة الفرعونية والكهنة فقط - على المداخل الأصلية حتى وقت تشييدها .

ويتبين من هذه الإيضاحات أن السبب الأصلى لإنشاء الأهرام يخفى وراءه اهتمامهم الفائق بالمتانة والنفاسة . ويتضح من الحقائق التاريخية المعروفة والأبحاث المتعمقة اليوم ، أنه حينما قامت دياناتهم على أساس توحيد الذات ، فقد اقتصرت معرفة الحقائق الدينية بعد ذلك على الفراعنة والكهنة .

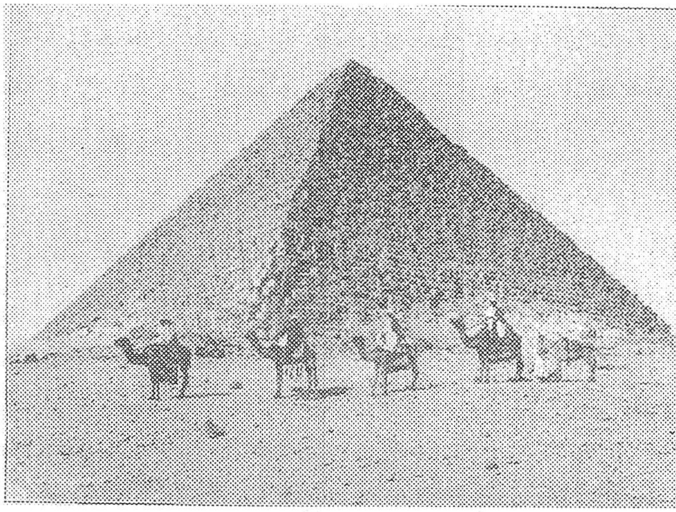
ويستدل من العبارات الهيروغليفية التى احتوت على تراجم (الواحد الأحد الذى لا شريك له) (الله معبود باسمه الأزلى خالق الأرواح فى الأشباح)، والتى بدت كثيرًا على آثار القدماء المصريين باستمرار ، وكذلك يستدل من بعض القرائن أن الكهنة خصصوا للخواص هذه الحقيقة العلوية، وأطلقوا عليها اسم الأسرار اللاهوتية ،

وأخفوها عن الخلق حينذاك ، ثم بمرور الوقت انحرفت اجتهادات الكهنة غير المقبولة، وقد اتبعوا كثيراً من الأغراض الخفية ، بواسطة الدين ، وظهرت بدعة التعبد بالصفات الإلهية وبرزت عبادة الوثنية ، وعبادة الحيوانات والجمادات .

ومعلوم لدى أرباب البحث أنه بسبب كل الأوضاع القديمة كلها ، فقد سقطوا فى مزالق الكفر . ونتج عن حكم الرومان والبطالمة الذين استولوا على مصر فيما بعد ، خرافات كثيرة ، وتعددت الآلهة المعبودة مع تداخل الأساطير عندهم ، بل إنهم عندما اهتموا بالدرجة نفسها من المتانة فى تشييدهم للأهرام من الكتل الصوماكية أن يجعلوها كالجبال الصغيرة ، أو أنهم نحتوا الجبال بزعم أن قبورهم هى بيوت أبدية لهم ؛ لأنها فى اعتقادهم تعد موضعًا تحل فيه الأرواح ، وأقاموا حجرات خاصة بجوار القبور لتتآلف أجسادهم مع أرواحهم التى تعرف كيفية التحرر من قيود الموت وتطير فى كل الجهات ، فكانوا ينحتون أنواعًا من النقوش التى يبدو أن بعضها قد حافظ على حالته الأصلية على الرغم من مرور آلاف السنين .

ويعتبر الفراعنة أنفسهم فى منزلة خارقة من المراتب الإلهية ، على أثر إرشادات وتلقينات التعظيم للكهنة المحدثين . كانت المنزلة التى أوجدها طبقة الرهبان للفراعنة حسب قدرهم ، وذلك من خلال مواعظهم للعامة فى هذا الشأن ، قد تجلت بالتأليه لكى تسمو صورتهم داخل المجتمع الإنسانى فى الحقيقة ، حتى إنهم كانوا يعبدون أصنامهم .

وطبقًا للمعاملات الاجتماعية التى أدلى بها أرباب البحث ، فقد اعتبرت المعاملات من القوانين المرعية عن طريق وضع مجموعة من القوانين طبقًا للمعاملات الاجتماعية مثل القتل لمن لا ينقذ مواطنًا حياته فى خطر ، والحانث لليمين ، ومن يظهر نسيانًا للحدود ، وقطع اللسان لمن يخبر العدو بأسرار الحكومة ، وقطع الأرجل السفلية لمن يثبت عليه تهمة الزنا ، وتعيين الحد المعروف بالبيع والشراء ، ومنع النساء من التدخل فى الأمور وحرية الحركة وصلاحية الحجز عندما تصل المديونية - ضمانًا لحقوق الدائن - إلى مقابر الوالدين ، وإجبار الصغار على احترام المسنين حتى خلال الطريق ، ودفن الفراعنة عند وفاتهم فى مقابر خاصة ، ويتوقف ذلك على مدى مصداقية مسلكهم العادل خلال حياتهم من قبل العامة ، أو على الأقل معظمهم .



صورة رقم (١٤)

أصغر أهرامات الجيزة [هرم منكورع] ، وركوب الجمال

وفى حقيقة الأمر كان الكهنة الذين يوكل إليهم بهذه الشئون ، يعطون للأهالى حق إبداء الرأى فى أمرهم بشأن استحقاقهم الدفن فى قبورهم المزينة التى فرضها عليهم قصر الأبدية بعد الممات ، وذلك بهدف استمرارية الفراعنة فى دائرة العدل والإنصاف ، كما أنهم رفعوا من فطرتهم الطبيعية إلى رتبة التقديس بين الطبقات البشرية من أجل إمكانية إدخال التابعين تحت طاعة الحاكم . ويتضح بهذا الشكل أسباب تحديد بناء الأهرام بالشكل المعلوم ، لكى يتحقق عن طريق التفاصيل التاريخية السابقة ، أن الأهرام بنيت من أجل أن تكون مقبرة خاصة لدفن أموات أسرة الفراعنة .

كان الإله " سوتى " الذى يعد أعظم معبود من الآلهة المتعددة التى عبدوها ، يصور فى الكتابات الهيروغليفية ، على هيئة رأس كلب وجسد إنسان . واستخدمت "سوتى " فى اللغة الهيروغليفية بمعنى الحاكم والملك ، وهو إله أعمال الخير والشر . فقد ثبت أنه شكل آخر من نجوم شعراء اليمانى - وهى من الأجرام ، ويتضح من البحوث الهيروغليفية أن النيل يبدأ فى الفيضان بطلوعه ، وأنه لابد من أن يكون هو السبب الحقيقى عند توزيع الخير خلال جنى المحصول عند غروبه ، وأن شعاع شعراء

اليمانى سوف تصيبه عموديًا ، وبسبب أنه من جملة اعتقاداتهم أن الموتى تنال العفو والشفاعة خلال إحدى الأسطح التى تحط عليها حزمة إشعاعية تقع عموديًا من كوكب شعراء اليمانى ، ولذلك فإن هذه الأشعة تحط عموديًا على الأسطح الجنوبية الخارجية من الأهرام ، وتكون ثابتة بشكل يبين الجهات الأربع لأضلاع قاعدة الأهرام ، ويميل بنسبة ثابتة على أسطحها .

كان محمود باشا الفلكى الأسبق فى مصر ، قد بين فى عام ١٨٦٢ م نتيجة رصد قام به خلال أربعة أيام فى أربع قرى حول الأهرام فى الجيزة ، أنه عندما تصل شعراء اليمانى إلى أقصى ارتفاع لها عن نير الكواكب الثابتة ، فإن خطوط أشعتها تصطدم عموديًا على السطح الجنوبى للأهرام طبقًا للائحة المعروفة التى قدمت إلى الخديوى الأسبق، والتى طبعت مؤخرًا .

وقد أثبت علميًا أن الكوكب المذكور - وهو من النجوم المقدسة فى ذلك العصر - قد بزغ بهدف الاستنارة منه فى بناء الهرم بتلك الصورة . وفى المحيط الداخلى الذى بنيت عليه أهرام الجيزة الثلاثة الكبار ، توجد أطلال كثيرة توضح بالنظر إلى طريقة بنائها فحسب ، أن منها أهرامات خاصة بدفن الأموات فيها ، ومنها الصغير والمهدم بدرجة لا يمكن أن يطلق عليه اسم الأهرام .

ويبدو أنه وجد فى قاعدة إحداها التى ظهرت من خلال الحفر ، مدخل بنى باهتمام بالغ بالصوماكى ، وفى جسامة لا يمكن أن تنسب بحجمها المائل مباشرةً من الأعلى إلى الأسفل، وهو مماثل لمدخل أكبر الأهرام .

يبلغ ارتفاع الهرم الثانى ١٣٩ مترًا ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته ٢٥٨ مترًا . وكان قد أطلق على هذا الهرم الثانى وقت تشييده اسم " آر " بمعنى الكبير . يبلغ ارتفاع الهرم الثالث الذى بناه فرعون يدعى" منكورع " ٦٨ مترًا ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته ١١٧ مترًا . وكان قد أطلق على هذا الهرم اسم " حور " زمان بنائه ، بمعنى الأعلى . ويبلغ ارتفاع الجبل الذى بُنى فوقه الأهرامات فى الجيزة ١٠٠ قدم .

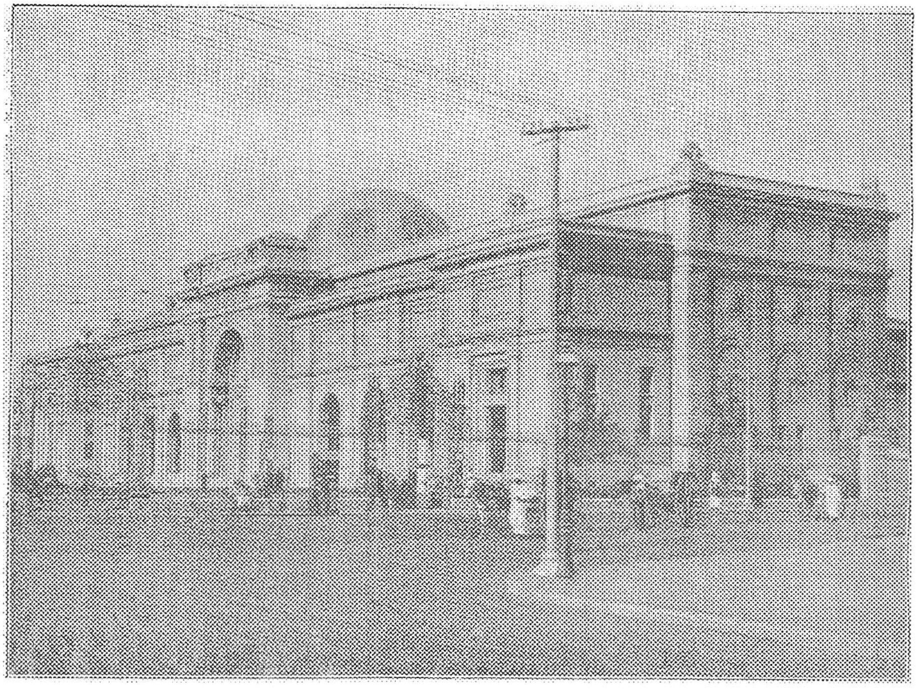
ولم يكن من الممكن اعتلاء ذروة هذا الهرم ، نظراً لوجود غطاء مصنوع من السماقى المجلى والأملس الذى نستشف من خلاله وضع الأسطح الخارجية الأصلى ، وقد ظل محمياً من عوامل تأثير الزمن ، وهذا الغطاء يمتد على مسافة عشرين أو خمسة وعشرين متراً معتلياً السطح العلوى للهرم الثانى المنتسب للفرعون - الذى يطلق عليه اسم " خفرع " - وحتى رأس الهرم .

وبسبب ميل سطح الأرض التى بُنى فوقها الهرم ، فقد جُزت الجهة الشمالية والغربية من قاعدة الهرم ومهدت على شكل حائط يمتد على مسافة عشرين متراً ، وكُتب على هذا الحائط بالهيروغليفية ، وتكونت حجرات صغيرة وكبيرة بلا نوافذ ، ونحتت بعض المواقع - وهى عبارة عن صخرة واحدة مشكلة حائط للجهة التى صادفت الناحية الغربية للحائط ، خاصةً وأنه كان قد أقيم سقف من قطعة واحدة ملساء مستوية جنباً إلى جنب على امتداد عرض حجرة كبيرة ومرتفعة .

وعلى الرغم من كثرة وجود جميع أنواع الأحجار من الجرانيت والرخام والسماقى ، فإنه مما يلفت النظر عدم رؤية حجر المرمر فى أى مكان قط . ومن المؤكد تاريخياً وبدلالة الآثار أنه وُجدت بعض الأحجار المستخدمة فى بناء الأهرام المنقولة فى المحاجر الواقعة جهة الصعيد ، وبعضها نقل من المغارات الواقعة فى المناطق المحيطة بحلوان . قام شخص ممن لديه حب الفضول - بعمل إحصائية ، وأحصى حجم الهرم الكبير بمليونين وخمسمائة واثنين وستين ألف متر مكعب ، وارتفاعه بستة أمتار بالحجارة ، وظن أنه سوف يكون فى الإمكان إقامة حائط طوله ألف فرسخ .

متحف الآثار الفرعونية

يعد هذا المتحف من أهم متاحف الآثار الفرعونية فى العالم ، ويحتوى على آثار الفراعنة ومن أتى بعدهم وآثار اليونانيين والرومانيين . وينبغى علينا أن نتحدث عن بناء المتحف ؛ فهو فى الحقيقة قد شُيِّد تشييداً فائق الجمال وبشكل يشرف فن المعمار ، خاصةً وقد توزعت الأنوار داخل المبنى الذى نسق تنسيقًا رائعًا جداً .



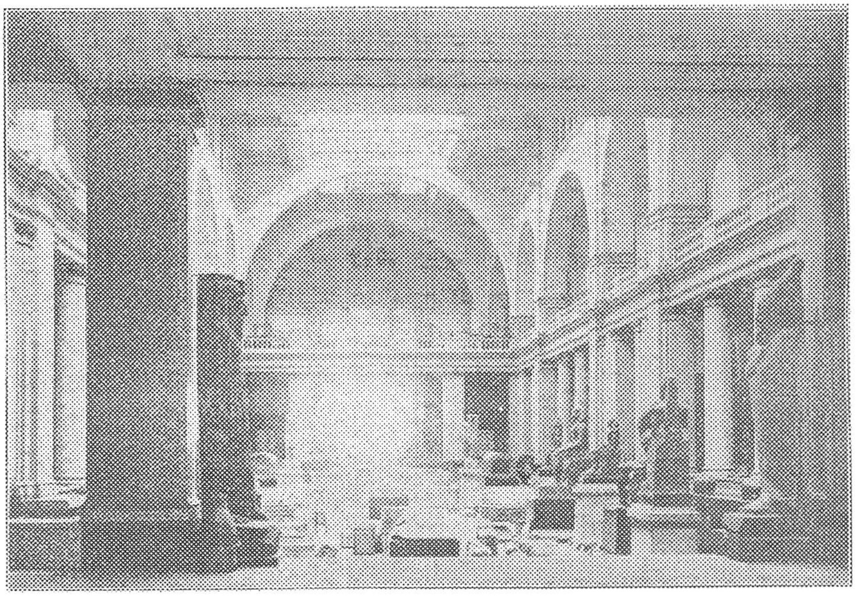
صورة رقم (١٥)

متحف الآثار الفرعونية

كانت الآثار المتنوعة العتيقة الموجودة، والتى قام بجمعها أحد المتخصصين الفرنسيين، ويدعى " ماريت " وجهزها ورتبها بأمر من " محمد على " قد أقامت أساس المتحف . كانت هذه الآثار التى تم الحصول عليها شيئًا فشيئًا ، ونوادر الخزائن التى اتضحت أهميتها بعد أن تيسرت قراءة الهيروغليفية ، قد وضعت فى سراى الجيزة - وهى حديقة الحيوانات اليوم . ونقلت إلى هنا (ويقصد المتحف) بعد إنشاء المبنى الجديد . وقد برزت قيمة المتحف بعد أن تم تجهيزه وترتيبه ، وظهرت قيمة الآثار التى يحتويها .

عند الدخول إلى ساحة المتحف من الباب الحديدى الصنع المواجه للشارع ، يبدو مدخل وواجهة المتحف العظيم من الجانب الأيمن ، ومن الجانب الأيسر ميدان الثكنة التعليمية فى قصر النيل الخاص بإقامة الجنود الإنجليز . وفى وسط الساحة يقبع التابوت الذى يحوى جسد ماريت باشا - الذى بنى على هيئة نصف دائرة من المرمر تجاه المدخل تمامًا ، ووضع فوقه هيكل مصنوع من البرونز بشكل يبدو فيه المتحف بيده فوق عمود مرمرى ، وعند الدخول إلى المتحف يتم دفع أجرة الدخول، وهى عبارة عن خمسة قروش ، وتُترك الأشياء والمتعلقات مثل المعاطف وغيرها .

ينتشر ضياء من القبة، كما يتضح من الصورة رقم (١٦) ، وهو يتكون من دهاليز دائرية وساحة منخفضة ، ويكون الهبوط إلى الساحة بدرجات واسعة من الجانبين . يصادف فى هذا المكان آثار أضخم تماثيل الفراعنة ، كان يجلس تمثال لزوجين من الفراعنة وسط درجات السلم المواجهة ، وهو يحتوى على قيمة فنية خاصة برغم ضخامته الخارقة للعادة ، وقد تم اكتشافه ونقله حديثًا جدًا ، واكتمل ما نقص منه بالآجر والأسمنت .



صورة رقم (١٦)

داخل متحف الآثار الفرعونية

كانت توجد حجرة ذات قطع واحد من السماقى الذى يعبر عنه باسم مدفن العجل ، ويوجد على يمينها معظم هذا التمثال ، وعلى يسارها يوجد لحد من قطعة واحدة ... ومدافن مدينة ممفيس القديمة الواقعة تحت الأرض ، وهى على شكل السراى الذى يعبر عنه باسم " مدفن العجل(*) " ، والتى تحوى تلك المومياوات الجميلة ، وتعتبر من أعظم آلهة الفراعنة ، وموقعها فى سقارة التى دفنت فيها مدينة ممفيس القديمة ومشاهيرها .

(*) **مدفن العجل** : وبينما كان ذا قطعة واحدة ، إلا أنه قد حفر ، وبقيت منه زوايا حفرت من داخلها وكأنها قطعة واحدة لحجر أيضًا من جهة الشارع الذى فتح باتساع يتجاوز ثلاثة أمتار.. وكانت التوابيت الكبيرة للغاية والمحلاة ذات الأغطية المصنوعة من قطعة واحدة من السماقى قد وضعت بداخلها المومياوات الجميلة تلك - وهى آلهتهم ،وقد وضعت محنطة باهتمام شديد داخل هذه التوابيت الكبيرة للغاية ، فوق سرر خفيضة ، ظهرت وهى متصلة بالأرض ، فى أرضية الحجرات التى يبلغ اتساع كل منها ثلاثين مترًا تقريبًا .

وبمجرد وصولنا إلى ساحة هذا المتحف الضخم ، واجهتنا اللحود التى وضعت مواجهة بعضها بعضًا ، وتحتوى على أغطية ذات قطعة واحدة ممزوجة بأحجار من النوع نفسه ، ومنحوتة من كتل الأحجار الجرانيتية السماقية ذات القطعة الواحدة .

وكانت تعرض فى دهاليز ضخمة للغاية بالجانب الأيمن من ذلك المدخل ، وهى بين الساحة والمدخل ، المجداف وعجلة التوجيه ، وكذلك الأماكن التى كانوا يقفون عليها فوق مسند المجداف والمخصصة للتجديف والراية والتجديف بمجداف واحد فوق المسند .

ويكفى أن مجرد التفكير فى هذه القطع الخشبية التى كانت تستخدم فى نقل جنازة حاكم قبل خمسة آلاف سنة على الرغم من سوء حال أخشابها (كانت فى حالة عطب) ، وأيضًا التفكير فى العصور التى جاءت بعدهم ، كان يجذب النظر إلى قيمتها وأهميتها ، بل إننا لو أقررنا بإمكانية بقائها مدة كبيرة طبقًا للخصائص المعدنية للمعادن التى نجدها فى المتحف ، فذلك يثير الدهشة والحيرة فى العقول ، وظهور أجسادهم وكثير من الأقمشة وغيرها وقطع من بعض الألبسة والأخشاب بحالتها الأصلية ، ووجود المومياوات وكأنها حية ، وتفريغ الهواء من الأماكن التى تحفظ فيها . ومن البديهى أن تصنع التوابيت من شجر الجميز المتوافر بكثرة فى مصر اليوم ، والذى يطلق عليه اسم الصبار فى اللغة التركية.

خصص الدور الأرضى من المتحف لعرض التماثيل ، المصنوع أغلبها من السماقى والجرانيت ، والكتابات ، والقبور ، وبعض الأعمدة والأغطية ، والقبعات ، والأحواض ، والفسقية ، وتماثيل بعض الحيوانات . وخصص الدور العلوى الذى يصعد إليه بالدرجات المرمرية الواسعة والمائلة المواجهة لطرفى يمين المدخل ويساره ، لعرض نوادر الآثار فى الحقيقة .

ومن المستحيل عدم إبداء التعجب إزاء الدقة والفن اللذين نلمسهما فى المومياوات الموجودة هنا ؛ بسبب كثرتها العددية وتنوعها وطريقة تكفينها . والشىء الذى يثير الدهشة هو ظهور صور ذات إطار للكفن ، وهى مصبوغة بالدهان الزيتى تصور فيها حال حياة الموتى ، وتوجد فى الأماكن التى نصادفها فى قسم خاص بالمومياوات المشهورات ،

والتى أودعت مؤخرًا بالمتحف ، بينما كان من المستحيل فهم الألوان الطبيعية التى كانت لديهم أثناء حياتهم ، أى ماهيتها الحقيقية بأجسادهم المحنطة ، فهذه المخلوقات التى كانت تعيش منذ خمسة آلاف سنة من ميلاد المسيح عليه السلام كانت مومياوات سوداء تمامًا .

ولا تشبه هذه الصور تلك الرسومات البسيطة والعادية التى تظهر من خلال تلوين القدماء المصريين توابيتهم وتجهيزها ؛ فهى من الأعمال الفنية النفيسة ، والتى وفق فى تصويرها أساتذة الفن فى العصر الحاضر بتقليد يحاكى الطبيعى تقليدًا تامًا . وحسبما يتضح من هذه الرسومات ، فإنهم أشخاص قمحيو اللون أو هم بيض ينتسبون إلى العرق القفقاسى ، الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر - خاصةً وأن أدوات الزينة الخاصة بنسائهم مثل الحلق والقلادة والسوار وزينة شعورهم كانت تشبه الطريقة المتبعة فى العصر الحاضر من ناحية الملبس والزينة ، وهو ما يجعل الإنسان فى حيرة وتعجب ، وهو يطالع هذه الحقيقة التاريخية الخارقة للعادة فى الواقع ، ولهذا السبب يزداد الاقتناع بأن الفراعنة لم يكونوا من البشر الذين استوطنوا بالهجرة من أفريقيا الوسطى والمنتمين إلى سلالة الزنوج ، وإنما هم من البشر الذين نزحوا من الشمال والمنتسبين إلى النسل القفقاسى .

تظهر التوابيت الخشبية التى تحوى المومياوات فى الدور العلوى للمتحف ، وهى مزينة بالزخرفة وذات خطوط ، ومنقوشة بالزيت المدهون الخاص بذلك الدور ، ومطلى معظمها وعدد منها بالكامل بالإبريز المموه بالذهب ، بينما كان هذا الطراز من التلوين يعد مسلكًا دينيًا واعتقاديًا ، إلا أنها كانت عبارة عن دعاء ورجاء بالخط الهيروغليفى ، وعبارة عن ذكر وتذكار للأعمال الحسنة والخيرة التى قام بها صاحبها فى حياته من أجل أن تكون وسيلة للشفاعة .

وتعد نوادر الأشياء التى صنفت وعرضت فى أقسام المتحف وإداراته ودواليبه وخزانات العرض كثيرة ، إلى درجة أن تتبع دراستها باهتمام يليق بقيمتها يرتبط بالمتحف ارتباطًا وثيقًا . غير أنه لا يمكن بالطبع تقديم أية دراسة خاصة - ولو بشكل

سطحى عن متحف آثار مصر الفرعونية بأسلوب التبليغ الذى يتوافق مع الاستعداد الذاتى لأى زائر تكون مدة إقامته محدودة ، وتكون قدرته على التمييز والتدقيق مفقودة ...

فما يعرض فى الخزانات الخاصة بها لا يمكن حصره ؛ إذ لا يمكن الإحاطة بكل مايُشاهد من تلك الآلاف من الآثار الرقيقة والدقيقة والصغيرة جداً والصور والرسومات التى على شكل لوحة ، ولفائف ورق البردى **Papirus** المدبقة بصورة منتظمة ، وأشكال من المشغولات والمصنوعات مثل الكراسى والسلات والقارورات (صناديق صغيرة للمجوهرات) وأنواع من نسيج بقى طيلة خمسة آلاف سنة .

وتفيد الإرشادات المكتوبة على لوحة خاصة بالحليات المذهبة والقلادات المصنوعة من الزمرد السماوى ، والمعروضة فى إحدى الخزانات ، بأنه قد وُجدت مجموعة من التوابيت والمشغولات (الحليات) المذكورة عند الدخول إلى الأهرامات الموجودة فى دهشور ، والذى اكتشف مدخله من خلال فتحة على بعد بضع مئات منه ، ثم نُقلت إلى المتحف .

الأسلحة والأوانى المتعددة والأدوات المختلفة والمسكوكات والأختام والأختام البارزة المصنوعة معظمها من سن الفيل، وقد رُسمت على أسطحها الخارجية صورة الخنفساء ... فما أسمى وثائق هذه الآثار خاصةً بالنسبة للتاريخ ، وما أقيمها باعتبارها كنزاً نفيساً! إن مجرد التفكير فيها يعد من المزايا كذلك .

توجد إدارة أخرى للعربات الحربية وجميع أنواع الأسلحة الحادة والعصى الشائكة والسهام ، وفى إدارة أخرى خاصة توجد الأوانى المذهبة الخاصة بآلهتهم ، بل وتعرض فى قسم آخر مومياوات الحيوانات ، وهى تعد من الشواهد التاريخية التى توضح الاعتقادات الدينية لهؤلاء الأشخاص وطريقة معيشتهم ومدى قدراتهم وثقافاتهم .

توجد مغارة خاصة بدفن أموات القدماء المصريين فى جانب الجبل الغربى الذى بنى عليه بلدة أسيوط . وكان جانب من هذه المغارة يدفن فيه الحيوانات التى عبدوها كآلهة لهم فى ذلك الوقت . ويستدل من الآثار التى عرضت أن الحيوانات التى تم اكتشافها وعرضها هنا تحت اسم الطيور والحيوانات المقدسة ، هى عبارة عن أنواع

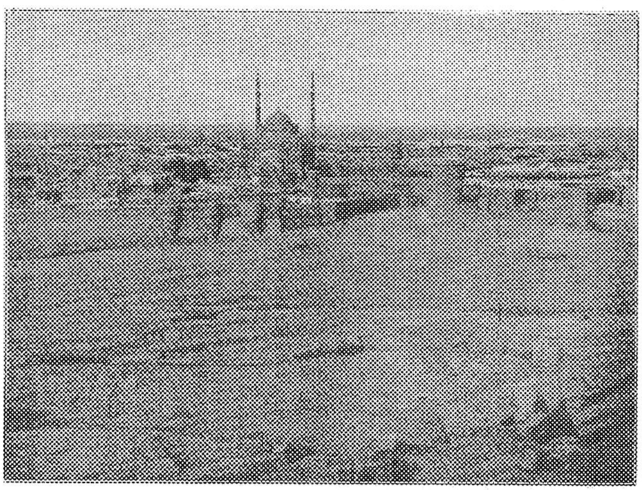
من الحيوانات مثل النسر والخفاش والجرذ والكلب ، بل وحتى الأسماك تم تكفينها بشكل يشبه مومياوات الفراعنة تماماً ، ودفنت بوضعها فى وعاء خزفى .

وهكذا ، فإن الإقليم المصرى جدير بأن يبارك له على امتلاكه مثل هذا المتحف؛ أما من خدموا وشجعوا على جمع هذه الآثار فإن التاريخ والعلم الإنسانى مدين لهم بالشكر .

ونظراً لأنه لا يمكن تقدير قيمة الأهرام الحقيقية إلا بعد مشاهدة المتحف ، ولو بصورة سطحية ، فإنه من الضرورى لمن يذهب إلى مصر أن يتخذ قراراً بالبحث عن الأهرامات والتقصى حولها بدقة شاملة .

القلعة والبئر

تعد قلعة القاهرة من القلاع القديمة التى أنشئت على سطح مائل شمال جبل المقطم ، وهى اليوم(*) فى جنوب مدينة القاهرة . ويحتل موقعها مكانًا حاكمًا للمدينة تمامًا ؛ حيث يقع جزء منها فى شمال شرق مدن الفسطاط والعسكر والقطايع ومصر القديمة الواقعة جنوب مدينة القاهرة اليوم ، وهى من أحياء المدينة .



صورة رقم (١٧)

قلعة القاهرة ـ جامع محمد على

يقع الجامع الشريف الذى أمر ببنائه المرحوم محمد على باشا فى مكانٍ عالٍ حاكم مشرف على المدينة . وكانت مدينة القاهرة قد أحاطها " جوهر " بسور من الطوب اللبن ، وهو مؤسسها وبانيها ، وانتهى من بنائها عام ٣٥٩ هـ /١٣٦١ م .

(*) المقصود سنة ١٩٠٦ .

ومن الروايات التاريخية أن حضرة صلاح الدين الأيوبى قد أمر فى عام ٥٦٩ هـ ببناء هذه القلعة التى نحن بصدد تعريفها - من أحجار بعض الأهرامات الصغيرة الموجودة بالجيزة . وأمر أيضًا بتقوية السور الذى أقامه " جوهر الصقلى " حول القاهرة من الطوب اللبن .

ولا يجذب دقة النظر أى شىء خارق للعادة فى بناء القلعة سوى أنها تبدو للسائحين كمنطقة معروفة ومشهورة فى مصر لقيمتها التاريخية ؛ إذ كانت مسرحًا لوقوع أحداث مهمة فى الأزمان المختلفة بدايةً من تاريخ بنائها .

ومن الثابت تاريخيًا ، أنه كان يوجد داخل القلعة الإدارات الحكومية بعد أن حظيت مصر بالاستيلاء العثمانى عليها ، وكذلك العساكر الملكية المصاحبة لولاة مصر المعينين من قبل الدولة العلية ، والجنود الإنكشارية المكلفون بالمحافظة على المدينة كانوا يقيمون بالقلعة ، وأنه كانت تُقام بها الاستقبالات الرسمية للدولة والمراسم التشريعية ، وأن المستبدين الذين يحرزون سلطة ضد الحكومة كانوا غالبًا ما يقومون بالهجوم على القلعة ... فكانت مقرًا لوقوع كثير من المعارك والمصادمات حتى فى داخلها وبالقرب منها ، بل إنه حينما عين المرحوم محمد على باشا على ولاية مصر صادف وقته حصار سلفه خورشيد باشا للقلعة ...

وعلى هذا الحال حوصر خورشيد باشا فى القلعة يوم التاسع عشر من صفر عام ١٢٢٠ هـ ، وشارك فى الحصار عساكر محمد على باشا وجميع أهالى البلد ، وفى أثناء الحصار - أى يوم العشرين من ربيع الأول عام ١٢٢٠ هـ عُيِّن محمد على باشا واليًا على مصر .

وعندما بلغ الأمر خورشيد باشا من قبل رئيس الحرس صالح أغا المكلف بإيصال فرمان الولاية ، كان خورشيد باشا فى الجيزة ؛ حيث أرسل إليه رئيس البحرية قدرى باشا من أجل الخروج من القلعة فى الحال ، إلا أن الأمراء المماليك لم يخرجوا منها متذرعين بمطالبهم الكثيرة جدًا والمتعلقة بمعاشات العساكر السابقة ، ولم يكن هناك نقود ، فخابروا الموالين لهم من المماليك ، وبسبب أنهم كانوا يتحرون الوسيلة

التى تمكنهم من الانتصار على محمد على باشا فقد تجرءوا على التقدم متجاوزين الجيزة .

أمـا محـمـد على باشا فعلى الرغم من أنه دفع بعساكر كافية وأرسلهم إليـهم ، فإنه بسبب استمرارهم للحصار بلا ضجر أو ملل ، خرج خورشيد باشا العاجز عن القلعة فى اليوم العاشر من جمادى الأول ورحل مستقلاً سفينة من بولاق . كانت الصراعات التى حدثت بين المرحوم محمد على باشا والى مصر والمماليك متعددة جداً . ويبدو أنه من المناسب تقديم بعض الإيضاحات التاريخية المتعلقة بهذه الأحداث؛ فقد تم إخضاع كل جنود المماليك النظامية فى الموقع الذى يبدو للزائرين وكأن الأحداث تتراءى أمام ناظريهم اليوم فى القلعة .



صورة رقم (١٨)

مسرح (دار) الأوبرا ـ تمثال إبراهيم باشا

لم يستطع المماليك أن يستردوا شيئًا مما ناله محمد على من نفوذ ، وتحينوا الفرصة لأخذ زمام أمر الحكم فى مصر كما كانوا فى سابق عهدهم ، كان محمد على باشا يفكر فى التخلص منهم جميعًا من أجل الاستقلال بأمور الحكم وإخلاء الساحة من منافسيه أيضًا . وعندما كلف محمد على باشا من قبل الدولة العلية باستخلاص الحجاز من الوهابيين ، أمر بعقد اجتماع الجيش الذى أعده من أجل إرساله إلى الحجاز ، وذلك فى معسكرهم الذى أمر بإقامته فى قبة العرب ، وعين ابنه " طوسون باشا " قائدًا عليهم .

وعندما أعلن بواسطة المنادين قبل ذلك بأن جيش طوسون باشا ينوى السفر لمحاربة الحجاز يوم الجمعة الموافق الخامس من صفر عام ١٢٢٦، صعد إلى القلعة جميع من يجب حضورهم فى حفل رسمى وعلى مأدبة الوداع فى اليوم المذكور ، وصعد معهم أيضًا إلى القلعة أمراء المماليك الذين يطلق عليهم اسم الأمراء المصريين ومماليكهم وجنودهم . وبينما كان محمد على باشا يسير مع مجموعة من المماليك ، أعطى أوامره بالقضاء عليهم . وتحدث سرًا إلى نائبه " محمد بك لازوغلى على" ، وقائديه حسن وصالح قوج اللذين كانا على علم بما سيحدث الليلة ، وفى الصباح بينما كشف السر لكبير خدامه إبراهيم أغا ، فقد صعد إلى القلعة الأمراء المصريون وغيرهم على الوجه السابق ذكره ، وبعد أن دخلوا إلى معية محمد على باشا وارتشفوا القهوة ، وبعد أن حظوا بكثير من ملاطفة الباشا وإطرائه ، وبعد أن تحادثوا كثيرًا بغير كلفة ، اصطف الفوج وغادروا من جانب الباشا ، وكان المماليك يتحركون أيضًا فى جماعات على هذا النحو ، وبعد أن عبر فى البداية أوزون على قائد عساكر الفرسان مع فرقته ، وبعدهم موظفو الضرائب وقوة البوليس وطوائف الأوجاقلية ، تحرك صالح قوج مع الجنود أيضا ومن خلفهم الأمراء والمماليك الذين يطلق عليهم اسم الأمراء المصريين ، وبعدهم العساكر المشاة والفرسان والبكتاشية وأرباب المناصب ، وتحرك كبير الخدام إبراهيم أغا ، وبينما بدأ طوسون باشا وهو (قائد الجيش) التحرك مع إبراهيم بك وهما ولدا محمد على باشا ، وامتطيا فرسيهما ....، وبعد أن أوصى نائبه بمراقبة ولدى محمد على باشا ، ذهب إلى جناح الحريم، وكان سليمان بك البواب، وهو أحد أمراء

المماليك يحاول تنظيم فرقة الجنود التى تجىء وتروح جاهلةً بالنوايا الخفية . وعندما اتضح ماذا كان ينوى بعساكره ، أمر صالح قوج بإغلاق الباب ، وخرج من الباب مجموعة من العساكر وعرب الأوجاقلية.

كان إبراهيم بك قد أغلق الباب بالأسفل ، وبقى المماليك محصورين فى المكان الضيق والمتعرج الذى يؤدى إلى الباب الأسفل، والذى يتجه نحو ساحة سوق القلعة ؛ فقد كانوا قد بدأوا بإشعال النار على المماليك فى الحال بأمر من قائد فريق المدفعية إلى فرقة "الروم إيلى المدفعية" المصاحبة له .

ولم يكن المماليك يستطيعون التحرك ، فيما لو أرادوا الرجوع والصعود إلى أعلى ، بسبب اضطرام النار من الأسفل إلى الأعلى بلا انقطاع وملاصقتهم بعضهم ببعض ، وبينما تعرض بعضهم للقتل وآخرون للسقوط على الأرض وهم جرحى ، سل " شاهين بك " و " سليمان بك " البواب ومجموعة من المماليك سيوفهم ودفعوا بألبستهم الثقيلة من فوق ظهورهم وقفزوا إلى أعلى ، حتى إذا ما وصلوا إلى منتصف الميدان على الأرض جُرح أكثرهم خلال سقوطهم على الأرض وكُسرت رقابهم وأُرسلت إلى " محمد على باشا " .

استطاع " سليمان بك البواب " الهرب ، ولكنه أُصيب بطلق رصاص فى ظهره أثناء صعوده حائط برج كبير فدُكت رأسه عند سقوطه وأُرسلت إلى الباشا أيضًا .

وبعد ذلك بينما كانت مجموعة من الجنود تقوم بإعدام من سقط بين أيديهم من المماليك ، كان قد تم القبض على من اختبأوا فى الزوايا والأركان ومن لجأ إلى منزل "طوسون باشا " وأعدموه ، كما قبض أيضًا على " أحمد بك " و" ألفى يحيى بك" و " على كاشف الكبير " وباقى المماليك الذين لم يحضروا الحفل ، وكانوا موجودين لدى كتخدا بك ثم أعدموا فيما بعد .

لم ينجُ من المماليك الموجودين داخل القلعة أى شخص سوى أمير مملوكى يدعى أمين بك ، حيث قفز من برج القلعة بحصانه ، وعندما اقترب إلى الأرض تقطع

الحصان بتأثير السقوط ، فقد رمى نفسه على الأرض وأنقذ وفر من هناك إلى الشام . هذا الأمين هو أمين باشا المملوك الذى قدم خدماته للدولة مؤخراً .

وبإصدار فرمان فى كل النواحى والجهات ؛ فقد قضى على المماليك بلا رحمة وهم بداخل المدينة بعد أن تم القبض عليهم ، وقضى على من تم القبض عليهم بواسطة فرقة عسكرية خاصة، وقضى على الموجودين جهة الصعيد . وعلى الرغم من أنه تمكن البعض من الخلاص والفرار إلى غرب طرابلس والوديان ، فإنهم كانوا قلة قليلة جداً ، ولم يكن قد بقى منهم مملوك واحد .

عندما استولى بونابرت على القطر المصرى ، أنشأ الفرنسيون قلعة صغيرة أخرى على أعلى مكان حاكم فى القلعة ، وقد أصابتها اليوم يد الإهمال ، ويتم تعريفها للسياح بأنها مقر إقامة القواد الفرنسيين .

يسمى الشارع الذى يمتد من المدينة إلى القلعة باسم شارع محمد على ، وهو طريق منتظم للغاية أنشئ من أجل أن يكون طريقًا مرصوفًا بالحصباء ، ومهدت أرضيته بالقطران ، ويميل هذا الشارع ميلاً قليلاً جداً ، وقد شُيد ومُهد فى استقامة واحدة وعلى امتداد كيلومترين ، ولقد افتُتح لكى يسير عليه حضرة السلطان عبدالعزيز خان عند ذهابه للقلعة بسهولة ، خلال تشريفه إلى مصر بدعوة من المرحوم إسماعيل باشا.

ولا يمكن أن يفهم بسهولة مدى المجهود الذى بُذل من أجل رصف هذا الطريق المذكور ، إلا عند مقارنته بارتفاع وانخفاض ما يبدو من تمهيد الشوارع الضيقة التى ينتهى بها هذا الشارع. ويوجد ترام كهربائى بخط مزدوج من محطة الترام فى المدينة وحتى ميدان القلعة .

* * * *

البئر

من المعروف أن " بئر يوسف " هو البئر الذى يُقال إن يوسف عليه السلام قد حبس بداخله ، وهو موجود فى القلعة . بينما كان المكان الذى سجن فيه يوسف عليه السلام هو الذى سُمى بالاسم الصحيح فى الجهة البحرية لموقع سقارة الذى توجد فيه أطلال مدينة ممفيس القديمة اليوم . كان هذا البئر قد حُفر بأمر من حضرة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، من قبل وزيره بهاء الدين قراقوش .. كان قد أنشئ بهدف الحصول على المياه من النيل ليكفى احتياج الحراس للماء ، وهم الذين كانوا فى القلعة خلال حصار الصليبيين لمصر .

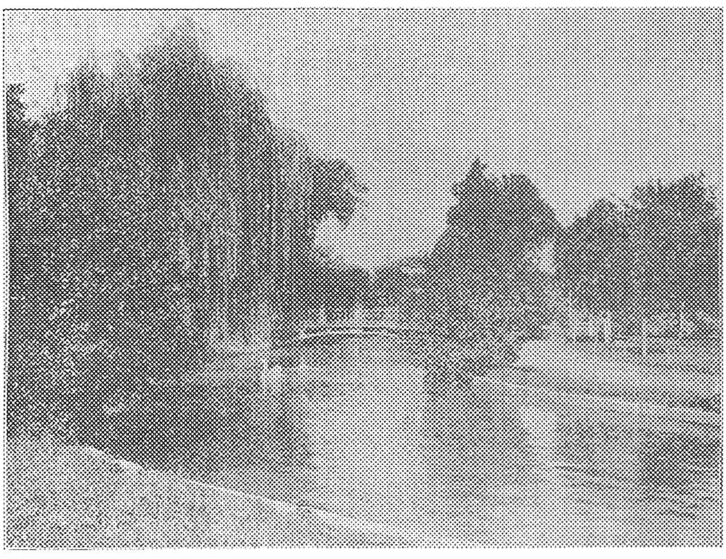
أنشئ هذا البئر من حجر رملى ذى قطعة واحدة على شكل بئر ذى حديقة واسعة للغاية، وينخفض إلى قاع البئر الموجود بمحاذاة النيل ، وتم حفره بشكل حلزونى وباتساع مترين من جوانبه ، وهذا الممر يستمد ضياءه من البئر بواسطة النوافذ المفتوحة والمنتشرة من مكان إلى آخر .

كانت الحيوانات تهبط قديمًا إلى هذا الطريق وتصعد ، ومن الروايات التاريخية أن الدواليب التى تتخذ شكل آبار للحديقة التى تم إنشاؤها فى الطرف الأسفل لكى تتساوى ماء البئر مع الماء الآخر ، تُدار فيندفع الماء إلى الخارج .

وبسبب أن الطرق مهدمة للغاية ، فإنه من الصعب الهبوط والصعود إليه . وقد أقيمت مؤخرًا السدود الموجود جزء منها إلى اليوم ، لتمنع إسالة الماء إلى القلعة من النيل وبالعكس . وفى بداية السدود فى الموقع المسمى فم الخليج ، يؤخذ الماء من النيل ، ويرفع إلى الأسطح العلوية للسدود ، ويظن من يرى الموضع الذى يحوى بداخله المعدات اللازمة ، أنه برج قلعة ضخمة . وقد أهملت طريقة دفع الماء إلى القلعة بهذا الشكل ، وتقدم الشركة اليوم الماء إلى القلعة بواسطة الآلة.

حدائق المحافظة

على الرغم من أنه لم يكن بمصر إدارات البلدية ، وإدارة أمانة المدينة ، غير أنه يتزايد عدد الحدائق العامة والمؤسسات التى تكفل المحافظة على الصحة العامة بصورة كبيرة بهدف تعمير المدينة ونزهة الأهالى .



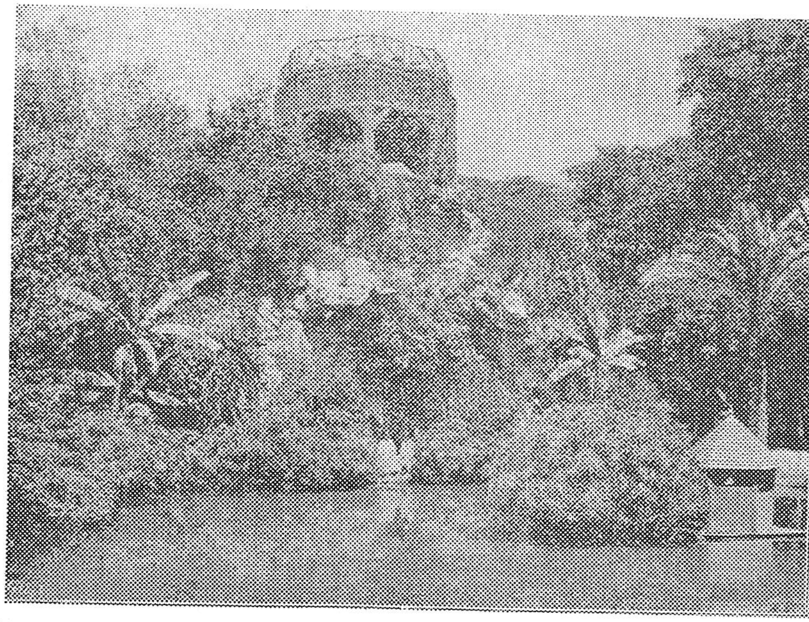
صورة رقم (١٩)

حديقة الأزبكية

وهناك نوع آخر للمتنزهات؛ حيث يمكن أن تعتبر الشوارع الرئيسية للمدينة من أماكن التنزه ، وكانت قد افتتحت من قبل - عدا ما تم تأسيسه وتشييده حديثًا - وبلغت اليوم أعلى درجات الكمال والروعة . ومن أشهر الشوارع الموجودة ، شارع العباسية

الذى ينتهى إلى سراى القبة - وهو الذى يقيم به حضرة الخديوى ، وشارع شبرا الذى ينتهى إلى القصر الذى أنشأه المرحوم " محمد على باشا " ، وشوارع الجزيرة التى تنتهى إلى القصور التى شيدها المرحوم الخديوى " إسماعيل باشا " ، وهى تعد من الشوارع التى يتنزه فيها أغنياء البلد بالعربات بعد الثامنة يوميًا ، وخاصةً يومى الجمعة والأحد ؛ فقد اصطفت الأشجار على جانبيها ورصفت أرضيتها بالحصباء المقطرن رصفًا رائعًا .

تعد حديقة الأزبكية من أقدم الحدائق المقامة وأضخمها ، لكونها حديقة خاصة داخل المدينة وخارجها . كان ميدان الأوبرا الذى كان يدخل ضمن حديقة الأزبكية هذه ، يظهر بصورة نظيفة رائقة ، وقد كان فيما مضى بحيرة راكدة ذات أجمة مكونة من مياه النيل الراكدة . وحديقة الأزبكية ذات شكل مثمن ، ويبلغ حجمها أربعة وعشرين فدانًا ، ويبلغ اتساعها ١٢٠ دونم ، بالنظر إلى أن الفدان الواحد يبلغ ٥ دونم تقريبًا . وتحتوى بداخلها على مسرح واثنين من الكازينوهات ، وأربعة فنادق وفرقة موسيقية عسكرية وطنية تعزف أنغامها على أنوار الكهرباء ، وعلى ميادين واسعة ذات تنظيمات ضخمة وأشجار نادرة قيمة ، وقمريات متعددة ومقاعد ومصاطب عامة لجلوس أى شخص ، وفسقية ضخمة ينساب منها الماء من كل أطرافها ، ويتم الصعود إليها من طرق مصطنعة مشكلة من صخور كثيرة ، وقصر مشيد وكأنه طبيعى من نخيل التمر ، ويكون الصعود إلى أعلى القصر بواسطة سلالم مصنوعة على غرار سلالم المنارات ، وكبارى وأحواض متعددة ، وطرق مختلفة تهبط إلى مغارة عند الضرورة .



صورة رقم (٢٠)

الفسقية وأجمتها فى حديقة الأزبكية ـ القصر المشيد من نخيل البلح

وهى تعد حديقة جميلة للغاية ، استحضر لها أشجار ونباتات نادرة خاصة من أستراليا وأمريكا والهند واليابان ، وهى منظمة بشكل جذاب ومزخرف . تبلغ قيمة تذكرة الدخول عشرين بارة (فضة) فى كل الأوقات .

ونظرًا لوقوعها فى منتصف المدينة اليوم ، فقد اعتبرت وسط المدينة طبقًا للتعريفة الخاصة بالعربات التى تم تطبيقها فى المدينة . ويعتبر يوما الجمعة والأحد عطلة فى هذا الموسم ، وهى تعد مركزًا اجتماعيًا لراغبى التنزه ، خاصةً مع وجود الفرق الموسيقية بها .

وقد عرضت إحدى الشركات على الحكومة المصرية ، مبلغ مليون ليرة لشراء حديقة الأزبكية هذه ، وطالبت شركة أخرى قطعة طولية على زاوية منها بعمق خمسة أمتار فقط من أجل إقامة محل ومخزن بشكل دائرى ، على أن تبقى الحديقة على حالها ، وقدمت عرضها بشراء كل متر بمائة جنيه إنجليزى ، إلا أنه رفض كلا الطلبين .

بعد العبور من كوبرى قصر النيل ، توجد حديقة للبلدية أخرى ضخمة للغاية أسست مؤخرًا أيضًا فى الجزيرة التى يطلق عليها اسم " الجزيرة " ، وربما تكون هذه الحديقة أضخم من الأزبكية . ويعمل بها موظفون يبلغ عددهم عشرين أو خمسة وعشرين شخصًا ، وتنحصر جهودهم فى استزراع الزهور والأشجار ، وهم لا يدفعون تذكرة الدخول لهذه الحديقة ولا يلتزمون بها .

شُيِّد مسرح صيفى صغير مزخرف جدًا ، وهو بناء حجرى مقام على حديقة أخرى مخصّصة للعامة ، وهى موجودة بالجزيرة أيضًا ، ويوجد بها تزلج اصطناعى تم استحضاره . وتستوفى أجرة ممن يرغب فى التزلج بمقدار عشرين بارة ، وتستوفى من الحاضرين بالحديقة أجرة زهيدة جدًا للسير فى المكان المخصص للتزلّج .

بهذا الشكل تبدو فخامة شوارع الجزيرة التى اشتهرت بسبب هذا الموقع ، كان الجانب الأيمن من الطريق قد أسس ونظم حديثًا ، ويبلغ امتداده ١٥٠٠ متر تقريبًا ، وعرضه ثلاثون أو أربعون مترًا حتى شاطئ النيل ، واستزرعت المروج والزهور، وانصب الاهتمام بتجهيزاته الأولية ، وهى تبدو كحديقة أخرى للتنزه .

وبسبب أنه تم استزراع النخيل ، والذى اصطف فى أماكن مناسبة فى الحديقة ، وخاصةً على شاطئ النهر ، فإن منظر الكورنيش - بين هذه المنطقة المليئة بالنخيل والقوارب ذات الأشرعة الذهبية الطويلة البيضاء التى تسير وتسافر فى النيل - يعد فى الحقيقة من المناظر الشاعرية الجميلة للغاية ، ويكون الدخول إلى الجزيرة بأجرة معلومة أيضًا .

توجد حديقة للتنزه اسمها الجبلاية أو المغارة . وبغض النظر عن الحديقة الضخمة جدًا والمجهزة بعناية فائقة ، والتى تحوز على الرعاية والاهتمام ، فإن المغارات والجروف الصخرية التى أقيمت اصطناعيًا ، قد ازدانت بأنواع من الزهور، والتى تشكل الأسطح الخارجية للمغارات . ويبدى الزائرون اهتمامًا بالغًا بالتلال الاصطناعية ساعة أو ساعتين ، على الرغم من أنه يستحب اللجوء إلى الراحة فى الأماكن المناسبة المبهجة جدًا .

تتعدد المغارات بحيث يكون المرور بداخل بعضها بعضًا ، ويتم الانتقال من إحداها إلى الأخرى .

ومما يجدر البحث عنه ، طريقة معيشة الأسماك النادرة الأنواع التى تنطلق عشوائيًا داخل الأحواض المغطاة بالزجاج السميك على الجدران الداخلية لكبرى هذه المغارات وخاصة فى مغارتين منها . بالإضافة إلى أن مشاهدة الأحواض والماء الذى ينساب بشكل ملتو من أرض المغارة يضفى البهجة والسرور، وهو يتقاطر بصوت أليف متناغم جدًا من حوائط المغارة وقبتها فى أماكن متفرقة ، وورووده وقد اخترق الضياء الذى يغمر المغارات بنوره تمامًا وهو ينبثق من خلال الماء بهذا الشكل تمامًا .

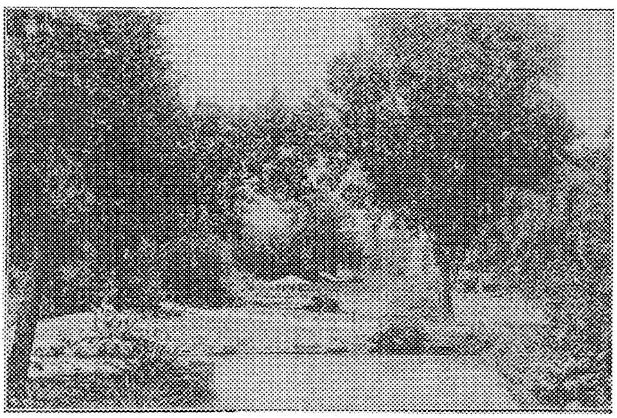
تعد هذه الحديقة من جملة آثار الخديوى الأسبق المرحوم " إسماعيل " ؛ فقد كانت جزءًا من حدائق سراى الجزيرة المشهورة ، والتى أطلق عليها اسم الجزيرة بالاس ، وهو مستخدم كفندق اليوم .

تشبه الجزيرة التى يطلق عليها اسم الجزيرة - والتى سبق التعريف بها - الجنة بأشجارها التى تلوى الأعناق إلى الأفلاك ، والحدائق والطرق المنتظمة والمرصوفة بالحصباء والمقطرنة ، والقصور الضخمة المزينة التى تحتويها ، وحلبة السباق الواسعة المنتظمة التى يُحاط أطرافها بسياج ، والحديقة ومبنى المعرض الذى يفتتح أربع مرات سنويًا . لقد استبعدنا تقديم إيضاحات - والتى سوف تأتى فى أماكنها - حول المعرض وحديقة الحيوانات والنباتات التى يجب أن تعد من الأماكن العامة للتنزه ، وحديقة القناطر الخيرية العامة التى يجب أن تعد من أبرز الحدائق العامة ؛ نظرًا لضخامتها وحسن انتظامها وجمال موقعها غير العادى .

وجدير بالذكر أن معظم هذه الآثار النافعة تكون بالمجان ، وهى من ناحية تساعد على المحافظة على الصحة العامة ، ومن ناحية أخرى تعمل على زخرفة المدينة وتعميرها ، وتعد وسيلة للتنزه لجميع الأهالى سواءً للفقير أو الغنى على حدٍ سواء ، وتعتبر أجرة الدخول إلى أى قسم منها زهيدة جدًا .

حديقة الحيوانات

تعد حديقة الحيوانات منشأة حضارية ، وهى مدار زينة المدينة ، وتعتبر متنزهاً جميلاً لمن يريد أن يمضى وقتًا مفيدًا للغاية وأوقات شاعرية ممتعة جدًا . وتوجد فى مدينة هامبورج أجمل حدائق للحيوانات على سطح الكرة الأرضية ، نظرًا لما تتمتع به من ثروة ، إلا أنه تجدر الاستفادة أيضًا من حديقة الحيوانات بمصر ، وذلك لوجود الحيوانات بها وكذلك النباتات فقد جُمع بها كل أنواع الأشجار والنباتات ، وهى تحظى بالاهتمام بتوسيعها وتزيينها تدريجيًا ، والحرص على إكمال النقص والعيوب .



صورة رقم (٢١)

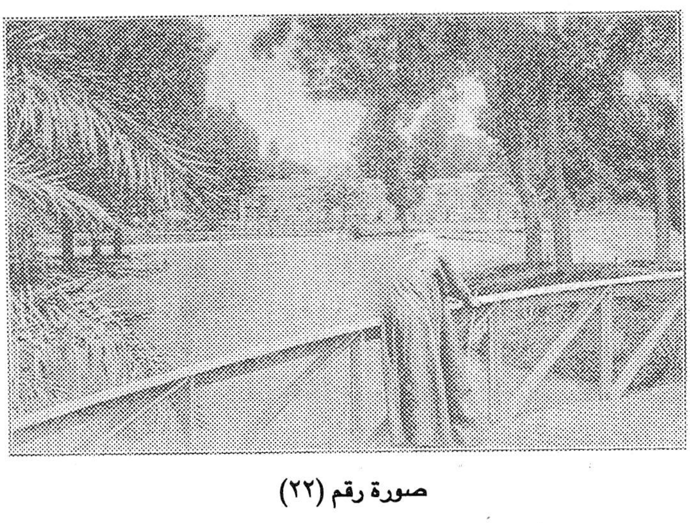
حديقة الحيوانات

تقع هذه الحديقة الساحرة بجوار مديرية الجيزة على الساحل الغربى للنيل . ويكون ركوب الحافلة الكهربائية (الترام) الأهرام من ميدان العتبة الخضراء الذى يعد مركز المحطة الرئيسية للترام فى المدينة ، أو من أى موقع ، ويستمر فى السير إلى

حديقة الحيوانات التى تعرف باسم (جنينة الحيوانات) خلال ساعة وربع ساعة بالترام من محطة الجزيرة ، وهو يمر على كوبرى قصر النيل . وبمجرد أن يعبر من جزيرة الروضة والكوبريين عن طريق مصر القديمة ، يصل إلى حديقة الحيوانات الواقعة على مسافة مائة أو مائة وخمسين مترًا ، فى حالة ركوب الترامواى من ناصية الكوبرى .

كانت حديقة الحيوانات هى حديقة القصر الذى أمر بإنشائه الخديوى الأسبق "إسماعيل باشا " وغرس بداخلها الأشجار المصفوفة ونظمت أراضيها ؛ من أجل أن تكون بحالها القديم وبحالتها الأصلية ، وتوجد بها القمريات والقصور المتنوعة الأشكال ، والكوبرى المعلق فوق البحيرة والجبال والمغارة التى استحدث تشييدها ، والأحواض التى كانت قد تم تأسيسها بذوق سليم ، وتقسيماتها المنتظمة وأشجارها المزروعة بداخلها ، وهى بحالها القديم وبشكلها الأصلى .

كان هذا القصر قد اتخذ متحفًا قبل بناء متحف آثار الفراعنة الجديد ، وبعد تغيير مكان المتحف المعروف حاليًا ، كانت الحكومة قد أمرت بهدم السراى ، وتم بيع مساحة أراضيها الفسيحة للغاية قطعة قطعة بالإضافة إلى أنقاضها .



صورة رقم (٢٢)

حديقة الحيوانات

وقد أُقيمت أرائك ومقاعد طويلة للاستراحة فى الأماكن الملائمة على طرق الحديقة فى أيام الآحاد فحسب ، ويوجد فندق وكازينو يستمر العمل فيهما حتى المساء .

تبلغ قيمة تذكرة الدخول فى الأيام العادية عشرين قرشًا ، وفى أيام الآحاد خمسة قروش . والواقع أن أرصفة المشاة المرسومة بأحجار الحصاة الصغيرة للغاية ، تأخذ بالألباب ، وهى ذات أشكال ثلاثة ، ويبلغ اتساعها مترًا واحدًا لكل منها ، وتحاط بإطارات على الأطراف بالمرمر المنتظم ، ويبلغ عرضها عشرة سنتيمترات على حافة الطريق المرصوف . غير أن قسمًا من طرق الحديقة المرصوفة والمتبقية من الزخرفات السابقة يبلغ عرضها ثلاثة أمتار .

تتدلى لوحات فوق الأشجار النادرة تبين أنواعها وأجناسها ، وتوجد نباتات مائية فى البحيرات والأحواض وأزهار متنوعة فى تقسيماتها ، وهناك شوارع فى بعض الأماكن .

بينما يكتفى الزائر بالتنزه فى الحديقة فحسب ، لكنه يُضاف إلى ذلك مشاهدة الحيوانات كفائدةٍ أخرى يمكن أن تجعل هذا المكان جديرًا بالزيارة حقًا .

تعرض الحيوانات فى الأقفاص وخلف الحواجز المقامة طبقًا لأجناسها . يوجد فى الأقفاص الحديدية المعدة بشكل خاص للحيوانات أمثال الزرافة المستأنسة والبرية والغزلان ، والظباء ، والحمير الوحشية والمخططة ، والنعام . يتجول الزوار على ممرات يبلغ اتساعها مترين . توضع الحيوانات المتوحشة داخل مواضع أكثر إحكامًا وقوةً ؛ حيث يوجد ثلاثة أسود خطيرة ومخيفة جدًا فى أماكن محكمة حديدية مغلق سقفها داخل قسم خاص .

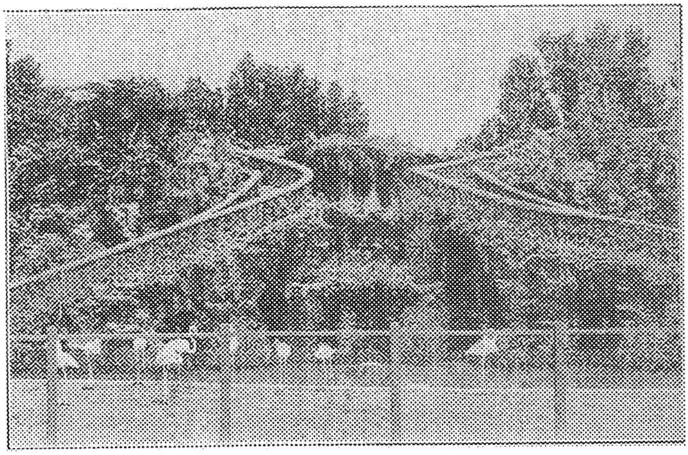
وتوجد الحيوانات المفترسة مثل النمور والضباع والذئاب فى أقفاص تتناسب مع قوتها ، ويعين حراس حسب أجناسهم جميعًا ، وكذلك يختص موظفون بمأكلهم ومشربهم وتنظيف الأقفاص والإسطبلات . وعلى الرغم من أن أغلب الحيوانات الموجودة مهداة ، فإنه تجرى محاولات لاقتناء نماذج من الحيوانات المتوحشة والمستأنسة من كل صنف .

تعلق أمام أماكن الحيوانات لوحات تكتب عليها أسماء الأشخاص الذين قاموا بإهدائها وأسماء الحيوانات وأجناسها ومنشئها وتاريخ ورودها ، كما توجد تعليمات على أقفاص معظم الحيوانات ، وقد كتب فيها " الرجاء من الزوار عدم تخويف الحيوانات "، وتوجد أنواع من قرود المايمون التى بلا ذنب ، واليحمور والغزلان والظباء والأسود والنمور . ومما تجدر مشاهدته حيوانات تنبح مثل الكلاب ، وحيوانات تشبه رأسها وقرونها خاصة الجواميس ، وجسدها يشبه الحصان كل الشبه فى سيره وحركته .

وما يستحق رؤيته بالساعات ، الألعاب المختلفة للقرود ، وخطف طعام بعضهم البعض بحكم طبيعتهم ، ومطاردتهم لبعضهم البعض ، وتأرجحهم فوق المراجيح . وحرى بنا أيضًا أن نتتبع حيوانات القنقر ؛ فى سيره ووقوفه وقفزاته ، وخاصةً أنه لا يمكن عدم التفكر فى أسرار الخلق ، حينما ترى الصعوبات التى تجابهها الزرافات عندما تأكل قوتها . ومما يجدر مشاهدته التحية التى يلقيها للحضور فيل مدرب بأمر حارسه وقبوله للطعام المقدم إليه ، وتحيته ، وعظمة الأسود وهيبتها وصولتها المتهورة تجاه أى صدى مجهول ، وروث الذئاب بأنواعها ، وافتراس الضباع شكلاً وموضوعًا .

تعرض الطيور بمختلف أجناسها وأنواعها التى تصل إلى أربعين أو خمسين نوعًا لأنظار الزائرين فى أقفاص منفصلة وتبدأ بالببغاء . وبسبب أنه يكتب على لوحات معلقة على الأقفاص - كما هى موجودة لدى الحيوانات - أجناسها ومنشؤها وتاريخ ورودها ، ولذلك يسهل التجول بهذا الشكل .

أما بالنسبة للطيور الجارحة فهى موزعة فى الأقفاص المحكمة جدًا طبقًا لأجناسها ؛ فتغنى النسور وتطير معًا فى الأغصان والكتل الخشبية فى أعشاشها الضخمة جدًا والمصنوعة طبقًا لأجناسها ، ووفقًا لطبيعة كل طائر منها .



صورة رقم (٢٣)

حديقة الحيوانات

تقدم أنواع من طيور الطاووس عرضًا ممتازًا رائعًا طريفًا جدًا ، وخاصةً النوع الأبيض الناصع . يعد جلوس النعام فوق البيض ، وعملية فقسه بضوضاء ، لوحةً من لوحات الحياة الجديرة بتأمل صنع الإله سبحانه وتعالى .

الأفاعى

تعرض الأفاعى مع الحيوانات التى تعيش فى الماء ، فى قسم مكون من قاعتين ، ويتم الدخول إليها بأجرة منفصلة عن أجرة دخول حديقة الحيوانات بعضها مسترخ ، والبعض الآخر يتموج داخل الفاترينات المغطاة بالزجاج المحاط من كل جانب ، والمغلق أعلاه بقفص ذى أحبال غليظة ، وبعضها يبدو فى حالة متحركة ، وخاصة تبدو غالبية الثعابين الصغار المنتشرة على أرضية خزانة العرض ، والمدفونة داخل الرمال ، تبدو مخيفة .

تكتب على خزانات العرض أجناسها وأنواعها وأسماؤها ودرجات السُّم لديها . كان هناك ثعبان مخيف مرقط بلونين ؛ الأبيض والأسود ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار تقريبًا وعرضه فى حجم المعصم ، ويبدو مخيفًا وهو يلتوى فى أحد خزانات العرض .

تحنط الحيوانات النادرة التى تموت فى حديقة الحيوانات ، وتعرض الطيور التى تحنط مع جسدها للزوار فى إدارة خاصة مقابل بقشيش رمزى . تنتشر الحيوانات مثل البط والأوز ومالك الحزين والنورس وأبو منقار - وهى من الحيوانات التى تعيش فى الماء وعلى البر - على أحبال داخل أحواض ضخمة .

وعلى الرغم من أنه كان يوجد أيضًا تمساح مخيف وهو مسترخ ، فإنه كان يثير الرعب وهو بداخل سياج محكم .

وحينما يتم توزيع الطعام ، فإنه من المستحيل توضيح استقبال الحيوانات للقائمين على خدمتها ، واندفاع الحيوانات وصيحات الفرح وأصداء أصواتها الصادرة من كل حيوان منها . يحتاج التجول فى الحديقة بشكل دقيق يشمل الحيوانات الموجودة كلها إلى خمس أو ست ساعات .

الهلال الأحمر

تعتبر أوضاع موظفى الصحة - وقت أدائهم لمهام عملهم فى المدينة - من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة المتعمقة . يستلقى المرضى - المحتاجون للإسعافات السريعة (الأولية) ، والجرحى نتيجة حادثة ما أو جريمة - على نوع من الأسِرَّة التى تنفصل عن العربة تمامًا عند اللزوم ، وتهبط على الأرض عند الضرورة ، وتتحرك بانثناء مقوس، وهى مغطاة بالكتان النظيف ، لتكون جاهزة فوق دراجة ذات ثلاث عجلات على النظام الحديث فى الحال فور إخطار البوليس . ويقودها الموظف، وقد علق شارة الهلال أو الصليب الأحمر على ذراعه ، ويتحرك بسرعة خلال قيادته العجلة ، ويرافقه فى ركوب الدراجة موظفان يحملان شارة على ذراعيهما ، ويبتدرون بالتنبيه إلى أنهم يحملون مريضًا ، فيصدرون إشارة بإطلاق صفارة متقطعة أثناء النهار فحسب ، وخلال الليل يطلقونها نغمات متقطعة ذات صدى معين ، ويرفع أحيانًا أحد هؤلاء الموظفين مصباحًا أمامه ، ويسارعون باهتمام فى تقديم الإسعافات اللازمة للمريض وإيصاله إلى المستشفى فى أسرع وقت ممكن ، وهم لا يتوقفون فى الميادين ولا يتعرضون للاصطدام بأكثرها ازدحامًا خلال مرورهم وعبورهم .

يبدى القائمون بهذه المهمة رضاءهم عن حياتهم . ويتحد مسلك الموظفين الشبان ذوى الألبسة النظيفة مع طراز زيهم الموحد ، وتجدر الإشادة بمدى ما يولونه من اهتمام خلال أداء مهامهم بإخلاص وحب .

ويؤمل فى أن يلقى النجاح - ولو بقدر قليل - هذا النوع من عربات المرضى التى يعبر عنها بلفظة " عربة الإسعاف " عند تطبيقها على الطرق غير الممهدة ، وإن لم يكن هناك أدنى شك فى أنها سوف تنجح فى أداء وظيفتها بشكل جيد ، ويتم تطبيقها بنجاح تام فى المدن الممهدة شوارعها وطرقها .

توجد فى مدينة القاهرة كل أنواع المؤسسات الصحية ، وكذلك توجد المستشفيات العامة والخاصة ، ويدفع لها أجر أو بدون . يوجد مستشفى ريفى على جانب الطريق تماماً ، ويقع تقريباً فى منتصف طريق الأهرام خارج المدينة ، وهو خاص بالفلاحين . ومما لا شك فيه أنه سوف تقام المستشفيات بنفس هذا الطراز فى كل موقع مناسب ، استناداً إلى بساطة التجهيزات والمعدات ؛ فقد كانت مستشفيات الفلاحين تبدو حينما تتراءى للأبصار ، أنها على غرار حظائر الخراف المغطاة ، والمحاطة أطرافها بسياج ، والمفروشة ممرات حجراتها بالحصير الخشن ، وهذا المكان عبارة عن حجرة واحدة فقط مشيدة بالأحجار ، ويؤمل فى أن تكون هذه الحجرة مقراً للطبيب والصيدلى والجراحين ، وأن تكون حجرة عمليات للمرضى .

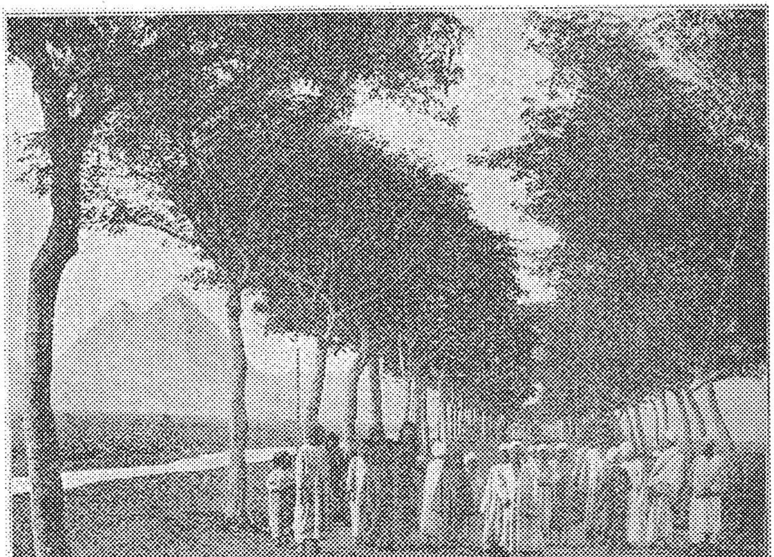
وعندما ألقيتُ نظرة سطحية ، وجدتُ أنه كان يجلس أربعون أو خمسون من أزواج الفلاحين مع أولادهم أو بدونهم ، وعشرة أو خمسة عشر مريضاً من الرجال يفترشون جانبى الطريق على الأرض جاءوا من أجل العلاج . ولا يمكن أن تجهز أية مستشفى بأكثر من هذا الإعداد ، لتناسب القروى الذى لم يلبس الحذاء فى قدميه طوال حياته ، ولن يرتدى أثواباً سوى جلباب طويل من الكتان الأزرق !

غير أن من الأشياء الموفقة للغاية هى تعويد الفلاحين على التداوى وجعلهم يلجأون إلى الطب .

يعد مرض العيون ومرض الرمد من أكثر الأمراض المنتشرة بكثرة بين هؤلاء الفلاحين وجميع القرويين ؛ حيث يكثر العمى ، وكما سنوضح فيما بعد أصل هذا المرض ، فإنه إذا كان بسبب الرمال المختلطة حتى بنسيم الهواء وبذرَّاته التى تنتشر فى كل مكان ، فإن التعبير عن عدم اعتنائهم بالنظافة هو تعبير خفيف للغاية ، بل من الأصدق القول بأنهم قد ألفوا القذارة ؛ حيث لم يكن من عاداتهم إبعاد الذباب الذى يحط على أعينهم، وهو يلقح بهذا الشكل فى كل لحظة ، وكأنما قد حدث تآلف ومؤانسة بينهم وبين آلاف الذباب الذى يحط وينتصب على أعينهم ، أم يا تُرى أن مصر لم تكن تعتبر هذا من البلاء الذى يجب دفعه وإبعاده .

الأحوال المناخية

تعد الأحوال المناخية لمصر في فصل الشتاء من الأمور العجيبة للغاية ، فبينما ترى الشمس ساطعةً والسماء صافيةً ، والحرارة معتدلة مثل الربيع في النهار ، غير أن البرودة تظل سائدة بعد العصر ، وتزداد حتى منتصف الليل ؛ ففي النهار بينما تشعر بالحرارة إلى حد أنه لا يمكن الجلوس أمام الشمس ، غير أن الجو يكون باردًا إلى حد أنه لا يمكن المكوث تحت الظل في نفس المكان والزمان . ففي القاهرة نفسها تسقط الأمطار مرة واحدة في السنة ، وفي نهاية الفصل تمطر مرتين ، وأحيانًا لا تمطر .



صورة رقم (٢٤)

الأطفال القرويون في طريق الأهرام

ومعروف بالتجربة للمقيمين بمصر ، أنه تهبُّ عليها فى الشتاء رياح شمالية باردة ، وكانت تهب ذات صباح رياح باردة فقط ، غير أنها لم تكن باردة إلى درجة الشكوى منها ، وعلى الرغم من أن ذلك قد حدث فى أواخر يناير . وهبت ريح فى الساعة التاسعة ، وتغير لون السماء الصافية ، وظهرت باللون البرتقالى ، وبدا الاصفرار فى السماء يتكاثف فى الهواء على شكل ضباب أصفر تدريجيًا ، وقد تبدل إلى الألوان المختلفة حتى انقلب إلى اللون الأصفر الغامق .

خلال هذه التقلبات فى الألوان ، كانت الأماكن والأشجار وكل الأشياء تظهر كالبانوراما التى تبدو من خلال زجاج أصفر ، وكانت رائحة الرمال والصحراء تستولى على الغرفة من خلال ثغراتها ومن ثنايا النوافذ المغلقة ، ويزداد الهواء ثقلاً مع الرائحة .

ولا شك أن ذرات الرمال الدقيقة قد انتشرت فى الهواء الذى نتنفسه ، وقد امتلأت صدورنا به كلما تنفسنا . والذين يعرفون مثل هذه الوقائع الجوية يوصدون الأبواب والنوافذ ولا يخرجون من منازلهم . ولقد خرجت إلى الشارع من أجل رصد درجة كثافة الضباب ، فكان قليلاً جداً . وكان ما يتراءى من البشر بدرجة لا يمكن القول بخلوهم من الساحات والأسواق . ففى كل لحظة كان هناك من يسير من أهالى البلد ، وكانوا مجموعات من الفلاحات وأزواجهن وقد غطين وجوههن ورؤوسهن تمامًا بالشيلان والمعاطف الخارجية .

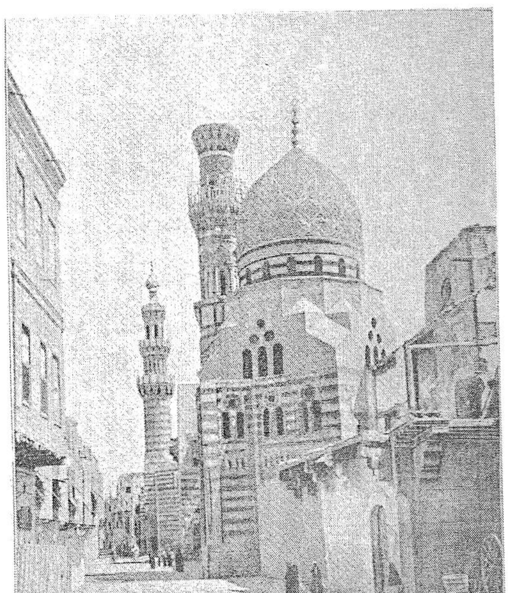
كان ضباب أصفر غامق قد لون كل جهة باللون الأصفر إلى حد أنه لا يمكن رؤية ما بعد مائة متر فى الشوارع . كانت رائحة الصحراء خانقة غاضبة تغطى كل الأطراف والنواحى . وتبدأ ذرات الرمال الرقيقة والدقيقة للغاية فى الاختراق إلى غرف المنازل تدريجيًا ، وبعد أن يستمر هذا الحال حتى الليل ، يصفو الهواء تمامًا فى منتصفه ويزول الضباب .

وفى الصباح التالى تذبل الأزهار فوق الأشجار التى بقيت تحتها طبقة رملية ترابية صفراء لزجة ، وتصاب البساتين بالتلوث ، تحدث هذه الحادثة التى يطلق عليها اسم " العاصفة الرملية " فى مصر عشر أو خمس عشرة مرة فى السنة .

جوامع القاهرة

كان طراز المحراب والمنبر - بأنواعه - قد أقيم على أصول معمارية عربية بصفة عامة ، فهما عبارة عن مربع أو مستطيل أملس مرتكز على عامود واحد وعدة أعمدة .

كانت الشرفات والقبلة وأسطح المنارات الخارجية مزخرفة تماماً بالطراز المعمارى المعروف باسم " آرابيسك " ، غير أن الجامع الشريف الذى أمر بإنشائه المرحوم "محمد على" - وهو أول والٍ على مصر - فى أعلى نقطة فى البلاد ، وبداخل القلعة ،



صورة رقم (٢٥)
جامع الأزهر فى القاهرة

وقد روعى فى تشييده أن يُحاكى تمامًا جامع " نور عثمانية " ، وأن يشبهه فى ضخامته وكذلك زخرفته ، فبالإضافة إلى تذهيب المرمر والأجزاء الخشبية به وتلوينها ، فقد كانت الهيئة العامة لحوائط الجامع فى الداخل والخارج تبدو بشكل يذهب بالأبصار ؛ إذ إنها مصنوعة من نوع المرمر الأبيض المجزع . ويروى أنه قد أقيم حمام فى سراى السلطان "طوله باغجه" بالأحجار المقدمة إلى مقام الخلافة ، والتى أهدى "محمد على" جزءًا منها إلى حضرة السلطان المرحوم " عبد المجيد " ، وأهدى جزءًا منها أيضًا إلى الفاتيكان بروما ، وهى من أحجار الرخام السماقى المموج ، ويستعمل فى الزخرفة .

وعلى الرغم من أن أدوات الإضاءة كانت عبارة عن قناديل معلقة – مثلما توجد فى جامع " نور عثمانيه " – فقد وضعت فى الفترة الأخيرة مصابيح كهربائية داخل هذه القناديل . وفى الحقيقة فقد كانت شرفات المنارات والكتابات تُنار باللمبات الكهربائية فى كل جامع ، وهذا يُضفى فى الواقع شكلاً جميلاً على الإضاءة ، ويؤمل فى أن يطبق على المساجد الإسلامية .

حينما توفى " محمد على باشا " دفن بداخل الجامع طبقًا لوصيته ، وبسبب أنه دفن بداخله فقد شيدت مقبرة مزخرفة وفخمة .

كان يقام فى هذا الجامع الشريف كل عام موكب الاحتفال بالمولود بمراسم معتادة . ويحضر هذه المراسم حضرة الخديوى وقاضى مصر وموظفون فوق العادة وهيئة الوزراء والعلماء والوجهاء والأعيان بالملابس الرسمية . ويتمثل الاحتفال بالمولود الشريف النسب بقراءة القرآن والاستماع إليه بمراسم خاصة . ففى مراسم الاحتفال بالمولود الذى يولد من أهل المرحوم " محمد على باشا " ، كان يوزع السكر والشراب للحاضرين بأوانٍ فضية وذهبية ، والتى يُقال إنها من الآثار النادرة جداً والقيمة للغاية ، والتى كانت محفوظة لدى خزينة الأوقاف المصرية .

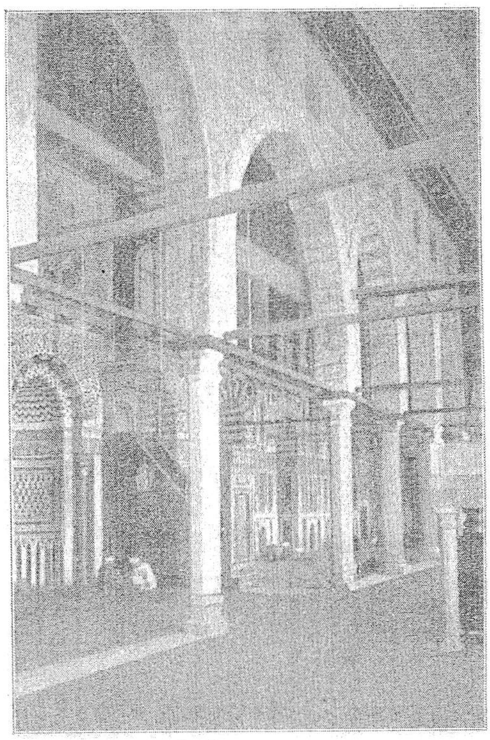
ومن الجوامع الأخرى ، جامع السيدة " زينب " بنت فاطمة رضى الله عنها ، وقد دفنت فيه . وهو مشيد على الطراز المعمارى المصرى ، وانتهى العمل به تمامًا عام ألف ومائة و أربعة وسبعين من قبل " قاز طاغلى عبد الرحمن كتخدا " ، الذى وفق فى كثير من الأعمال الخيرية خلال فترة بداية تعمير مصر .

ظلت المنشآت على حالها ؛ بسبب ابتلاء مصر بالاستيلاء الفرنسى عليها فى الفترة التى شرع فيها " طنبوره جى عثمان بك " فى البناء والترميم عام ألف ومائتين وثلاثة عشر للهجرة . وبعد إخراج الفرنسيين ، وعلى الرغم من أن المشار إليه قد أمر ونبه إلى تجديد تشييده باسم الحكومة العثمانية الجليلة ، شارحًا الكيفية للسردار "يوسف أكرم ضيا باشا " ، فإنه لم يكن من الممكن المبادرة بإنشاء المبانى المعمارية بناءً على بعض الأسباب الضرورية ، وانتهت الزخرفات اللازمة له فى أواسط ربيع الثانى عام ألف ومائتين وسبعة عشر للهجرة ، وبدأ التوسع فى الإنشاءات بمعرفة " ذو الفقار كتخدا " فى زمن ولاية " خسرو باشا " .

أما آخر تجديد له ، فقد تم لأجل الاعتناء بطلائه وفرشه والزخرفة التى أصبحت بصورة تتناسب مع البناء الذى شيد بطراز معمارى جديد أصبح مقبولاً لدى القطر المصرى . وبسبب ملاءمة الزخرفة مع البناء ، فقد أضفى الاهتمام بالزينة والطلاء للجامع الشريف المذكور – وهو مقام زيارة للخاصة والعامة – روحانية تثلج الصدور .

يوجد بأحد الجوامع الشريفة المعروفة – وهو جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه – مقام رأس الحسين رضى الله عنه . وقد جدد وتم فرشه فى تواريخ مختلفة ، وفى آخر تجديد له تم فرشه بشكل جميل وبطراز حديث بناءً على أوامر الخديوى السابق " توفيق باشا " .

وعلى الرغم من أن رأس الحسين توجد فى مقبرة شريفة اليوم فى الشام طبقًا لما يروى من أن رأس حضرة الإمام سيد الشهداء الحسين بن على رضى الله عنه (المرتضى) ، قد أُرسلت من كربلاء إلى " يزيد " فى الشام ، ودُفنت هناك بأمر " يزيد " ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنه من الثابت تاريخيًا أن رأس الحسين رضى الله عنه ، والمعلوم من الروايات التاريخية الصحيحة ، أنها دُفنت فى عسقلان عام خمسمائة وثمانية وأربعين للهجرة ، بأمر من " صالح الطلائع الوزير الفائز بنصر الله " الذى حكم مصر من قبل الخلفاء الفاطميين ، وجلس على العرش وهو فى السابعة ، وتوفى فى عامه الحادى عشر .



صورة رقم (٢٦)
داخل أحد الجوامع الشريفة فى القاهرة

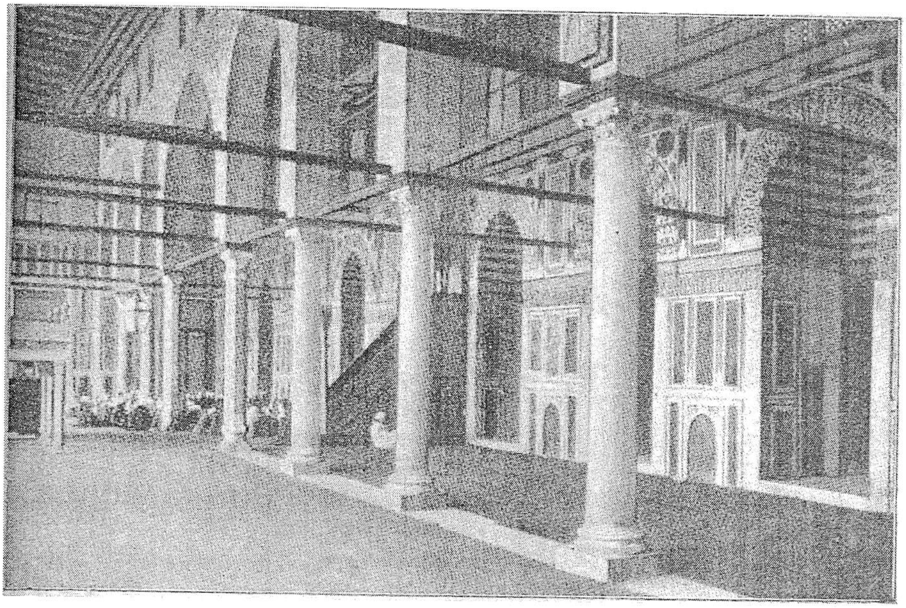
نُقلت رأس الإمام الحسين باحترام عظيم ، وتكلف الأمر مبلغ أربعة آلاف دينار ، وذلك خوفًا من احتلال الصليبيين لعسقلان فى تلك الفترة ، وأرسلت إلى مصر على الرغم من أن صالح الطلائع المشار إليه ومعه جميع العسكر كانوا مكشوفى الرؤوس حفاة الأقدام . ومقيد تاريخيًا أن الجامع الشريف - الذى أقيم على مقربة من المقبرة المباركة المشيدة على سرداب مقام خصيصًا ، وقد نثرت نفائس كثيرة للغاية من المسك وشبيهه من الروائح الطيبة على كرسى مصنوع من الأبنوس ، ومرفوعة فوقه الرأس المودعة داخل كيس من الحرير الأخضر - قد تم تجديده وتعميره مؤخرًا التماسًا للبركة من قبل أشخاص متعددة . ويفهم من الكتابة المنقوشة بخط جلىّ على المحراب ، أن التجديد الأخير قد صادف زمن خديوية المرحوم " توفيق باشا " .

ويروى أن حضرة الخديوى اللاحق قد جاء إلى المقصورة الملحقة بالمقبرة المباركة وبالجامع الشريف من أجل الزيارة فى معظم الأحيان ، ويؤكد ما يروى أنه فرش بعناية فائقة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن من بين مؤرخى إيران من يدَّعى بأن "يزيد بن معاوية" الذى خشى من الإحساس الذى قد يتولد من إثارة أحاسيس المسلمين - بسبب أنها موضوعة على مرأى من الأمة المحمدية - كانت رأس " الحسين " قد أرسلت إلى الشام عقب حادثة كربلاء المفجعة ، ودفنت هناك مع جسده الشريف ، وهم يدعون أيضًا أنه لم يدفن بمصر .

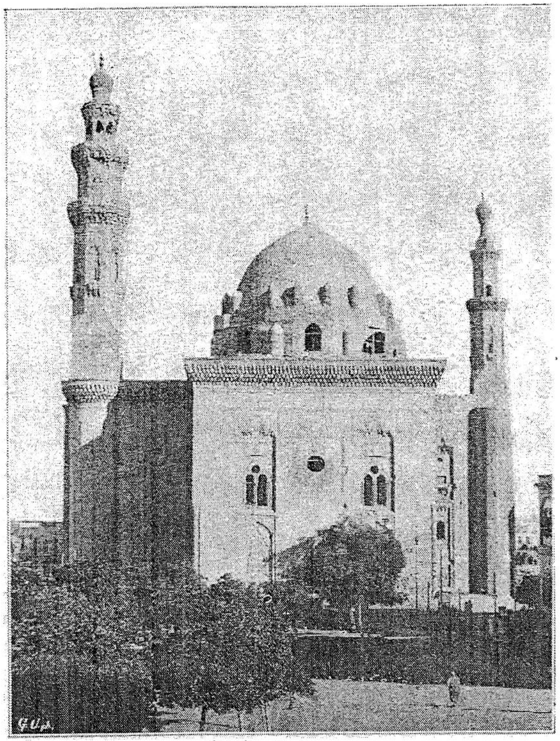
كان ملوك الفاطميين قد أسسوا دولة شيعية امتدت دائرة اتساعها شرقًا حتى هناك ، ونظرًا لما حدث فى ذلك العصر من هجوم الصليبيين فى الحقيقة ، ونظرًا للبديهيات اليقينية ، فإنه لن يقبل ما هو مستند إلى رواية ضعيفة لا تقترن بالصحة فى ذلك العصر ، والتى قبلت حتى لا تتعرض تلك الجوهرة المقدسة لأية حادثة عصبية مع دخول الصليبيين عسقلان ، ولذا أنفقت الأموال حبًا لآل البيت . ويعد الاحتمال الأقوى أن رأس الحسين قد وضع فى سرداب ذى قبة ملحقة بالقرب من ذلك الجامع الشريف . وعلى الرغم من أن معمار الجوامع الخاصة بعهد الملوك الجراكسة ، كان طرازًا عربيًا أيضًا ، فإنها كانت غالبًا ما تتميز بالقباب ، ولم يكن بداخلها أية أعمدة أو أسقف خشبية . كانت هذه الجوامع تزين بإضفاء شكل وهيبة خاصة من ناحية الارتفاع ، وليس من ناحية الاتساع . وانصب اهتمام التيموريين على الزخرفة وإبراز المهارة الفنية الدقيقة لأغطية الأبواب ونقوشها وسلاسل النوافذ ذات الثلاثة أو الأربعة طوابق ، والأبواب المرتفعة الشاهقة الارتفاع وكأنها ترتفع من سطح الأرض حتى قمة البناء ، وخاصة زجاج أعالى نوافذها الملون ذى الفسيفساء المصنوعة من المصيص ؛ فهى تعد من الآثار النفيسة والبدائع التى نتمنى حسن المحافظة على زخرفتها وتجديدها .

ومن أشهر الجوامع الشريفة التى تمتاز بهذا الشكل المعمارى جامع " السلطان حسن " الكائن بجوار القلعة ، والذى دفن فيه السلطان " حسن بن محمد " الذى توفى عام ستمائة وثلاثة وستين للهجرة فى مقبرة بالقرب من الأثر .



صورة رقم (٢٧)
داخل جامع سيدنا الحسين الشريف

وهو الآن لا تقام فيه العبادة ، ويعد من الآثار النفيسة للغاية ، بسبب تأنق زخرفته ؛ فمنبره ومحرابه مكتوب عليهما بالخط الكوفى الجميل جداً ، والذى يزين حوائط الأقسام الداخلية . ومع أن الباب أو النافذة الموجودة تجاه القبلة على شمال المنبر ، قد بنيت كمدخل لمقبرة الجامع أساساً ، فإنها مغلقة اليوم .



صورة رقم (٢٨)

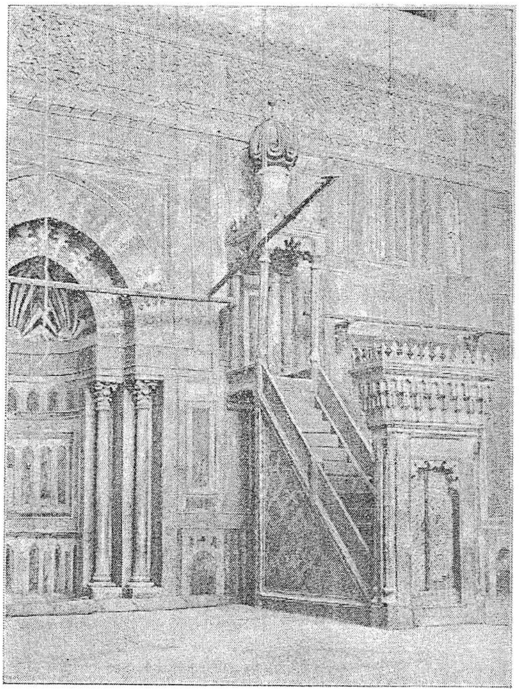
صورة لجامع السلطان حسن من جهة القلعة

وأغطية أو أجنحة الأبواب والنوافذ الموجودة خلف سياج حديدى مزخرفة بشكل فنى نفيس ؛ فهى مزينة بقطع معدنية ذهبية منقوشة بنقوش قيمة . ومن يزر الجامع اليوم يره على هيئة خاصة ؛ فالزخرفات المعدنية المذكورة تعرف بأنها نتوءات ذهبية وفضية ، وتسدل أمامها دائماً ستارة خاصة مصنوعة من الجوخ الأخضر .

ويحتل جامع " الرفاعى " والمواجه تماماً لجامع السلطان "حسن" ، المرتبة الأولى من ناحية الزخرفة الخارجية والارتفاع أيضاً . وكان قد تعطل بناؤه فترة مع بدء تشييده من قبل والدة المرحوم الخديوى " إسماعيل باشا " ، والتى دفنت به ، واستمر الانتهاء من بنائه خلال ثمانية عشر عاماً . ويعد هذا المكان مقبرة لعائلة المرحوم "إسماعيل باشا" ، كما دفن فى هذا الجامع الشريف حضرة الشيخ " شباك " ، وهو من المظنة الكرام .

يعد جامع " قايد باى " أو " قايتاباى " من أكثر الجوامع المبهرة والمبهجة ، من حيث الهيئة الخارجية للجوامع التى بنيت فى عهد الملوك الجراكسة . ويروى أن المشار إليه " قايتاباى " قد أنشأ حائطًا وقبة دائرية بإشارة معنوية من النبى ﷺ إلى الروضة المطهرة خلال حكم الملك الأشرف لمصر عام ثمانمائة واثنين وسبعين للهجرة . ويوجد فى مقبرته حجران من الرخام السماقى عليهما آثار أقدام النبى الشريفة عليه الصلاة والسلام .

يعتبر جامع " عمرو بن العاص " - الذى يجب الاهتمام به والمحافظة عليه ؛ إذ إنه مدار شرف البلد - أول مسجد شريف أقامه عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط التى تأسست كأول مدينة إسلامية عند دخول مصر تحت حوزة أيدى المسلمين . كان الجامع فيما مضى قد أنشئ فى صورة عادية .



صورة رقم (٢٩)
المحراب والمنبر لجامع السلطان حسن والزخارف الداخلية

وعلى الرغم من أنه شيد وأنشئ تارةً تجديداً وتارةً أخرى توسيعًا فى عهود الخلفاء الأيوبيين والعباسيين والملوك الفاطميين والمماليك حتى وصل إلى الضخامة التى عليها الآن . غير أنه بسبب بعده عن المدينة كان سبباً فى أن يُحرم معظم المصلين من أداء الصلاة فيه ، ولكن بسبب العادة الخديوية بإقامة صلاة الجمعة اليتيمة من شهر رمضان فى هذا الجامع بمراسم تشريفية ، فقد كان يشرف البلدة المذكورة – التى هى عبارة عن عدة منازل متواضعة ، وبضعة مصانع مهدمة لصناعة الأوانى الخزفية والمقام فيها الجامع – حضرة الخديوى وقاضى قضاة مصر والباشا المفوض وهيئة الوزراء والوجهاء والأعيان مرة واحدة فى السنة فحسب فى اليوم المذكور قاصدين ذلك الجامع الشريف بمراسم خاصة . وكان أخو الخديوى "محمد على باشا" يرأس نيابةً عنه المراسم المذكورة ؛ لوجود الخديوى فى الإسكندرية فى رمضان منذ سنة أو سنتين حسب الموسم .

هذا الجامع الشريف جامع واسع سقفه أملس مصنوع من الخشب ، وهو مشيد على خمسة صفوف من الأعمدة المرمرية ، وهى عبارة عن تسعة عشر عموداً فى كل صف ، وأرضيته مفروشة بأحجار مقطعة منتظمة ومفتوحة ؛ حيث لا يوجد لها حائط فى الجهة المقابلة لحائط القبلة .

يوجد حول الجامع رمال فى حالتها الطبيعية ، ونخلتان وبعض من شجر السنط ، وحوائط مشيدة على طراز عادى جداً ، ومغطاة بالكلس الأبيض ، وعلى الرغم من أن المنبر مصنوع بأشكال متساوية من قطع خشبية متضافرة ومتشابكة مع بعضها البعض بطراز عربى خاص، فإنه لا يمكن أن يعد ذا قيمة عالية ؛ إذ إن هذا النوع من البناء قد انتشر استعماله بكثرة فى مصر ، وعلى الرغم من أن جميع أعمدة الجامع من المرمر الأبيض ، فإن أحدها القريبة جداً من المنبر لونه غامق ويختلف عن لون الأعمدة الأخرى ومحاط بسياج حديدى محكم إلى أطرافه .

ويرى الموجودون فى مراسم آخر جُمعة من رمضان وقوع صورة معتادة وعجيبة شاعت بين العامة ؛ إذ كان هذا العمود مقراً لإقامة حد الضرب بالحذاء القصير مرة

واحدة فى العام من أجل التأديب - تماماً مثل الأسطورة ، كما أنه كان يبعد عن إقامة الحد عليه من يظهر عصيانه لحضرة سيدنا " عمر " رضى الله عنه . جرى هذا الاعتقاد الذى لا يمكن أن يفسر بشكل آخر سوى أنه من أساطير الأولين حدثت منذ بضعة قرون بين العامة . وانتهى الإعجاب بذلك الاعتقاد ، واعتاد العامة على إقامة سياج حديدى لمنع ضرب العاصى بالحذاء القصير .

يعد جامع الأزهر أحد الجوامع المشهورة والمعروفة ، وعلى الرغم من أن هذا الجامع الشريف لا يختلف كثيراً عن الآخرين من ناحية طراز إنشائه المشيد على أعمدة ذات أصول معمارية عربية ، غير أنه يتميز باتساعه الرحيب داخلياً وخارجياً .



صورة رقم (٣٠)

داخل جامع عمرو بن العاص الشريف فى مصر القديمة

ومما يلفت النظر فى هذا الجامع نقطتان رئيسيتان : أولاهما أن الجزء الذى يعلو الشرفات فى إحدى المنارات الثلاث ، قد بُنى وكأنه منارة مزدوجة ، أما النقطة الثانية فهى أنه بسبب أن الارتفاع لا يتناسب مع السعة الداخلية له ، فإن القسم الداخلى يصبح منخفضاً ومظلماً قليلاً .

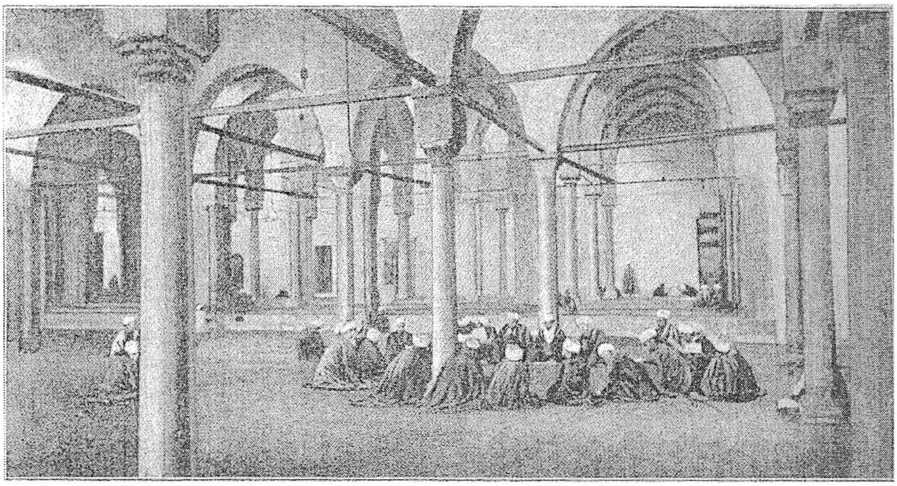


صورة رقم (٣١)

مذاكرة طلبة العلوم لدروسهم حول جامع الأزهر

كان هذا الجامع الشريف مقراً للتدريس ؛ ففيه تدرس كل العلوم – مثل جامع الفاتح الشريف بإستانبول – وكان مجمعاً لطلبة العلوم الذين يبلغ عددهم عشرة آلاف طالب يومياً ؛ بسبب وجود المدارس فى منتصفه ؛ مما أضفى على هذا الجامع مكانة خاصة بين المسلمين .

ومن الجوامع المشهورة من ناحية طراز الإنشاء وزخرفة المنارة والقبة الخارجية أيضاً ، والحوائط الداخلية الجامع الشريف المقام فيه قبر الإمام " الشافعى " . كانت المقابر المقامة فى الجوامع الشريفة فى مصر ، مجردة من الرصاص بشكل عام ؛



صورة رقم (٣٢)
اهتمام كلية العلوم بالدرس فى جامع الأزهر

فالأسطح الخارجية من المصيص أو الأسمنت ، أو يحتوى على أشكال وزخرفة من النقوش الناتئة والبارزة من الحجر . وفى الخارج حيث توجد سلالم منارة الجامع الشريف الذى أنشأه "أحمد بن طولون" – وهو من الملوك الجراكسة - فى مصر القديمة ، وتحتوى مناراته على زخرفة الأرابيسك خارجياً بطراز يطلق عليه نفس الطراز تقريباً . وأمثال هذا الجامع الشريف أيضاً تظل فى حالة من الخراب .

ويروى بخصوص هذه المنارة أن بانى الجامع كان معروفاً عنه عدم قيامه باللعب طوال حياته وفى جميع أعماله وأحواله . ذات يوم تحين الموجودون الفرصة ضده – بسبب انشغال المشار إليه بقطعة ورق بين يديه ، وهو مستغرق فيها – لكى يحملوه على الاعتراف باشتغاله باللهو ، وسألوه عن سبب انشغاله بهذه القطعة من الورق ، وفى الحال جمع شتات أمره ، وقال : " كنت أفكر فى أساس منارة للجامع الذى أقيمه بأسلوب جديد لا يشبه المنارات الأخرى ، وهى موجودة فى هذا الشكل ، واستدعى المعمارى فى الحال ، وأمر ببناء المنارة على هذا النحو الذى يبدو فى الرسم .

متحف الآثار الإسلامية والعربية

ويقع متحف الآثار العربية ودار الكتب الخديوية داخل إدارة واحدة ؛ حيث يوجد متحف الآثار الإسلامية فى الدور الأرضى كله ، والقاعة الموجودة بالدور العلوى خصصت لإدارة بنيت مؤخراً على الطراز المعمارى المصرى ، وهى تواجه تماماً إدارة محافظة القاهرة التى يطلق عليها اسم المحافظة بشارع محمد على .

تُعرض جميع أنواع الخطوط الإسلامية التى تنتسب لكل العصور ، وصنفت فى خزانات العرض المقامة والموضوعة مائلة بدرجة ٤٥ درجة فوق مناضد موضوعة طولياً فى المنتصف ، وهى مقامة بشكل منتظم جداً فى مجمع النفائس ، وهو عبارة عن قاعة واحدة فحسب ، والموجودة فى الدور العلوى .

ومما يلفت الأنظار للوهلة الأولى الضخامة غير العادية والخارقة للعادة للخطوط التى كتبت بها القرآن الكريم ، والمنتسبة إلى الملوك الشراكسة والمماليك . وعلى الرغم من أن هذا القرآن المفسَّر والمذهب والمزخرف بدرجة فائقة ، والذى يصل طوله ٦٨ سنتيمتراً ، وكتب بعضه بالخط الذهبى بالكامل ، وهو يحتل الدرجة الثانية من حيث حسن الخط ، فإن قيمته المادية عظيمة فضلاً عما يحظى به من قيمة معنوية أساساً ؛ فهو ينسب إلى شخصيات تاريخية ، ونظراً للاهتمام بزخرفته ؛ فهو جدير بأن يحظى بعظيم الاهتمام والمشاهدة .

كانت الخطوط الإسلامية المتنوعة المنحوتة قد عرضت ، ووضعت الصور المناسبة أيضاً على الأوانى الخزفية وحتى المنحوتة على الحجر ، خلال العصور الإسلامية الأولى ، وكذلك الصور المطبوعة المستنسخة من القرآن الكريم المحفوظ فى مكتبة "بتروسبورج" العامة ، بينما كتبت النسخة الأصلية على جلد غزال بالخط الكوفى بخط

الأيدى الشريفة لسيدنا عثمان رضى الله عنه ، وعرضت الخطوط الإسلامية المتنوعة المكتوبة على ورق البردى وجلد الغزال وقطع القماش والعظم ، والمنتسبة إلى القرن الأول الهجرى .

إن أسلوب الصنعة الفنية الذى يجذب الأنظار فى تذهيب إحدى نسخ القرآن الكريم وتلوينها ، والمكتوبة بخط مقروء واضح للغاية فى وقت تحول الخط الكوفى إلى الخط العربى ، كان على غرار زخرفة مشهورة ومعروفة باسم " سراى الحمراء " التى رأينا صورها .

قمنا بمشاهدة عدد من المصاحف القرآنية الشريفة المكتوبة بخط رائع للغاية فى قطعة صغيرة بدرجة يمنع معها تحريكها ، وهى نسخة من القرآن الكريم المكتوبة فى الأندلس . وفى النهاية احتلت تلك النسخة من القرآن ـ العظيم الشأن الذى يتبوأ مكانة من التعظيم والتبجيل ـ وضعًا مرموقًا لدى أنظار الزوار ، وهى موضوعة فى خزانة عرض خاصة أطلق عليها اسم الخط التركى ، وهى مكتوبة فى " دار سعادة ".

ويتضح بعد مشاهدتها جميعًا أنه لم يكن هناك من يعتنى بحسن الخط سوى الأتراك والإيرانيين ، كما يمكن الاعتراف بأنه لم يوجد من بين الخطوط الإسلامية خط يتفوق على الخطوط التركية والإيرانية . توجد فى قسم الخطوط الإيرانية آثار قيمة تمتاز بجمال الخط . رأيت فى كتاب فارسى صوراً تضاهى فى مهارتها براعة يد الرسام الإيرانى " مانى " الذى يعد أعظم أستاذ فى فن الرسم عند الإيرانيين ، بل ويتفوق على " روفائيل " المشهور .

وإذا دققنا النظر فى هذا العمل من وجهة النظر الفنية ، وجدنا أنه لا يعد رسمًا طبيعيًا ، على الرغم من أنه يعتبر عملاً فنيًا بدرجة يضاهى فى دقته صناعة عمل الميناء الدقيق والرقيق للغاية . ومن الطبيعى أن يعد من أقيم الآثار طبقًا للعصر الذى ظهر فيه ، والبلد الذى ظهر به والقيمة التى يمثلها فى ذلك الإقليم، ولا مفر من هذا ! وتعد مجموعة المسكوكات التى كانت متداولة فى مصر والمعروضة فى أحد خزانات العرض ، من الأشياء القيمة من وجهة نظر الخبراء .

وفى خزانات عرض أخرى وضعت بعض الآثار النادرة ، وعرضت نماذج لأصول التجليد المستعمل عند المسلمين ، ويعد أفضل مرشد لتطور فن التجليد قديماً الذى تطور تطوراً كبيراً ، وتوجد بكثرة نماذج مختلفة أجمل منها فى المتحف العثمانى فى إستانبول .

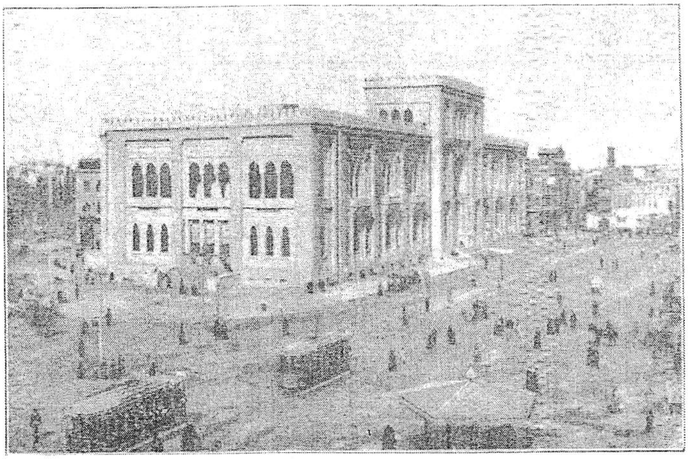
كانت الصور المطلية بالزيت والمصنوعة بالحجم الطبيعى للخديوى محمد على والى ولاية مصر وإبراهيم باشا وإسماعيل وتوفيق والخديوى اللاحق عباس باشا ، والمعلقة على مساحة كبيرة من الحوائط الأربعة لهذا الصالون والمحلاة بإطارات فخمة ، والستائر المصنوعة من الجوخ الأخضر المسدلة على النوافذ الضخمة للغاية ، والمشمع المفروش على الأرض ، قد أكملت تزيين القاعة وفرشها .

لم تكن أجرة الدخول تشمل دخول هذه الإدارة ودار كتب الخديوى . كان مدخل الدور الأرضى لمتحف الآثار الإسلامية منفصلاً ، ويتكون من ثلاث أو أربع قاعات ضخمة متصلة بعضها ببعض ، ويتم الدخول إلى هذه الإدارة بأجرة دخول ، وتبلغ خمسة قروش ، وتشمل محتوياتها المرات والمنبر والقباء ، وهى من الآثار الإسلامية ، والمشربية على شكل بالكون ، والمصنوعات الخشبية مثل النوافذ والأقفاص والأوانى النحاسية والأدوات المنزلية والأسلحة المصنوعة من الحديد مثل السيف والرمح والخنجر .

يوجد كثير من التحف والمنمنمات وكثير من الأوانى الزجاجية ومن المشغولات الإسلامية النفيسة والقيمة وقناديل الجامع والخطوط المنحوتة على الأحجار والقبور التى تعود إلى بعض المماليك والخلفاء . وتتكون الآثار الجديدة التى أهداها أرباب الخير ، وقطع المنسوجات الكثيرة فى هذا القسم من المتحف ، من كتابات مرمرية عرضت ونسقت تنسيقًا لائقًا. وللأسف لا يمكن أن نلمس جمال الخط فى هذه الخطوط سواءً فى الآثار الإسلامية أو العربية القديم منها والحديث .

* * *

دار الكتب الخديوية



صورة رقم (٣٣)
متحف الآثار الإسلامية – دار الكتب الخديوية

تقع دار الكتب الخديوية داخل متحف الآثار الإسلامية ، وهى عبارة عن سبع أو ثمانى حجرات اتخذت مخزنًا للكتب ، وقاعة اطلاع مضيئة ضخمة فى الدور العلوى ، وتختص إحدى هـذه الحجرات بموظفـى دار الكتب الـذين يطلـق عليهـم اسم "أمناء المكتبة" .

قاعة الاطلاع

اصطفت المناضد طوليًا بموازاة بعضها بعضًا وعددها سبع أو ثمانى مناضد إحداها منضدة للفهارس ، ونتج عن ذلك إمكانية الجلوس عليها براحة شديدة ، ويتم الحصول على الكتاب بإخبار الموظف الموجود على طرف المنضدة الصغيرة بالقرب من

باب القاعة ، برقم الكتاب المطلوب من على منضدة الفهارس ، ويبقى الاطلاع مستمراً ، وتظل دار الكتب مفتوحةً حتى الرابعة . وتطبق فكرة بسيطة وجميلة للغاية من أجل تقديم تسهيلات لمن يريد النسخ ، وهى : عدم دخول الكتب وتسلمها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يوضع زجاج سميك فوق الكتاب الموضوع مفتوحًا داخل الصناديق البراقة السوداء ذات الحواف العالية من أجل سهولة نسخه ، ويوجه إلى الميل المطلوب .

عُلقت على طرفى قاعة الاطلاع تعليمات بعدم التحدث بصوت عالٍ فى القاعة ، وعدم البصق فوق الأرضية المفروشة بالمشمع ، ومن اللافت للنظر أن نجد هذا التنبيه بعدم البصق فى كثير من الأماكن وفى عربات الترامواى ، ولهذا يتبين من وجود هذا التنبيه فى الإدارات الرسمية ، أنه قد تم تعميم هذا الإعلان بقرار من الإدارة الصحية منذ خمس أو ست سنوات لمواجهة الأمراض المعدية مثل الدرن وغيره .

وإن توجهت إلى باب المتحف ودار الكتب المغلق دائمًا ، يظهر لك حارسه المبتسم دائمًا . وبعد أن يسلم الزائر متعلقاته مثل العصا وأشباهها ، يصعد درجات واسعة إلى ممر بهو مضاء مجهز بالرخام . ويوجد فى هذا المكان دائمًا حارس خدمة . وتفتح أبواب حجرات الموظفين الدائرية على هذا الممر .

كان قد انتصب تمثال برونزى للمرحوم الخديوى إسماعيل على رأس السلم . وكانت الممرات ودرجات السلم مضاءة بواسطة زجاج القبة الملون الذى يشبه قباب الحمام .

يوجد فى مكتبة دار الكتب الخديوية ١٥٥٧٧ كتابًا عربيًا ، و ١٨٢٥ كتابًا تركيًا ، و٥٥٣ كتابًا فارسيًا ، و ٤٨ كتابًا بلغة أهل جاوا ، و ٨٣٧٨ كتابًا فرنسيًا ، ويصل عدد الكتب الإنجليزية والإيطالية والألمانية والرومانية جميعًا ٢٦٣٨٢ كتابًا . تعد دار الكتب والمتاحف من الإدارات الرسمية التابعة لوزارة الثقافة ، وتغلق مثل باقى الإدارات الرسمية أيام الإجازات والجمع .

الحافلات الكهربائية

تكثر وسائل النقل فى مدينة القاهرة ، وتعد من وسائل النقل الممتازة للغاية . ونظراً لأن الطرق فى المدينة تلقى عناية فائقة للغاية فى الحقيقة ، فهى تقبل جميع أنواع وسائل النقل ؛ فتطوف فى شوارع المدينة ذهاباً وإياباً أنواع عربات الأحمال وعربات الأومينبوس والقوبة والفايطون والباطو واللاندو والبريك والأتوموبيلات والترام الكهربائى ، كما تسير فى داخل المدينة وخارجها العجل والجمال والحمير . يعد الترام الكهربائى من أروع وسائل النقل فى مصر ؛ بسبب سهولته وانتظام تحركه .



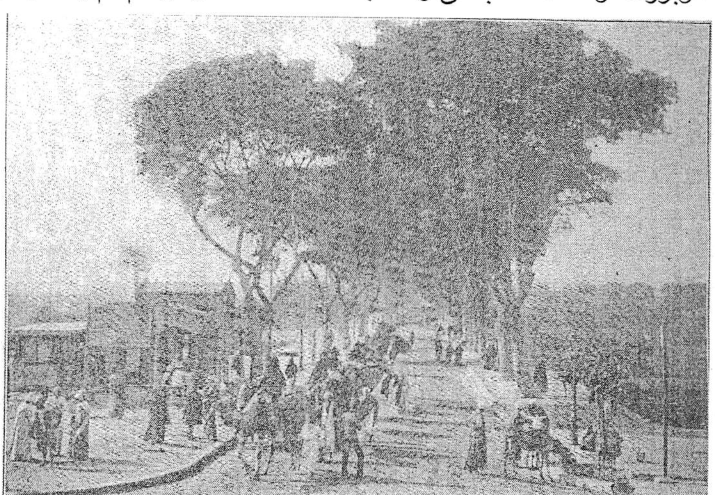
صورة رقم (٣٤)
ميدان العتبة الخضراء – مركز محطة الترام الكهربائى

تقع محطة الترام الكهربائى فى الميدان الذى يطلق عليه اسم العتبة الخضراء الكائن بوسط المدينة تماماً ، وكان قد مد خط مزدوج بدايةً من هذا المكان وحتى شوارع المدينة المختلفة وأحيائها ، وقد ربطت هذه الخطوط كل منطقة بأخرى ، وأحاطت المدينة بأشكال مختلفة مثل خيوط العنكبوت .

ونظراً لأنه قد تبين الأهمية العظيمة للمحطات فى اختيار الطريق وتحديده ، فإنهم قد أحدثوا نظاماً وسلوكاً جديرين بالاستحسان فى نقل القطارات من خط إلى آخر وفى تسيير العربات وإدارتها . تكون الخطوط الحديدية الممتدة إلى كل المناطق خطوطاً مزدوجة ؛ لأجل أن يكون إحداها مخصص للذهاب والآخر للإياب . وعلى الرغم من أنه كان قد مد خط واحد فى أماكن قليلة جداً - التى لا يمكن أن يمد فيها خطوط مزدوجة - فإنه كان من المؤكد فى النهاية سير العربات التى تتحرك على هذه الخطوط وإدارتها فى كل ناحية بلا مبالغة بفاصل خمس دقائق .

محطات الوقوف

كانت قد انتصبت أعمدة حديدية فى أماكن متفرقة على طول الخط ، وفوق أماكن مرتفعة ، وبرزت لوحات كتب فى وسطها " المحطة " ، ومن ثم لم يتعرض الركاب



صورة رقم (٣٥)

شارع كوبرى إمبابة فى الجزيرة - محطة ترام الأهرام

للانتظار فى أية محطة أكثر من خمس دقائق فى نهاية الأمر . ولم يكن هناك خوف من حدوث خطأ فى ركوب أية عربة سهواً ؛ حيث كتب على الترام المنطقة المتجه إليها ، وكذلك وجدت إشارات ذات ألوان متعددة .

وعلى الرغم من أن العربات التى تسير وتسافر وفقًا لأهمية المناطق التى تتجه إليها ، وهى مكونة من عربة واحدة تحوى الدرجة الثانية فحسب ، أو عربتين منفصلتين إحداهما للدرجة الأولى والأخرى للدرجة الثانية ، فإنه يوجد بها (سواءً بالدرجة الأولى أو الثانية) موقع مخصص للسيدات كتب عليه " للحريم " ، وهو مخصص بشكل يمكن أن تجلس عليه أربع سيدات فى الدرجة الأولى الممتازة .

ويوجد بابان مفتوحان على جانبى العربات من أجل الهبوط منها ، وتوجد بها خمسة أو ستة صفوف يسع كل صف منها أربعة أشخاص .

تتميز الدرجات الأولى غالبًا بالأسِرَّة الحديدية المفروشة بعضها بالخيزران وبعضها بالمشمع التقليدى المراكشى ، وهى مريحة للغاية . أما من ناحية النظافة ، فقد تم دهان العربات من الخارج وتلميعها بلون الجوز ، وتضاء بالكهرباء نظراً لأنها تستمر فى العمل حتى الساعة الثانية ليلاً ، وتضم بداخلها قاعة لطيفة بشكل عام . ومما يلفت دقة نظر كل مسافر بشكل لاإرادى جملة مكتوبة باللغة العربية معناها " إذا أردت النزول فاطلب من الكمسارى توقيف القطار " ، والتى حررت خلف كل صف أمامى بسبب أن الصفوف الخلفية المذكورة تتحرك طبقًا لتحرك وسير القطارات ناحية الجهتين .

تتكون عربات الحافلات الكهربائية الخاصة بالأهرام من عربتين إحداها ذات درجة أولى ، والأخرى درجة ثانية . تبلغ أجرة الدرجة الثانية بداخل المدينة خمسة مليمات – أى عشرين بارة (نصف فضية) – مهما يكن اتجاهها إلى أى مكان ، والدرجة الأولى عشرة مليمات أى أربعين بارة . وتبلغ أجرة الدرجة الثانية للحافلة التى تتجه من الجيزة إلى الأهرام ، أو من المدينة إلى الأهرام عشرين مليمًا أى قرشين ، والدرجة الأولى أربعين مليمًا أى أربعة قروش .

وتوجد حافلات تتكون كذلك من عربتين وهى خاصة بمنطقة "عين شمس" التى تم تشييدها مؤخراً، والتى يطلق عليها اسم " هليوبوليس عين شمس" . ويمكن الوصول إليها فى نصف ساعة بالسير السريع جداً ، وهما عربتان تتحركان سويًا ، وتُحاط الدرجة الثانية بسياج خشبى وستارة مسدلة ، وهى مجهزة بالأثاث المصنوع من الحصير وليس الخشب – كما هو الحال فى الدرجة الثانية للحافلات الأخرى . تبلغ أجرة الدرجة الثانية لهذه العربات ١٥ مليمًا أى ستون بارة والدرجة الأولى ثلاثة قروش .

العربات

يقودها موظفان أحدهما سائق القطار والآخر كمسارى (محصل التذاكر) . وطبقًا لقوانين العمل ، فإنه ليس من المسموح للسائقين – ضمانًا للحيطة – التحدث إلى أى شخص لا بالداخل أو الخارج .

وعلى الرغم من وجود حراس معينين فى أماكن التحويلات لضمان مرور القطارات وتحويلها من خط إلى آخر ومراقبين من أجل مراقبة بعض الخطوط ، فإنه من النادر التخلص من إزعاج الركاب بواسطة المفتشين غالبًا من أجل فحص التذاكر الموجودة بأيديهم .

وتستمر الحركة والسفر بانتظام فى كل الخطوط طيلة تسع عشرة ساعة فى اليوم ، حتى ولو لم يوجد بالقطار مسافر واحد أو وجد مسافر أو اثنان فحسب ، فإنه يستمر النظام والمحافظة على السير والسفر وعدم الإخلال فى أن يتحرك قطار كل خمس دقائق .

تتحرك الحافلات الكهربائية التى تتجه إلى منطقة الأهرام التى تبعد عن المدينة بمسافة تقدر بساعة ونصف ، وهى تتجه إلى منطقة " هليوبوليس[١] التى تبعد عن

---

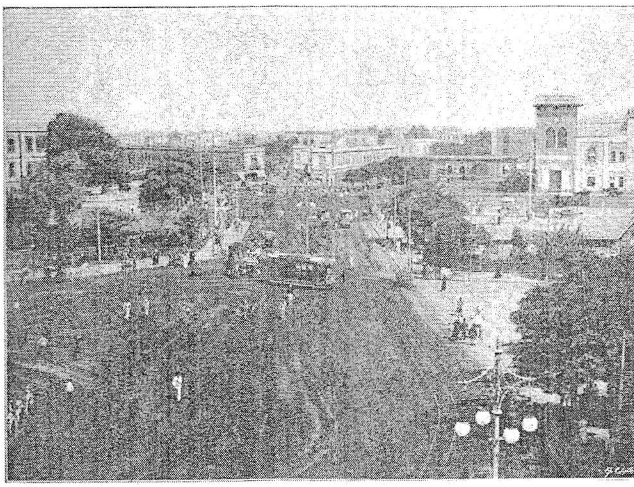
(١) يصل خط الترام الكهربائى الذى أنشىء ومُد من تحت الأرض إلى منطقة هليوبوليس هذه المرة إلى مسافة ١٢ كيلومترًا ، فى عشرة دقائق بالقطار المزين والفخم للغاية ، وبينما كانت هذه المسافة تستغرق ست دقائق فى بداية تأسيس هذا الخط ، فإن الحكومة كانت قد عدلت السرعة بسبب وقوع حريق نتيجة التحرك السريع ، وصدرت الأوامر بالوصول خلال عشر دقائق .

المدينة بمسافة ١٢ كيلومتراً ، ويستغرق الوصول إليها بالحافلة أربعين دقيقة ، وهى تتحرك كل نصف ساعة باطراد . عربات الحافلات السالفة الذكر ملونة بدهان مختلف ألوانه . ومحرر فوق العربات أرقام علامات الموقع ووجهات المناطق على لوحات مستطيلة ، وعربات هيليوبوليس ذات لون بنى فاتح كُتب عليها جهة الذهاب " مصر - عين شمس " .

وجدير بالذكر أن الإنارة الليلية داخل الترام كانت بالكهرباء ، ويستمد التيار الكهربائى - الذى يعد بمثابة القوة المحركة للعربات - من الكابلات الممتدة مثل خطوط التلغراف على امتداد الخطوط . يعتبر الأومينيبوس أحد وسائل النقل فى مصر ، ويعد مكملاً لعربات الترام ، ونظراً لسرعته فقد خصص للعامة ولذوى الدرجة الثانية . وهو يتحرك ويسير بانتظام فى المناطق التى لا يسير فيها الترام ، وهى مقيدة بثلاثة من الأحصنة أو البغال . ويقع مركز المحطة الخاص بها فى مكان محدد خارج خطوط الترام فى ميدان العتبة الخضراء التى تعد مركزاً للترام الكهربائى بصفة عامة ، وهى تتحرك فى أوقات معينة بأمر من محصل التذاكر .

الطــرق

إن أول مـا يجـذب نظر أى زائر يصل إلى القاهـرة ، هـو انتظام الطرق وجمـالهـا غير العادى . وإذا تعلق البصر بأية جهة ، فإنه يلمس نفس الانتظام . وفى الحقيقة ، فعلى الرغم من ضيق بعض الشوارع ، فإن روعة الطرق تمحو هذا العيب . ومما يلفت النظر بعد ذلك فخامة الفنادق وزخرفة المبانى التى شيدت حديثًا .

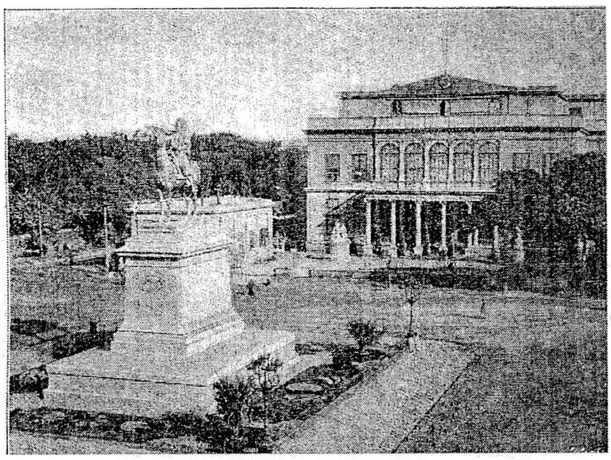


صورة رقم (٣٦)

(محطة القطارات بالقاهرة - ميدان المحطة - الترام الكهربائى)

إن من يرى مدينة القاهرة من جهات معينة ، يجدها نموذجًا رائعًا ، ويظن أنها فى مجملها كلها تحوز على هذه الروعة من الجمال ، إلا أنه عندما تشمل ساحة التجوال داخل المدينة والأماكن الشعبية ، يبدو وكأنه لا أثر للحضارة والعمران بصفة عامة ، ولا مجال للمقارنة بين حال الفخامة التى يبدو عليها ميدان الأوبرا وما حوله وشارع قصر النيل وشوارع الجزيرة ، وبين الأماكن الشعبية .

إن الشوارع الموجودة فى مدينة القاهرة ، وتلك التى شيدت وأقيمت حديثًا ، تعد جديرة حقًا أن تكون نموذجًا يحتذى به . لا يوجد فى مصر " أمانة المدينة " و" دوائر البلدية " ، وكانت وظائف البلدية تقوم بها دوائر تحوى الموظفين المكلفين بالأحوال الصحية وتنظيم المدينة وتنويرها وتنظيفها ، وهى التى يطلق عليها اسم " وزارة شئون المنفعة العامة " ، بل إنه توجد إدارة مركزية ضخمة جداً فى بولاق ، خاصة بالتعمير الدائم وإعادة رصف الطرق من جديد ، ومستلزمات البناء والنقل وسائر المستخدمين والموظفين والمفتشين أصحاب المعاش .

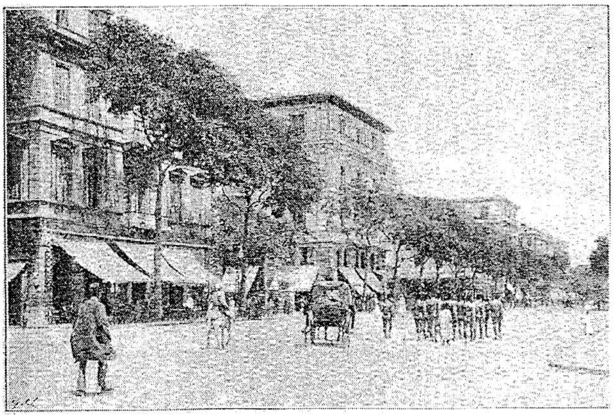


صورة رقم (٣٧)
(ميدان الأوبرا - تمثال إبراهيم باشا - حديقة الأزبكية)

توجد شعبة أخرى يطلق عليها اسم " قلم الجناين " وهى مكلفة بالمحافظة على الأشجار الموجودة فى الحدائق والشوارع ، وانتظامها وتغييرها ومعالجتها إذا لزم الأمر . تتسع شوارع المدينة الفخمة وتنتظم ، التى تم افتتاحها حديثًا والموجودة من قبل ، أما الطرق فيتضح من الأوضاع المرئية أنه قد أعدت إزاءها خطة منظمة وطُبق مسلك معين يرنو إلى التحول إلى نظام التمليك تدريجيًا ؛ من أجل توسيع الشوارع الضيقة وتزيين الحدائق العامة لكى تكون متنزهًا للأهالى ومتنفسًا لهم ، و تشييد حديقة وميدان واسع على نواصى كل أربعة أو ستة شوارع ، وإيجاد أعمدة لكل منها بصفة عامة .

وعلى الرغم من تهيئة الأسباب لهدم الأماكن والمنازل الواقعة فى الشوارع والأزقة المزمع توسيعها ، من تلقاء ذاتها ، وعدم السماح بتعمير المنازل الواقعة فى الطرق الضيقة ولا حتى بتلوينها ؛ حتى يسهل تمليكها ؛ فإنها تحتاج إلى وقت طويل جداً لكى تتهدم من تلقاء ذاتها ؛ بسبب أنها شيدت بالأحجار الحجرية بصفة عامة .

ولم يكن من الممكن إقامة مجارى عامة فى المدينة ؛ بسبب عدم وجود أى مجرى منخفض فى البلد سوى نهر النيل ، وعدم وجود أى مصدر للماء فى كل القطر المصرى يمكن أن يستعمل للشرب والرى سوى النهر المذكور .



صورة رقم (٣٨)
شارع الأوبرا

كانت الشركات المختلفة المكلفة من قبل الحكومة ، هى التى تتولى مهمة تجميع مياه المجارى من كل منزل كل ليلة ، وإفراغها على هيئة مستودع بملاط ممتزج للغاية على شكل صهريج بالدور الأرضى لكل منزل أو مسكن ، وفى ظرف نصف ساعة يتم إفراغ أضخم مستودع دون نشر أية رائحة كريهة وتسريبها إلى الخارج ، وذلك عن طريق عربات ذات مستودع ومضخة كان قد تم تعميمها من قبل الشركات المذكورة ، وتنقل محتوياتها خارج المدينة . كان عدم وجود مجارى قد أهدر عظمة المدينة وهيبتها الناتجة عن كثرة تعميرها بالزخرفة ، بل وتخل بصحتها ، ولذلك تفرغ بماكينات قوية فى مستودعات تقام خارج المدينة ، ويتم تحليلها بكثير من العمليات ، وعلاوةً على ذلك يستفاد من المواد الناتجة .

كان قد تم عقد قرض ضخم - وأقيمت محاولات جادة في تحصيل نصفه عن طريق فرض الضرائب على الشعب - من أجل إنشاء مجارى ضخمة تحت الأرض على غرار ما فعلته مدينتا باريس ولندن ، ويتم بهذا الشكل استكمال أسباب تعمير المدينة ، ولكن هذا المشروع لم يكتمل بعد(١).

وبصرف النظر عن عدم وجود المجارى العامة ، فإن طرق القاهرة وشوارعها مرصوفة بالحصباء المخلوطة بالزفت والقطران بشكل عام ، وهى تحوى أرصفة للمشاة عريضة وواسعة . توجد فى مصر محاجر للأحجار السوداء التى تفرش فى القاهرة ، وهى موجودة فى منطقة تسمى " أبو زعبل" الواقعة فى نهاية سلسلة جبال المقطم .

ويقوم بتكسير هذه الأحجار السوداء بضع مئات ممن حكم عليهم بالمؤبد والأشغال الشاقة الموجودون هناك من قبل إدارة السجن ، وتباع لشئون المنفعة العامة ؛ لاستخدامها فى رصف الشوارع ، أما الأحجار السوداء الكبيرة المفروشة فى الإسكندرية فكانت تجلب من نابولى .

تسوى الأحجار المكسورة تلك وتفرغ فى المكان المراد رصفه بعد أن يحفر بعمق نصف متر أو متر ونصف ، ثم يتم تسويته والضغط عليه وإحكامه بإسطوانات ضخمة تتحرك بالبخار ، ويضخ بالماء بغزارة شديدة ، وتدريجيًا تفرش الحصباء والرمل الناعم الدقيق ، وبعد أن تضخ بالماء ثم يضغط عليها مرةً أخرى بالإسطوانات ، ينثر فوق الشوارع القطران المخلوط بالزفت فى حجم ثلاثة أو أربعة أصابع ، وعندما يهبط القطران بعمق إصبعين ، ويتشربه الرمل والحصباء ، يفرش عليه الرمل الأصفر الدقيق للغاية والمتوافر فى مصر بكثرة ، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام يسمح بالمرور عليه والعبور فوقه .

---

(١) قُبل المشروع المذكور مؤخرًا بتكلفة أربعة ملايين جنيه ، من أجل أن تصبح مدينة القاهرة صاحبة مجرى صحى وفنى . كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قد قاموا حاليًا بتسوية ما يقرب من الألفين فدان من الأراضى الرملية الواقعة على مقربة من المخزن العام الذى شيد فى الخانكة من أجل المجارى العامة ، والتى أقيم بها مجارى خاصة لمياه الأمطار فى القاهرة منذ ستة أشهر . وكان معلومًا بأن هذا المكان سوف يقام عليه حديقة نتيجة لذلك .

كان قد ثبت بالتجربة أن الطرق المشيدة بعناية بهذا الشكل ، تظل قائمة خمسة وعشرين عامًا ، وبواسطة التجديد المستمر والتفتيش يوميًا من قبل العمال المكلفين بهذا ، فإنها تظل دائمًا جديدة باستمرار . وبعد رصف بعض الشوارع بالحصباء بواسطة القيام بالخطوات السالفة الذكر ، يتم تسويتها عن طريق الضغط عليها بالإسطوانات المتحركة بالبخار التى تنشر الحرارة مثل المكواة ، وهى تفرش الرمال ، وتخلطها بالأسفلت على شكل غبار على الأرض التى يعلوها القطران .

كان قد صرف النظر عن تعميم رصف الطرق بالحصباء المسفلتة ، والتى تشيد بهذا الشكل ؛ نظرًا للتأثير السيئ الناتج عنها . رصفت جميع شوارع مصر وميادينها وحتى فوق الكبارى بالحصباء الملساء للغاية والمخلوطة بالقطران بهذه الصورة ... وأرصفتها مريحة جدًا للسير عليها والتنقل عليها ، وذلك بسبب أنها تتكون من الأسمنت المجصص من الأسفلت أو الفحم الصينى أو بشكلها العادى مما يجعل منظر الشوارع جميلة للغاية . فالسير على الطرق المرصوفة وعدم الاصطدام بأى عائق يضفى إحساسًا بالراحة والابتهاج .

أما أسواق الخضار فهى ترش كل ليلة حسبما تقتضى الضرورة ، ولم يكن فى الإمكان رش الشوارع الأخرى ؛ لعدم توافر مواضع لصرف المياه المتبقية الناتجة عن ذلك العمل ، ومع هذا فهى نظيفة . إن الشوارع الضيقة – خاصةً مناطق مصر القديمة – غير نافذة وطرقها مرصوفة بالأحجار المكسورة الملساء ، وهى مع الأسف ضيقة للغاية وملتوية لا يخلو الغبار منها ، ومعظمها لا يوجد بها أى أثر للنظافة ؛ لعدم الاهتمام بها .

تعد شوارع الجزيرة من أكثر الجزر الآهلة بالسكان فى وسط النيل ، وقد تم افتتاحها فى الواقع فى عهد الخديوى الأسبق المرحوم " إسماعيل باشا " ، ورُصفت بشكل منظم وبعناية فائقة ، واستخدمت الأحجار الصلبة المكسورة ، وهى تعد متنزهًا ؛ فقد تآلفت أشجار المنطقة السامقة مع بعضها بعضًا ، وتعانقت مؤلفة قبة خضراء تسمو بها إلى الأفلاك .

كانت هذه الأشجار قد غرست على الجانبين منذ أربعين أو خمسين عامًا ، ولا يمكن بالطبع أن يوجد بالشوارع أى أثر للغبار ؛ لأنها ترش خمس مرات فى اليوم . وعلى الرغم من أن الطريق الذى يتجه من الجزيرة أو من مدينة الجيزة إلى الأهرام ، محفوف بالأشجار المغروسة على جانبيه فى سالف الزمان بنفس هذا الوضع ، فإنه تجرى به الكثير من أعمال الترميم والإصلاح ومحاولات للمحافظة على نظامه ، ورشه كل لحظة ، بسبب أنه طريق مرصوف بالحصباء المخلوطة بالأحجار المكسورة ، ويصل خط الترام الكهربائى الذى ينتهى إلى الأهرام - إلى هذا المتنزه وخارجه .

أما شوارع هليوبوليس فقد رُصفت بالكامل من جديد ، وتبدو المناطق المحيطة بها - وهى عبارة عن أراضى خالية - طريقًا مرصوفًا بالحصباء المخلوطة بالقطران ، وللأسف لا تتوفر بها مجارى على الإطلاق حتى يكتمل بناؤها ، وكان قد تحدد ممر كما هو مطلوب لهذا الطريق الذى يمتد حوالى اثنى عشر كيلومترًا .

ويطلق فى مصر اسم "ميدان" على الميادين ، و "شارع" على الشوارع ، و "حارة" على الأحياء ، و" عطفة " على الشوارع المسدودة ، و" الزقاق " على الشوارع . وكانت تعلق اللوحات الحديدية على ناصية كل ركن بانتظام ، ويكتب عليها أسماء الشوارع والأزقة باللغة العربية واللاتينية بالمينا الأبيض فوق أرضية ملونة باللون الأزرق الغامق . وبشكل عام تغرس الأشجار، وتُقام الحدائق طبقًا لاتساع الميادين أيضًا ، وتوجد جزيرة صغيرة اسمها المنيل أو الروضة وسط النيل ، ولها قيمة تاريخية مهمة ؛ إذ كانت فى فترة ما المقر لحضرة السلطان " ياووز سليم"(١) ، وهى اليوم متصلة بشاطئ النيل بثلاثة كبارى : أولهم السلطان صلاح الدين ، والثانى عباس الثانى ، وأكبرهم "الجزيرة" .

---

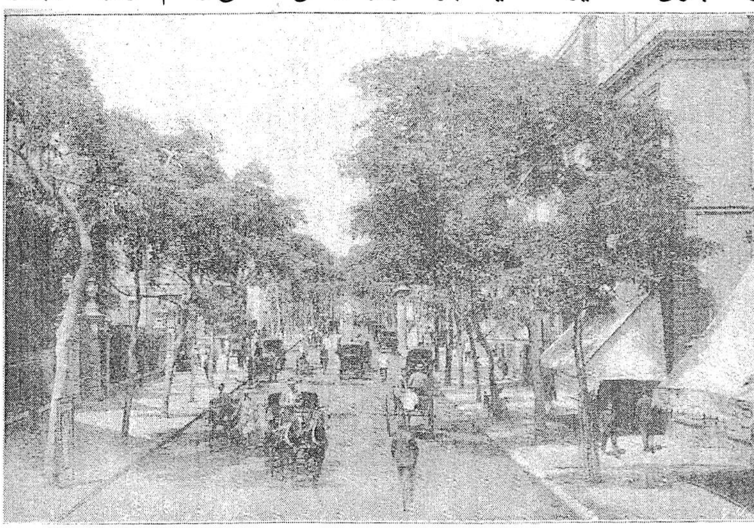
(١) كان حضرة المشار إليه قد أمر ببناء هذا المقر من الأخشاب بالقرب من قصر الغورى بالروضة ، وكان قد تخلف حتى وقت قريب جدًا ، بعض آثار من القصر السلطانى الذى أقام به فترةً من الزمن . ذكر واحد من أعز الرفقاء أن الخراب قد أصابه تمامًا منذ بضع سنين ، وأن القطعة التالية قد حُررت بالخط الهمايونى على باب ذلك القصر السلطانى ، وهى تنم عن طابع سلطانى ، وأدرجت فيه القطعة المذكورة تبركًا بها :

الملك لله من يظفر بنيل منا ... يردده قسرًا ويضمن نفسه الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا

يعد كوبرى عباس الثانى من الآثار النفيسة التى أقيمت مؤخراً ، وبالنظر إلى ارتفاع منسوب فيضان النيل ، فإن الشوارع التى تقع جهة الجيزة على الساحل المقابل للنيل والجزيرة المذكورة قد تم تعليتها ورفعها بسبعة أمتار ؛ نظراً لطبيعة الأرض وحتى يتم تعليتها لمستوى الكوبرى ، كان قد اختيرت مصارف ضخمة من أجل امتداد هذه الطرق للعديد من الكيلومترات .

الكبــارى

تجدر الإشادة بكبارى مصر التى تعلو النيل . وتوجد فى المدينة خمسة كبارى رئيسية وهى : ثلاثة فى الجزيرة، واثنان فى جزيرة الروضة . يمر خط ترام مزدوج من كبارى الروضة ، وعلى جانبيه توجد طرق خاصة للعربات ، وأخرى للمشاة . وكان يوجد من الكبارى ما لا يؤخذ عليه أجرة مرور، والتى تسمى رسم مرور الكوبرى .

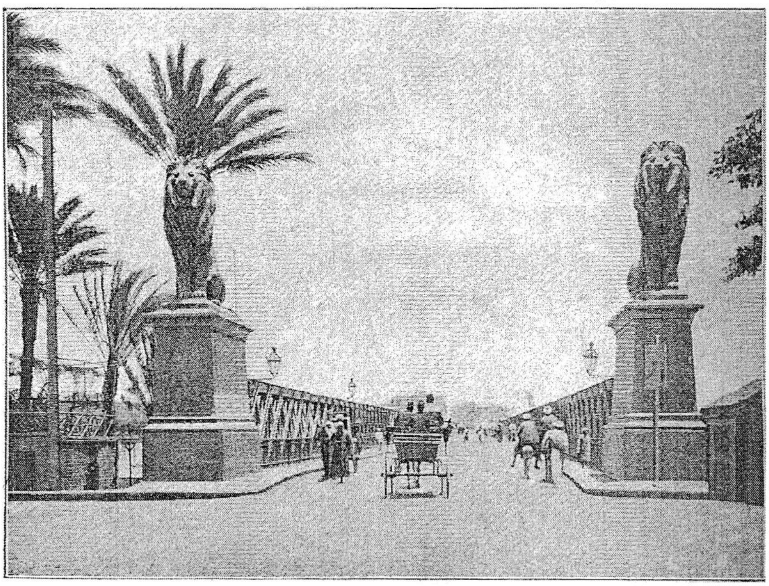


صورة رقم (٣٩)
(شارع قصر النيل)

كان كوبرى " قصر النيل " – وهو يربط مصر بالجزيرة قد بُنى وشُيِّد على دعامات أقيمت من مكان إلى آخر على نهر النيل ، وهى عبارة عن شبكة حديدية على هيئة جسور معلقة . بالإضافة إلى ذلك ، يُحاط جانباه بسياج حديدى ، وأرضيته مرصوفة بالحصباء المسفلت بدقة ونظام ، ورُصفت أرصفة المشاة – ويبلغ عرض كل

منها نصف متر - بالسماقى الملون ، ووضع على كل ناصية من نواصى الكوبرى الأربعة عدد أربعة تماثيل من الأسود المصنوعة من النحاس ، والتى تم شراء الواحد منها بسبعمائة ليرة ، وهى منتصبة فوق قوائم عالية جداً . ومن وجهة النظر الفنية ، فهذه التماثيل ضخمة ومرتفعة بدرجة لا تتناسب مع اتساع الكوبرى .

يضاء هذا الكوبرى بمصابيح غاز الفحم ، والمعلقة بشكل تقابلى كل عشرة أمتار . وبسبب كثرة المرور عليه والعبور فوقه ، فهو ضيق بدرجة لا يمكن معها استيعاب المارين والغادين عليه . وتفتح العين الواقعة جهة كوبرى قصر النيل ، وتعبر المراكب الشراعية والبواخر التى تبحر فى النيل من جهة إلى أخرى .



صورة رقم (٤٠)
(كوبرى قصر النيل)

يفتح الكوبرى بدفعه إلى وضع موازٍ للعبور ، وذلك بإدارته على جانبى المحور بواسطة قاعدة حجرية دائرية ضخمة شيدت فوق جزء من ساحل الكوبرى . وبعد إغلاق الكوبرى لا يمكن للمواضع التى تُفتح وتُغلق ، لا يمكن أن ينقسم وينفتح فى حالة

عدم مراعاة الالتزام والدقة . وعندما يتم ربط الكوبريين الآخرين الواقعين فى الجزيرة بالجزيرة من ناحية الجيزة ، ويصيران ضيقين وصغيرين ، تمر العربات والمشاة فى أحدها ، والحافلات الكهربائية فى الآخر .

أما الكوبرى الواقع فى فم الخليج والكوبرى الواقع جهة الجيزة القصير ، فهما أطول قليلاً من كوبرى " قره كوى " الواقع فى " دار سعادت " ، وهما عريضان للغاية وارتفاع سياجيهما متوسط ومزين إلى حد ما أيضًا ، وقد شيدت على رأس الكوبرى قواعد حجرية خاصة لوضع تمثال كتب عليه اسم عباس الثانى باللغة العربية والإنجليزية . وكتب على اللوحات الحديدية المثبتة والمعلقة على أعمدة الفانوس المرتكزة على رأس الكوبرى من أجل الإنارة والزينة ، كتب عليها اسم " كوبرى صلاح الدين " ويضاء كوبرى " عباس الثانى " بالمصابيح اللوكس المصفوفة ، وهى تسعة عشر مصباحًا – وقد ارتكزت بشكل تقابلى فى كل خمسة وعشرين مترًا ، وتمر فوقه الحافلة الكهربائية ذات الخط المزدوج .

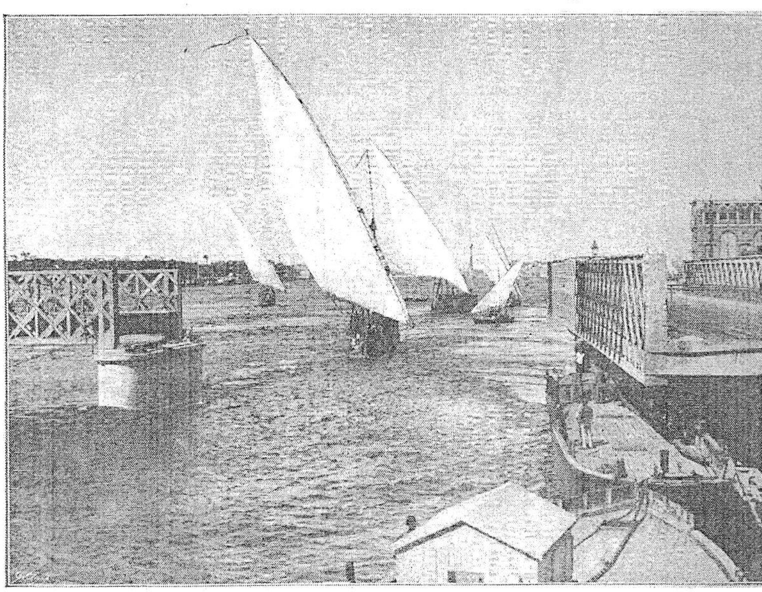
تفتح الفتحة الأولى للكوبرى الملاصق لجزيرة الروضة أيضًا نهارًا من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة والنصف نهارًا . وأرضية كبارى الروضة أيضًا مرصوفة بالحصباء المسفلت بدقة ونظام للغاية ، وأرصفتها مرصوفة باتساع ثلاثة أمتار . ويمكن أن تكون خطوط الترام الذى يمر فوق هذه الكبارى تشغل ثلثى الجزء المرصوف فقط . استغرق بناء الكبارى الثلاثة التى تربط جزيرة الروضة وتم الانتهاء منها خلال أربع سنوات ، وبلغت تكلفتها نصف مليون ليرة مصرى . كنا قد ذكرنا تقريبًا فى المبحث المعنون بـ (الطرق) أن الطرق التى تعلو ساحل الجيزة وجزيرة الروضة ، قد تكلف إنشاؤها مبالغ باهظة للغاية ؛ لأن الكوبرى قد بُنى بالارتفاع القائم عليه .

يعد الكوبرى وما حوله وما فوقه موضعًا للتنزه قبيل الغروب ، وذلك لاتساعه وارتفاعه مقارنةً بأمثاله الموجودة فى تركيا . وفى الحقيقة ، فإنه على الرغم من أن منظر النيل خلاّب من فوق الكوبرى المذكور ، فإن الزائر عندما يشاهد سير القوارب الشراعية الكبيرة والبواخر الصغيرة ، يشعر بإحساس رائع .

يزدان شاطئا النيل بالنخيل والأشجار وجزر النهر المتنوعة ، وبالمدن المشيدة بطراز خاص بذلك الإقليم والقرى ، وبالحدائق وغابات النخيل من ناحية جهة المصب ، وبالمنازل الصيفية ، ومن ناحية أخرى بالمبانى العظيمة لمدينة القاهرة الكبيرة ، وبمداخن المصانع ، وبأعمدة الشراعات للسفن الراسية جهة بولاق خاصةً . وفى النهاية فإن مشاهدة هذه المناظر تسحر الأنظار كثيراً ؛ فهى محاطة ومزينة بنهر النيل الذى يعطى إحساساً وكأنه (بوغاز إيجى) على امتداد مرمى البصر .

غازات الفحم

كانت شوارع مدينة القاهرة وأزقتها تُضاء بغاز الفحم ، وتُنار جميع الأماكن الرسمية وبعض الأماكن الخاصة بالكهرباء ، وتُضاء الجهات البعيدة جداً خارج المدينة بالمصابيح اللوكس ، أما مدينة هليوبوليس - عين الشمس ، التى أنشئت مؤخراً ، فقد كانت تُضاء بالمصابيح الكهربائية الضخمة(١) .



صورة رقم (٤١)
وضع كوبرى قصر النيل عند فتحه - عبور المراكب

(١) يُقال إن ميدان الأوبرا وميدان محطة القطارات كانت تُضاء بالمصابيح الكهربائية الضخمة جداً والمدلاة فوق أعمدة مرتفعة أيضاً .

ينتشر ضياء مصابيح غاز الفحم بشدة فى الشوارع وفى الأزقة وفى الكبارى ، بل وتُضاء أيضًا فى ساحات المنازل الخالية من السكان ، ولأن هذه المصابيح تحوى فتيلاً وزجاجًا ، ومن ثم ينعكس ضياؤها عاليًا . وهناك اختلاف طفيف بين تلك المدلاة فى شارعين كبيرين ، ومثيلتها المعلقة فى شارع الباب العالى بإستانبول ؛ نظرًا لانعكاس ضيائها فى الأجواء العليا وضعف إنارتها ، وتحتوى المصابيح فى أكمتها على معدن مطلى باللون الأبيض ومدلاة فوق عمود رباعى أو خماسى المصابيح حسب الضرورة ، فضلاً عن تزين قمم المصابيح بزينة رسم صورة الهلال ، وهى العلامة الرسمية للحكومة المصرية .

تبدو كبارى إستانبول – مثل كوبرى "دار سعادت" – ذات منظر خلاب حتى يظن أنها متألقة بأنوار المهرجانات ، على طول امتداد الكوبرى ؛ بسبب أنها مجهزة بمصابيح غاز الفحم المضاءة بأنوار براقة كثيفة للغاية ، حتى وهى فى حالتى الفتح والغلق ، بينما الكبارى فى مصر محرومة من الإنارة بغاز الفحم فى حالة فتحها أو غلقها . تصطف مصابيح غاز الفحم فى الشوارع كل خمسة وعشرين مترًا .

كانت الميادين تُضاء بالمصابيح التى تزيِّن قمتها بالهلال ، وهى ترتكز بين كل خمسة أو ستة أذرع – كما ذكرنا سابقًا – بل إنه لا يستند السلم كما هو معلوم ، إلى عامود المصابيح ، ويستند كلاب السلم إلى قائمين من القوائم الحديدية ، أو ثلاثة قوائم ترتكز على المصابيح وفى بعض الأماكن يستخدم السلم الخفيف للغاية ذى القوائم الثلاثة فى نقل ما يمكن نقله . يقوم الموظفون المختصون بتنظيف المصابيح يوميًا ؛ ففى المساء وقبل حلول الظلام يؤدى حراس المصابيح البرابرة الحفاة الأقدام وهم يرتدون زيًا موحدًا ، مهمتهم المكلفين بها ، وهم يعدون حاملين عمودًا للإشعال من أجل إتمام مهمة الإنارة قبل أن يحل الظلام .

ومن الأشياء الحسنة التى نتمنى تطبيقها لدينا النظافة مع شدة الضياء الذى يتوهج مع العلامة المميزة أعلى قمة المصابيح ، كانت وزارة الأمور النافعة تدفع لشركة الغاز ألف ليرة مصرية شهريًا من أجل إضاءة مدينة القاهرة العظمى التى يبلغ عدد المصابيح بها عدَّة آلاف .

العربات والمشاة

تسير العربات والسيارات والدراجات وعربات الأحمال وعربات اليد ، وتطوف فى الشوارع وفقًا لنظام داخلى دون أن تحدث أية عوائق خلال سيرها مع بعضها البعض فى آنٍ واحد ؛ حيث تتبع فى تحركها الجانب الأيمن من الشوارع ، ويتحكم البوليس فى حركة سير العربات وانتظامها ، ويتولى الإشراف عليها وإدارتها .

كان من المعلوم عن طريق اللوحات المكتوب عليها (السير على اليمين) التى علقت فى الشوارع الضيقة بالكبارى ، أن السير والتحرك يكون بشكل منظم باتباع الجانب الأيمن دائمًا. تخضع العربات الأجرة للتعريفة الخاصة بها ، وأكثرها من الفايطون ، وهناك أنواع أخرى مثل (القوبة واللاندو والبريك وغيرها) .

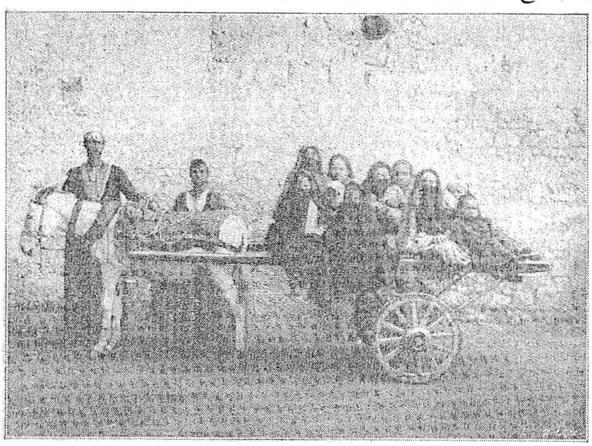
وقياسًا على سيارات الأجرة فى إستانبول ، فهى نظيفة على أية حال ، ويلبس سائقها ملابس ذات طراز واحد ، وهم يتحلون بالصفات والأخلاق التى ينبغى أن يتصف بها أى سائق سيارة ، وتحظى معاملاته المحترمة مع الزبائن بالسرور والرضاء ، ويكون دائمًا فى حالة تأهب لتلقى الأوامر وفى كامل نشاطه ، وهم يحترمون حقوق الآخرين أكثر من سائقينا .

توجد تعريفة خاصة مطبوعة على كل سيارة ، وتحسب الأجرة بالكيلومتر ، ويقال إن عداد التاكسى سوف يرفع من هذه العربات الأجرة . فعلى الرغم من أنه مقرر فى التعريفة دفع أجرة السيارة قرشين لقطع مسافة كيلومتر واحد ، وثلاثة قروش للكيلو مترين ، وأربعة قروش لثلاثة كيلومترات ، فإنه يتم دفع خمسة قروش لقطع مسافة لا تتجاوز كيلومتر واحد .علاوة على ذلك ، فإنه وقت الدفع ، يكون من الأفضل المساومة ، خاصةً وأن كثيرًا ما يتعرض الأجانب للخداع .

السـيـارات

توجد أنواع كثيرة من السيارات مثل (القوبة والفايطون ذات كرانيش أو بدون ، والبريك) وكذلك تتنوع أنظمتها المختلفة ؛ فمنها وضع زجاجة فى الجانب الأمامى تتحرك للفتح والغلق حسب الحاجة ، وذلك حمايةً من الهواء والغبار الناتج عن سرعة السير . كما توجد الأتوبيسات التى تستوعب عشرة أو خمسة عشر راكبًا ، كما يوجد منها ما هو خاص بنقل الأحمال ، وتوجد عجلة احتياطية أو بضع عجلات احتياطية فى أماكنها الخاصة بها .

وترقم السيارات مثل عربات الأجرة ، من قبل البلدية (المحافظة) ، وتحسب أجرة كل كيلومتر بخمسة قروش ؛ فالمسافة التى تستغرق نصف ساعة ، وتقطع عشرين أو خمسة وعشرين كيلومترًا ، تتطلب دفع مائة أو مائة وخمسين قرشًا ، وتوجد فى كل عربة أجهزة عدادات توضح الكيلومترات ، ويوضع علم أحمر صغير على فانوس السيارات التى ليس بها ركاب ، ويكتب فى منتصفها عبارة (خالى **Liber**) وكثيرًا ما تنتشر فى شوارع المدينة ، خاصةً أفخمها وأهمها ، المحلات التى تبيع مستلزمات عربات السيارات ، وتتشابه عربات الفايطون والقوبة بمثيلاتها الموجودة هنا ، غير أن عربات الفايطون تنفتح مؤخرتها وتنغلق حسب الضرورة على شكل ستارة .



صورة رقم (٤٢)

السيدات القرويات على العربة "الكارو"

تعد عربات الأحمال التى يطلق عليها اسم (عربات الكارو) إحدى وسائل النقل ، وأغلبها بعجلتين . وتُحمَّل العربات التى يجرها حمار أو بغل بثمانى أو عشر نساء قرويات حافيات الأقدام ، ومزينات كعوبهن بحلقات ، ومكشوفات الوجوه والصدور ، وهن يحتضن أطفالهن فى صدورهن ، ومعهن سائق العربة . وهن يذهبن ويغدون فى سرور من القرية إلى المدينة ، ومن المدينة إلى القرية فى المساء. وتنقل السلع والغذاء ، أو ينقل قصب السكر إما بعربات الأحمال ذات عجلتين أو أربع عجلات ، أو بالحمير أو الجمال .

وبالنظر إلى أنواع عربات الأحمال ، فهى نوعان طبقًا لطول العجلات ؛ فهى إما قصيرة أو عالية جدًا ، فضلاً عن أن العجلات القصيرة يوجد منها نوعان ؛ فهى بعجلتين أو أربع عجلات . وتستخدم العربات ذات العجلات العالية فى نقل مستلزمات البناء ، وبعضها يستخدم فى أعمال البلدية والنظافة . وهى أنواع ، فمنها ما هو بغطاء أو بدون غطاء . وتصنع عربات الماء الخاصة برى الشوارع ، من الصاج ، وهى على شكل إسطوانة ملونة باللون الأصفر بلون التراب ، ويقودها سائق وبغلان .

السائق

يقود بيديه الحيوانات ، ويرش الشوارع بسهولة وبالوجه المأمول ، ناثرًا الماء من الجانب الأيسر أو الأيمن أو من الجانبين حسب الضرورة بواسطة المزلاج الذى يوطده تحت قدميه ، وفى النهاية تُملأ العربة بالرجوع إلى أحد صنابير الشركة الواقعة على مقربة منها ، وترش الشوارع خلال النهار خمس مرات ، وترش ليلاً أيضًا .

تتبع الإدارة التى تؤدى مهام أمانة المدينة - والتى يطلق عليها اسم (التنظيم) - تتبع وزارة الأمور النافعة . كانت تدفع لشركة مياه المدينة ألف ليرة مصرية من أجل رش الطرق والأشجار المصفوفة على جانبى الطريق ، وكل أنواع الأشجار التابعة للبلدية .

تستخدم عربات مدهونة باللون الأصفر الفاتح ، وهى على شكل إسطوانة تشبه طراز عربات الماء - تستخدم فى نقل الغاز ، والعربات المدهونة باللون الأخضر بنفس الشكل السابق ، والمجهزة من أعلى بالمضخة ، تستعمل فى تفريغ مخازن بيت المرحاض . توجد محطات معينة خاصة لانتظار السيارات والعربات والحمير ، ولا يمكن أن تتوقف العربات مدةً طويلة فى المكان الذى يرغبه أى شخص ، ولا يمكن أن توجد من السيارات أكثر من العدد المطلوب فى مكان الانتظار المحدد .

ولهذا السبب يُكتب على لوحات تعلق فى أماكن الانتظار التى تسمح بوقوف بضع عربات أو حمير فى مواضع الانتظار ، ويكتب عليها (محل توقف لأجل ٨ عربات) أو (موقف لأجل ٦ حمير) . ولا يمكن أن يوجد فى مصر سائقو الحيوانات ، وإنما يحل مكانهم الحمير التى تعدو سريعًا (رهوان) . ويروى أنه كان يوجد حمار قدرت قيمته بثمانين جنيهًا . تتميز البغال المستخدمة فى عربات الأحمال والمياه والنظافة ، وخاصةً فى عربات النقل العسكرية وعربات المستشفيات ، بأنها متزنة جدًا وفتية ونشيطة وذات حيوية ، وكانت قد تم تربيتها أساسًا فى سورية وقبرص ، ومن هناك تُجلب وتُباع .

مهام رجال البوليس

رجال البوليس

ينتخب رجال البوليس من بين بدائل جنود العسكرية الذين يملكون قوامًا فارعًا وقدًا مناسبًا ، وهم يرتدون جاكت أسود نو أزرار مصفوفة وبنطلونًا خلال فصل الشتاء ، وعند اشتداد البرودة يرتدون نهاراً وليلاً المعطف العسكرى ذا الغطاء للرأس .

ويعلق إبزيم زناره الذى يتمنطقه فى خصره فى موضع السيف ، بشكل يبدو مغلفًا بإطار جلدى ملون وهو يحمل علامة خاصة بالبوليس ، أما من يلبس المعطف فيقوم بربط الزنار فوق المعطف . يحلق أفراد الشرطة والبوليس شعورهم يوميًا . وبسبب أنهم يرتدون الطرابيش – وهى مصبوبة فى قالب – بوضع مائل ناحية الشمال ، فإن زر الطربوش – الذى يكون متسقًا عسكريًا ومدنيًا – يظل دائمًا فى حالة اهتزاز دائم كل لحظة ناحية الشمال فقط .

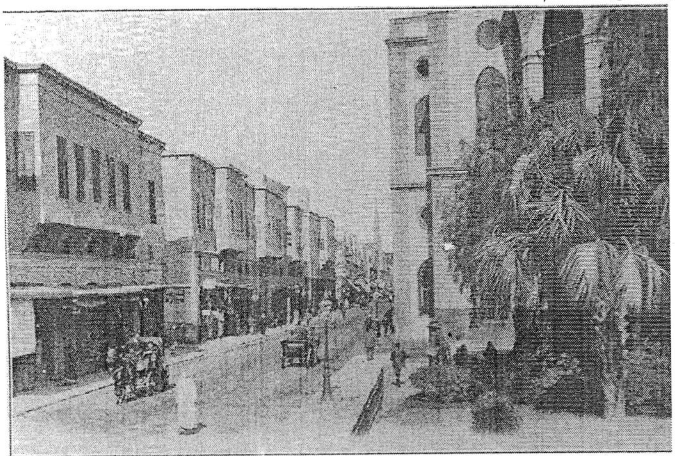
ومن مقتضيات النظام العسكرى ارتداء الحذاء العالى الساق المصبوغ ، والمظهر الخارجى النظيف والمؤتزر بالإزار . ويقوم رجل البوليس بأداء عمله بشكل جدى يتفق والوضع العسكرى وهيبته .

وهو يؤدى التحية العسكرية للضباط المرتدين الملابس الرسمية وللموظفين المدنيين المعروفين شخصيًا . وخلال أداء الوظيفة لا يبتسم ولا يقطب جبينه ، وإنما هو يأمر بتعبير مقتضب أو بإشارة ، ويتم تنفيذ أوامره بلا اعتراض .

يربط عسكرى البوليس الخفير حزامًا ذا إبزيم ، ويكتب على ذراع الصول "نوبتچى بوليس" ، ويخصص ارتداء القفاز الأبيض فى أوقات المراسم أو عند ارتداء معطف البوليس . يقف نوبتچية البوليس فى وضع مستعد لأداء مهامه المكلف بها –

فى كل شارع وعلى نواصى كل زاوية ، وعلى مسافات متناسبة فى منتصف الشوارع الكبيرة تماماً ، والأماكن المزدحمة بالناس، والتى يكثر فيها المرور والعبور ، وخاصةً أمام المحطات والفنادق ، وهم يوجدون فى كل ساعة ليلاً ونهاراً ، وهم مكلفون بالأمور الآتية : تتبع العربات والسيارات ، وسائر أنواع عربات الأحمال على يمين الطريق دائماً ، وتهدئة السرعة عند أطراف المنعطفات ، وعدم إتاحة الفرصة لوقوع أية حادثة أو واقعة عند الازدحام ، وعدم صرف الأنظار عن المشتبه فيهم .

وهم يوقفون السيارات عند الضرورة ، وييسرون السبيل لمرور المشاة الذين لا يستطيعون العبور من رصيف إلى آخر من كثرة العابرين والمارين عليه ، ويرشدون السائلين إلى الطريق . ويصغون بلطف – ولكن باهتمام – إلى أى طلب أو شكوى ، وتجرى فى الحال التحقيقات الأولية ، وينفذ بلا تردد ما هو ضرورى وفى حدود ما يسمح وما يصلح أو يتم الرد عليه .



صورة رقم (٤٣)

شارع عابدين – مركز البوليس – مركز قسم عابدين

وفى كل موضع مناسب تعلق اللوحات المدونة عليها اسم المركز والمنطقة مثل (مركز البوليس – قسم عابدين) على أبواب مخفر البوليس الذى يشيد بشكل منمق ومكلف إلى حد ما ، وجميعه مشيد بالأحجار ، ويصادف نواصيه ثلاثة طرق على أية حال ، وهو يكون على هيئة واحدة .

البوليس

ينفذ الفلاحون - والأطفال الذين لا يفقهون قولاً - أوامرهم ليس بهدوء وسكينة فحسب ، بل بتوقير جدى ؛ حيث يحافظ رجال البوليس على جديتهم دائمًا فى جميع أحوالهم وسلوكهم .

ولا توجد فى مصر إدارات بلدية مستقلة ، كما أنه لا يوجد عريف البلدية ، وبسبب أن موظفى البوليس يقومون بشكل أكثر تأثيرًا بالمهام المنوط بها شاوشية البلدية ، فإنهم يقومون بتقديم تقرير إلى المركز ومسجلين رقم أية عربة تتحرك خلاف النظام ، وحسب درجة جرم السائق الذى لا يطيع أوامر البوليس ، فإنه يمنع من مزاولة المهنة بدءًا من عدة أيام وحتى أسبوع . ويُعاقب السائقون الذين يرتكبون جرمًا أكبر بشكل آخر ؛ ومن أجل ألا يحرم من تدبير أسباب المعيشة ، فإنه يُمنع من مزاولة المهنة لمدة أسبوع . ويمنع السائقون الثملون من مزاولة المهنة ، ويحالون إلى أقرب مركز فى الحال .

وهم يشرفون على توفير الأمن العام فى الأسواق أيضًا ، وكذلك تنظيم المرور والعبور وعدم وقوف الباعة المتجولين والعربات فى الطرق . تتصل مراكز البوليس بعضها ببعض مع إدارة المحافظة بالتليفون . يكون مدير البوليس ومعظم المفتشين من الأجانب ، ويتم التوظيف فى سلك البوليس من كل ملة . ويتميز موظفو البوليس المدنيين بمهارتهم الفائقة فى التنكر والتخفى . وهناك نوع من معاونى البوليس - وهم حراس الحى - يرتدى زيًا موحدًا ، ويكون السياط فى أيديهم والقلانس على رؤوسهم ، وهم يجتمعون يوميًا فى أوقات معينة بمركز البوليس العام ، وقد أفادوا من مراقباتهم ليلاً ، ويؤدون مهامهم عند العودة إلى أقسامهم وقد تلقوا تعليمات من جديد .

دوريات سلاح الفرسان

يحل سلاح الفرسان محل سلاح المشاة وسط الشوارع فى المناطق التى يقبل فيها الناس على التنزه يومى الجمعة والأحد بكثرة ، ويظهرون مترجلين من أجل القيام بتفتيش على دوريات حراسة بوليس المشاة نهاراً أحياناً وفى معظم الأحوال ليلاً ، وهم يرتدون نفس الزى الخاص بالمشاة من ارتداء الطربوش والحلاقة والنظافة ، ولا تكون أحزمة الخرطوش طويلة ، وهى نفس الحقيبة المصنوعة من الجلد المدبوغ بلون أصفر ، وأيضًا حقيبة الظهر قصيرة بالشكل الذى سيأتى شرحه ، وهى تعلق بين الكتفين وتعلق أحزمة الخرطوش للجنود ذوى المعاطف فوق المعاطف .

وتكون أحذية الجنود مدهونة ومعقوفة ، وأحذية الضباط المعينين الذين يطلق عليهم اسم " الضابط أو الصول " مصقولة لامعة ، ويوجد بها جميعًا مهماز لامع للغاية وطويل . ولا توجد سيوف سلاح البوليس فى خصرهم ، وبسب أن الخيالة ربطوها فى أطقم السرج ؛ لذا يبدو وضع السيوف هكذا جميلاً جداً .

ولون حيوانات البوليس بصفة عامة هو اللون الرمادى . وتؤدى الخيالة عملها وهى متجولة بشكل انفرادى فى معظم الأحيان ، ومجتمعة نادراً جداً فى ثلاثة أو أربعة خيالة . وترى الخيالة الإنجليز الطوافة فى الليل فحسب فى مناطق مختلفة بالمدينة ، وهى على هيئة ثنائية من الخيالة مع الحيوانات المتأنقة للغاية ذات اللون الكستنائى ، ويلبسون وشاحاً طويلاً دائمًا ، تنحصر وظيفتهم على الإشراف على الجنود الإنجليز فحسب .

تنظيم البوليس

يجدر الانتباه بدقة إلى تشكيلات البوليس بمصر ؛ حيث يكثر السائحون والأجانب فى مصر نظرًا لموقعها الجغرافى ، وخاصةً اعتدال المناخ فى فصل الشتاء ، بالإضافة إلى أهميتها السياسية والتجارية . والحق يُقال ، فإن أمن وأمان التجوال والسياحة يتمتعان بانضباط تام . هناك ثلاثة أنواع من تشكيلات البوليس فى مصر :

أولها قسم البوليس الأجنبى ، ويطلق عليه اسم "القونستابل" ، ويتم قبول وتوظيف الأفراد من كل جنس وملة فى هذا النوع شريطة أن تتوفر لديهم شروط خاصة ، والغالبية العظمى من هذا النوع ينظمها البوليس المدنى ، وهم مكلفون بحفظ الأمن والأمان العام والمحافظة على هيبة الحكومة وعظمتها .

وتوجد أيضًا من بين وظائف عملها المخابرات لصالح الحكومة فحسب ، وهم يستخدمون بكثرة فى الأماكن التى تجمع الأجانب دائمًا مثل مدن السويس والإسماعيلية وبورسعيد والإسكندرية والقاهرة ، ولا يمكن تمييز من يرتدى زى الجندى العادى عن رجال البوليس الآخرين . يحصل قسم من جنود البوليس المتخفين والمستخدمين فى هذا النوع ، على معاش يبلغ من ٦٠٠ قرش ، ويصل إلى ١٢٠٠ قرش .

يقدر مجموع اللغات التى يتحدث بها رجال البوليس الذين يؤدون عملهم باللغات المختلفة فى إدارة بوليس مصر اليوم اثنين وأربعين لغة حتى إنه يوجد بين موظفى رجال البوليس من يتحدث باللغة اليابانية والصينية .

النوع الثانى من رجال البوليس : هم الطلبة وحاملو الشهادات من مدرسة البوليس ، فمن يحصل على شهادة المدارس الابتدائية يلتحق بمدرسة البوليس ، دارسًا ثلاث سنوات ، وخلال مدة دراسته يخصص له كل أنواع المخصصات فتدفع الحكومة له مرتبًا كل ثلاثة شهور مائة قرش ، وبعد أن يتم دراسته ويحصل على الشهادة يتم قبوله فى خدمة البوليس ، أما الأفندية الذين اجتازوا الامتحان ، والذين نقلوا من الصفوف العليا للمدارس الإعدادية والحاملين للشهادات من المدارس العليا بعد أن يستوفوا معارفهم بدرجة يمكن أن يؤدوا خلالها مهامهم الأصلية الخاصة بسلك البوليس ، وينفذوا قوانين العدل والنظام ، وخاصةً التحقيقات الأولية لأية مادة جنائية وفقًا للقانون ، فإنهم يلتحقون بصفوف القونستابل مباشرةً مع الذين اجتازوا فترة الدراسة التى تستغرق ثمانية أشهر بعد حصولهم على الشهادة ، ويطلق على هؤلاء اسم " معاون البوليس " .



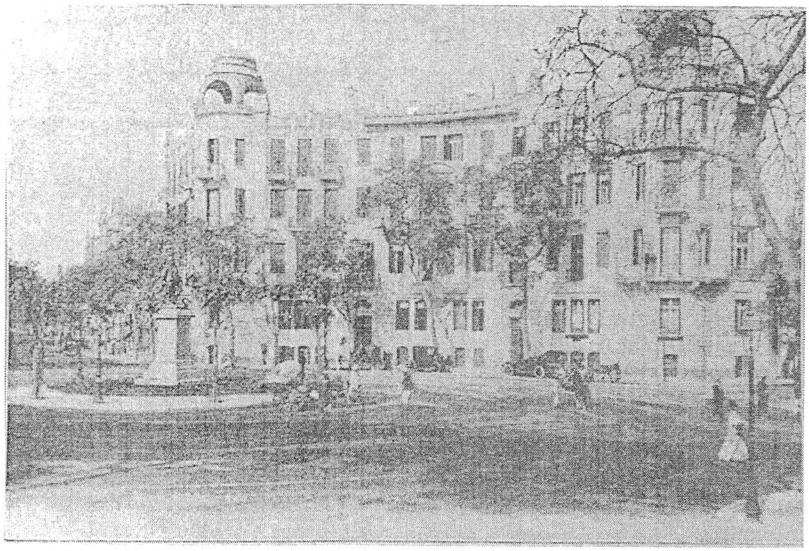
صورة رقم (٤٤)
ميدان السوارس

النوع الثالث

وهم رجال البوليس الذين يؤدون عملهم بشكل رسمى فى الشوارع ، وهؤلاء من العساكر المستبدلة التى تنال جوائز الفضيلة وحسن الأخلاق ، وتنتخبهم وزارة الحربية من بين من تقر على نزاهتهم وعفتهم ، ويشترط فيهم أن تتوفر فيهم قامة وقدٌ مناسب وطول يتجاوز ١,٧٠ سم ، وأن يكون متزوجًا . يبلغ مرتب رجال البوليس المستخدمين فى هذا النوع من ٣٠٠ قرش إلى ٦٠٠ قرش .

وقضية إجبار رجال البوليس غير المتزوجين، المنتسبين إلى هذا النوع وتزويجهم ، مردها أنه كان قد عرف بالتجربة أن هذا الإجبار يصونهم أكثر ، ويحافظ على فضائل الأخلاق ويعصم الوجدان ، وفى ظل هذا يبقى رجال البوليس معفيين بطبيعة الحال من الرقابة الطبية . ونظراً لتشدد القوانين التى يخضع لها رجال البوليس ، والتى توقع أقصى عقوبة بلا رحمة حتى لأهون الجرائم ، بل وتوجب الحرمان من الوظيفة والمرتب ، فإن ضرورة الحياة للأسرة تضمن المحافظة على العفة والاستقامة ، وهؤلاء يكلفون بالخدمة ست سنوات فى هذا النوع ، وتمد مدة خدمة من يقدرون حسن خدمته .

وبعد أن يترقى الأُنباشى والشاويش إلى معاون ومفوض - وهما تحت مسمى الرتب العسكرية لدينا مثل الملازم واليوزباشى ، إلا أن تقاعدهم يتبع نظام قواعد تقاعد الموظفين المدنيين . ويتبع أمر رجال البوليس المستخدم فى هذا النوع وانتخابهم وإدارتهم - وزارة الحربية ، وهم مكلفون بالتعليم إجبارياً .



صورة رقم (٤٥)
ميدان سليمان باشا ـ وتمثاله

وبعد هذه الأنواع الثلاثة للبوليس ، هناك صنف من البوليس يطلق عليه اسم "غفر السواحل " باللغة العربية والمعروفة فى مصر باسم " غورست غارد " ، وعلى الرغم من أنها تعنى الحراس المكلفين بمنع التهريب والمحافظة على السواحل ، فإنه يمكن أن يظهر منها قوة مسلحة دائمة خلال الاجتماع عند الضرورة طبقاً للأصول المرعية فى تشكيلاتها ، وهم مكلفون بمهام منها ضمان توفير الأمن داخل المنطقة المكلفين بها ، وعدم إتاحة الفرصة لإدخال المكيفات إلى مصر ، وهذه الكلمة تعبر عن الأشياء المهربة من كل نوع - وخاصةً الحشيش والأسلحة المكلفين بضبطها .

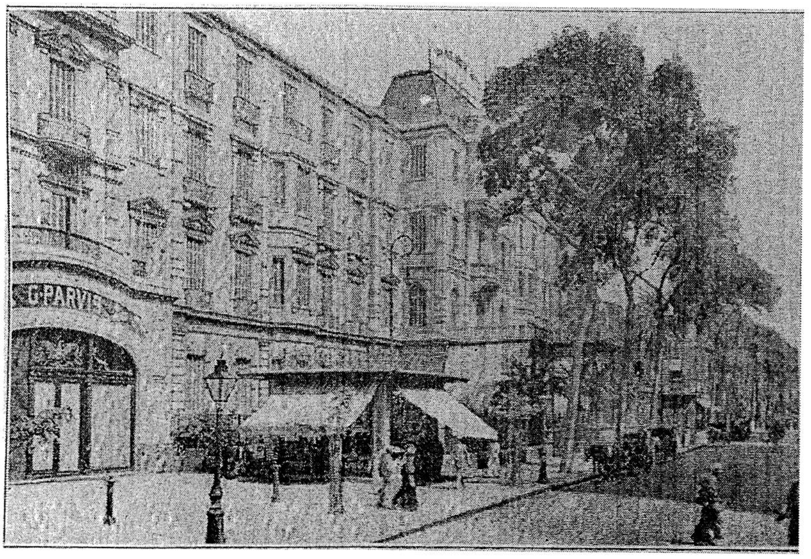
ومن مقتضيات عملهم تفتيش السواحل وتنقيبها داخل مناطق معينة .

وفضلاً عن وجود المشاة والفرسان يوجد أيضًا "فرق الهجان" ، يوكل لهذا النوع من البوليس الحفاظ برًا على ساحل البحر الأحمر وأمنه من السويس حتى سواكن ، وساحل القناة وداخل طور سيناء متتبعين البحر الأبيض عند حدود ولاية طرابلس ، ومما يؤمن المحافظة على السواحل بحرًا هو وجود سفن حربية مدرعة صغيرة يطلق عليها اسم "طوب جكر" . وهناك أيضًا قسم من البوليس مكلف بالتحرى والتقصى لمنع الرق(١) فحسب والمخالفين ، وهو ما يشكل نوعًا آخر من البوليس الذى يطلق عليه اسم غفر السواحل ، وهو يشكل النوع الخامس للتشكيلات العامة للبوليس فى مصر .

(١) لم ينحصر منع الرق على الزنجى والزنجية الذين يتم جلبهما أو إرسالهما من مدن السودان ، وإنما هى تشمل كل الأنواع ، ومن بينها قام بعض السفلة ، وهم ذوو أصول تركية - عقب إعلان الدستور فى الممالك العثمانية المحروسة - بإدخال بعض الفتيات العذارى ومعظمهن من أهالى وولايات دار السعادة والأناضول العثمانية إلى مصر بعد أن يقوموا بإحضارهن إلى دار السعادة وينتزعن من بين أحضان عائلاتهن ليصبحن أولادًا بالتبنى وخادمات ، وهم يخدعونهن بالكلام والوعود بتزويجهن بالأغنياء المحترمين وإيجاد مناصب بمرتب مغر فى مصر . وبعد الحصول على تذكرة المرور لكل منهن ، يدخلون مصر موضحين لموظفى البوليس فى الميناء بالإسكندرية بأنهن أخوتهم وبناتهم . ولم تنتبه هؤلاء الفتيات المسكينات إلى ما سوف يصيبهن من الأذى والضرر والتهديد فى المساكن المشبوهة التى تم إعدادها من قبل فى مصر، حتى يتم القبض على المخدوعات ، ويعلمن من قبل الحكومة المصرية أنه تم بيعهن بل وجعلهن أسيرات وجوارى لبعض أغنياء القصور فى المدن ، بل ولبعض المنازل القروية ، ثم تحل العقوبة عن طريق المحاكمة، ويتم تخليص الفتيات المسكينات البريئات من قيد الأسر، وتمت إعادتهن إلى أوطانهن .

الفنـــادق

تعد الفنادق فى مدينة القاهرة من الأسباب الرئيسية لتأنق المدينة وتألقها ، وهى فخمة للغاية ، ومنها ما يصنف إلى فنادق الدرجة الأولى مثـل "شفْرت" و "سميراميس" و " كونتيننتال " و " سافوى " و " الجزيرة بالاس "[1] ، ومنها ما ينتمى إلى فنادق الدرجة الثانية مثل " رويال " و" إمبريال " و " إنجلترا " و " أدن بالاس " . وبعد ذلك تنخفض مستويات الخانات وغرف الشباب ومقاهى العُزَّاب بدرجات متفاوتة .



صورة رقم (٤٦)
المنظر العام لفندق "شيفرت"

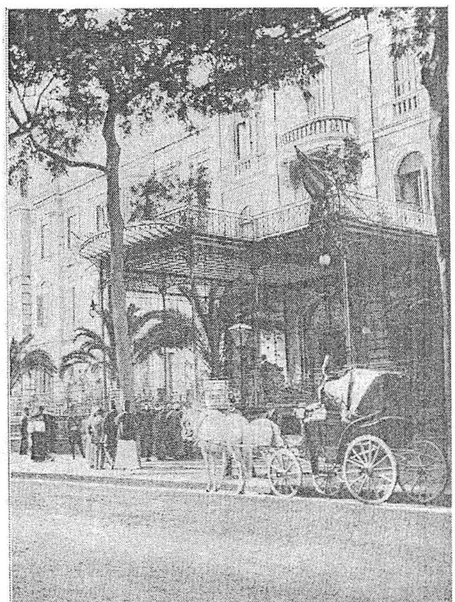
ويلاحظ مدى الاعتناء الفائق بزخرفة فنادق الدرجة الأولى وتأثيثها من أجل ضمان توفير أسباب الراحة وضروريات الفخامة والأبهة .

ولا يمكن غض الطرف عن مدى مواءمة خدمة الموظفين وتربيتهم وحتى طراز زيهم مع الفندق . ومن وسائل النقل العادية المستخدمة فى هذا النوع من الفنادق ، السيارات والأومينيبوس الخاص بالفندق ، ومن اللوازم الضرورية بداخل الفندق الإنارة بالكهرباء والموسيقى والفرق الموسيقية خلال تناول الطعام والمصاعد للصعود والهبوط وتوفر شبكات البريد والتلغراف والتليفون .

ومن الممكن أن تُعد فنادق " برا بالاس " و " سو ممر بالاس " و " توقادليان " الموجودة بإستانبول من الدرجة الثانية بالنسبة لفنادق القاهرة .

فندق شبرد

ويتصدر هذا الفندق فنادق الدرجة الأولى، ويتجلى فى كل ركن به الأسلوب المعمارى العربى الذى يعطى إحساساً بأن طراز تشييد هذا الفندق قد أنشئ فى مصر .



صورة رقم (٤٧)
مدخل فندق شبرد وتراسه

يؤدى مدخل الفندق والطابق الأرضى إلى قاعات ذات قبب وبوابات ، ويحوى ممرات ذات أعمدة . ويعتقد للوهلة الأولى أن الفندق يُنار بالقناديل ؛ بسبب أن الإضاءة الكهربائية تنتشر من المصابيح الكهربائية التى تستقر بداخل القناديل التى تظل عالقة من علب القناديل النحاسية المزخرفة على النمط القديم . وعلى الرغم من أن مصر ليست بلدًا باردًا ، فإنهم لم يغفلوا حتى تدفئة الفندق بأجهزة التدفئة الموضعية الخاصة بالشرق فى الأيام الباردة إلى حد ما .

تأثيث القاعات

ويمتاز الأثاث بالمزج بين الطراز الأوروبى والطراز الخاص بالشرق . وغطيت الوسائد والحشيات (المراتب) الناعمة الملساء بأقمشة هندية ، وفرش السجاد الشرقى ، ووضعت الأرائك والكراسى ذات الذراعين والمنحوتة بنقوش خاصة بمصر ، والصوانى النحاسية المطرزة على الطراز القديم فوق كراسى شامية بلا مساند أو أذرع مطعمة وغير مطعمة، مرصعة وغير مرصعة .

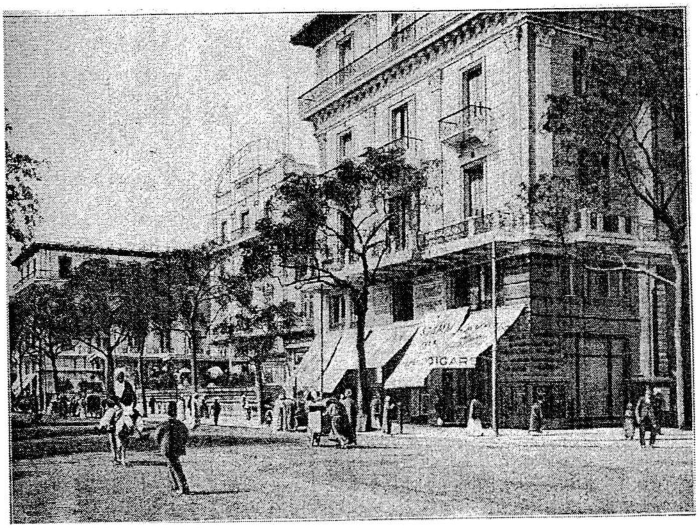
كانت توجد أوعية نحاسية ضخمة من الأثريات ، وتستخدم كزهريات بها زرع ونباتات نادرة ذات أوراق كبيرة خاصة بالأراضى الحارة . فُرش السجاد الشرقى النفيس فى كل ركن ، والكراسى والمنضدة المصنوعة من الخيزران الهندى ، واستكملت بذلك أسباب الراحة للعملاء .

يرتدى موظفو هذا الفندق زى موظفى الفنادق الأوروبية . ويضجّ تراسه بالضيوف والسائحين خاصةً بعد الظهر، وذلك لأنه يقع فى أكثر شوارع المدينة ازدحامًا . فلا يمكن انقطاع المرور والعبور من الشارع حتى منتصف الليل ، ومما يجدر الإشارة إليه هو دقة وهدوء وحمية رجل البوليس المناوب – على الرغم من أن ما قام به كان من جملة واجباته – وهو يؤدى وظيفته مدركًا لمهامه فى تنظيم المرور والعبور ؛ نظرًا لازدحام المسافرين، وفى الوقت نفسه الأوتوموبيلات والعربات وجميع وسائل النقل ، وبائعى كروت البوستال والأنتيكات وغيرها من تذكارات مصر ، وبائعى المصنوعات

المحلية مثل جميع أنواع السبح والمذبات ، وهم يبيعون بضائعهم أمام الفندق؛ حيث أصبح قسم من الشارع أمام الفندق مزدحمًا ازدحامًا شديدًا للغاية جعله يضيق بمن فيه .

وحينما احتلت فرنسا مصر ، اتخذ هذا الفندق مقرًا[1] للجنرال " كليبر " الذى خلف " نابليون بونابرت " فى القيادة .

ولئن كان طراز إنشاء فندق " كونتتينتال " فخمًا ومزخرفًا بدرجة مساوية لفندق "شبرد" ، إلا أن منظره الخارجى كان أكثر تألقًا وتراسه وما أمامه كان أكثر اتساعًا وجاذبية ، ويضج تراسه بالعملاء فى كل ساعة و خاصة بعد العصر لأنه يقع تجاه ميدان الأوبرا وتمثال إبراهيم باشا وحديقة الأزبكية .



صورة رقم (٤٨)

الشكل الخارجى لفندق كونتتينتال

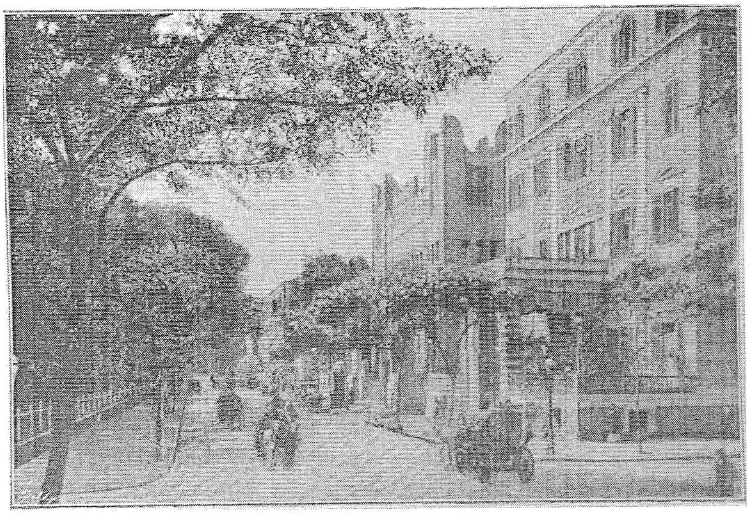
---

(١) كان قد عهد بقيادة جيش الاحتلال فى مصر بعد رحيل " بونابرت " إلى الجنرال " كليبر " . وفى زمن حكمه بناءً على أمر كان قد تلقاه بعد معركة أو معركتين ، وبناءً على عدم إمكانية استمراره فى البقاء نظرًا للضغوط التى لمسها هو شخصيًا ، وبينما أصدر قرارًا بالانسحاب من مصر ، سقط فى حب الاستيطان تمامًا ، وتخلى عن فكره مؤخرًا بسبب تغير شرط الانسحاب وبسبب إحراز نجاح خلاف المتوقع . =

ونظرًا لأن هذا الفندق قد قبل المسلك الغربى فى طراز إنشائه والأسلوب الشرقى فى أثاثاته، فقد كانت السجاجيد والزهريات وإطارات المرايا والصور مزينة بطراز الفسيفساء الخاصة بمصر . وعلى الرغم من أن طعامهم لذيذ وممتاز للغاية ، وأطقم السفرة وتجهيزاتها فخمة ، غير أن جميع السفرجية يرتدون ملابس بربرية؛ فجميعهم يرتدون زيًا موحدًا هى الملابس البربرية المتأنقة المتفقة مع الزى الوطنى زمنيًا ومكانيًا .

ومما يلفت الانتباه أن ألبستهم مكونة من طرابيش حمراء مقولبة منظمة يضعونها على رؤوسهم ، وجاكت مفتوح قصير، وثوب فضفاض طويل منتفخ ، وقميص منشى نظيف ، وصدرية مزخرفة ذات شريط مفتول غليظ ، وأحزمة حمراء مربوطة بأعلى مكان يمكن أن يصادف صدورهم ، وأحذية قصيرة حمراء مستدقة الأطراف فى أقدامهم . ومما يستحق التقدير هو الخدمات التى يقوم بها هؤلاء الخدام البرابرة السود للضيوف على السفرة برقة وظرف تفوق رقة سفرجية أوروبا ذوى المهارات الفائقة .

= وبدأ فى تقوية استحكامات بلبيس حتى لا يمكن أن يراود الأمل الجيش السلطانى فى العودة مرة أخرى . وبدأ فى إصدار أوامره بتنظيم حديقة للمسكن الذى يستقر فيه بالأزبكية بصفة دائمة . وفى الحديقة المذكورة قتله أحد طلبة جامع الأزهر ويدعى " بسليمان أفندى الحلبى " الذى تقرب إليه وهو يقدم إليه طلبًا تحت الشجرة المشهورة التى كان يستريح تحت ظلها فى معظم الأوقات . وجرح المعمارى وهو يدافع عن نفسه، وعلى الرغم من أنه كان قد هرب ، فإنه قد قبض عليه عن طريق التحريات . واستمرت عمليات تعذيبه – التى لا ترد حتى فى الخيال – بالملزمة ليدلى باعترافاته ، وفى النهاية أحرقوا ذراعه فى النار أولاً ، ثم استشهد بدقه فى الخازوق . ومن الغريب أن الموضع الذى قُتل فيه " كليبر " تحت الشجرة هو المكان الذى بنى عليه فندق شبرد اليوم .



صورة رقم (٤٩)
فندق إنجلترا - المعبد اليهودى

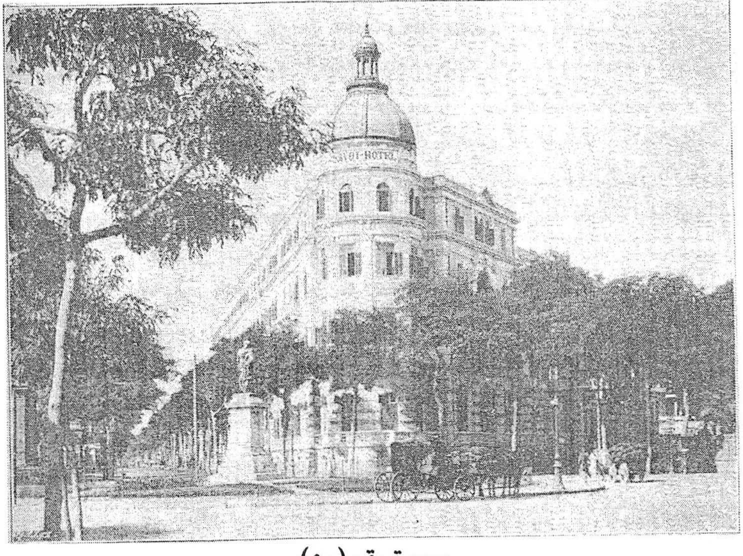
وكذلك يفوق كل التقدير والاستحسان مجموعة وأطقم المناوبين ومقدمى الطعام بنظافتهم ورقة وجوههم المحبوبة التى تشبه مخملاً أسود يشكل تضاداً مع جمال الموقع بين تناول الطعام على المائدة والنغمات المؤثرة لفرقة أوركسترا مكونة من فنانين إيطاليين أكثر ظرفاً وجمالاً .

وما يجدر الاستحسان حقيقةً هو نظافة حجرات النوم والقاعات وجمالها فى هذا الفندق ، وكذلك يوجد به شبكات للبريد والتلغراف والتليفون ، وإضاءته بالكهرباء كما فى الفنادق الأخرى . وتوجد - ضمن هذه الرفاهية - السيارات والأومينيبوس والعربات والحمالون . وينتشر الخدم البرابرة فى مصر ، وخاصةً السفرجية فى معظم القصور الفخمة ، وهم يذهبون أيضاً إلى خارج مصر بمرتب معين وباتفاق خاص .

يدرَّب الأطفال البرابرة الصغار على الخدمة ، ويتم تسليمهم إلى المنازل باتفاقية . ويقومون بأداء خدمتهم بزيهم الفضفاض والجاكت الأسود أو الأحمر القصير المفتوح ، وطرابيشهم الحمراء وقميصهم المنشى ، رؤيةً جميلة . ومن المؤكد تاريخيًا استعداد البرابرة لكل أنواع الخدمة ومن بينها أعمال السفرجية .

فندق سافوى

وهو مبنى ضخم وفخم للغاية ، يقع على ناصية ميدان يقبع فيه تمثال سليمان باشا[1]، وهو يعد مركزًا اجتماعيًا لمعظم الأجانب السائحين الأغنياء ، وتتساوى درجة تجهيزاته الداخلية ومظاهر أثاثاته مع الفنادق الأخرى .



صورة رقم (٥٠)
فندق سافوى - تمثال سليمان باشا

---

(١) سليمان باشا : هو رئيس أركان حرب جيش إبراهيم باشا الذى استولى بلا مقاومة على سورية ، وأعلن العصيان على الدولة التابع لها . وهو الضابط الفرنسى الذى تسبب فى انتصار الجيش المصرى مستفيدًا من زيادة المدفعيين فى مصر ، ومن غفلة " حافظ باشا " فى معركة نزيب ، ويعتبر أستاذًا فى فن الحرب والمشهور فى مصر باسم سليمان باشا والمعروف باللغة الفرنسية باسم (مسيو ساڤ) Seves ويقع تمثاله الذى أقامه "إسماعيل باشا" تقديرًا لذكرى خدماته السابقة فى ميدان سمى باسمه فى شارع قصر النيل . وتختصر المعلومات التاريخية المقتبسة حول هذه الأحداث على النحو التالى : قام " محمد على باشا " بالاستيلاء على سورية لتأديب " عبدالله باشا" والى إيالة صيدا ، وأمر بتحرك جيوشه التى أعدها وجهزها عند إعلان العصيان على الدولة المعظمة التابع لها فى ٢٠ أكتوبر ، وكان قد أرسل حفيده " عباس باشا " وابنه "إبراهيم باشا" الذى عينه قائدًا ،إلى يافا بحرًا مع الأسطول المصرى الذى حمل أدوات الجيش والمعدات العسكرية والذخائر الحربية مع " سليمان بك " رئيس أركان الحربية الفرنسى . وعند وصول الأسطول إلى =

....

= يافا بناءً على انسحاب الجنود المدافعين ؛ حيث واصل السير إلى حيفا مصطحبًا الجيش الذى أتى به برًا ، واتخذ الموقع المذكور أساسًا لتحركاته ، وبعد أن أخرج المعدات العسكرية واستجمعت الذخائر الحربية بدأ فى حصار قلعة عكا وتضييق الخناق عليها ، والتى تحصن بها عبد الله باشا ، ودافع عنها ٢٥٠٠ مدافع ، وبعد حصار دام من يوم ١٦ أكتوبر حتى يوم ٢٧ مايو للعام التالى ، مع ازدياد قوة حصار القلعة المذكورة وتجديدها ، والتى تم حصارها وتضييق الخناق عليها ، وحوصرت بحرًا من أجل إطلاق القنابل عليها يوميًا ، وحوصرت برًا بجيش " إبراهيم باشا " المكون من ٣٥ إلى ٤٠ ألف شخص المجهز تمامًا بالمعدات والذخائر الحربية . أخبر إبراهيم باشا " محمد على باشا " فى البداية بوقائع الأحداث " ، بأنه وفق فى الاستيلاء على القلعة التى استسلمت بناءً على طلب مدافعيها الذين انخفض عددهم إلى ٢٥٠ جنديًا ، والذى حل عليه الإرهاق بسبب انعدام الأمل فى وصول الإمدادات من أية جهة مع استمرار الحصار وامتداد صعوبة الحرب بعد استمرار الحصار من يوم ١٦ أكتوبر حتى ٢٧ مايو من العام التالى . وبسبب هذا الانتصار أطلقت المدافع فى مصر أربعة أيام وأربع ليالٍ ، وأعلن الفرح . وعلى الرغم من أنه أجريت محاولات لإشراك الأهالى الفرح والسرور ، فإنه لم يستطع أن ينال أمله بشكل قوى . وبعد أن أصدر " محمد على باشا" أوامره وموافقته على إضافة استحكامات جديدة فى الحال وفقًا لرأى " سليمان باشا" وتدبيره ، فقد وضعت المعدات والذخائر الحربية الضخمة وجمعت فيها ، وعلى الرغم من أنه أظهر انتصارات متتالية على الجيوش التى جمعت بعد تجهيزها والمكونة من فرق متعددة غير نظامية وغير مدربة وكان يقودها قواد جهلاء وهذه علامة تتجلى فيها الأقدار . كانت نتيجة المعركة أن ابتلى "إبراهيم باشا" بهزيمة إثر هزيمة فى بضع معارك مطرودًا إلى "قره " فى " جونية " التى صارت تحت إمرة قائد فرقة عسكرية قديرة تتألف من عشرة آلاف شخص ومكونة من ١٥٠٠ من المشاة الإنجليز و٣٠٠٠ من الجنود العثمانيين وكتائب من جنود البحرية التابعين لجميع السفن إلى إقليم سورية الواقع تحت حماية الجيش المصرى المكون من ٩٠ ألف شخص ، واستطاع أن يتخلص من الأسر وفر مع ثلاثة أو أربعة فرسان وتفرقت جنوده فى المعركة الأخيرة ، واستولى قسم من جنود دول الحلفاء على مدينة بيروت فى ١٠ نوفمبر ، وبينما ذهب " سليمان باشا " لإمداد " إبراهيم باشا " هو ومن معه ، ابتلى بهزيمة فى الهجوم هزيمة شديدة ، وتم الاستيلاء على الأسلحة والذخائر الحربية التى تخلفت عن المعركة ، وهرب بنفسه سرًا إلى بعلبك وحيدًا ، وحوصرت قلعة عكا بصورة عادية اليوم الأول والثانى من أكتوبر للسنة المذكورة ، وقذفت بالمدافع . وقد أصابت إحدى القذائف مخازن الذخيرة ، واستمر القذف قويًا حتى بعد ظهر اليوم الثالث . تقدم جزء من الجنود العثمانية والنمساوية وقت السحر فى اليوم الرابع بعد السيطرة على أسوار قلعة عكا بسيطرةً تامة ، وتم الاستيلاء على قلعة عكا التى كان يدافع عنها جميع الجنود المصريين والتى كانت محصنة بأمر " سليمان باشا " وموافقته على ذلك ، وأسر ثلاثة آلاف مصرى ، وسلبت ثلاثمائة من المدافع المحمولة على العربات ، والتى كانت مخزنة فى المدينة وأنواع المؤن والذخائر الحربية . بلغت المدافع التى وضعها المصريون وجمعوها فى أحجام مختلفة فوق أسوار قلعة عكا التى استردت فى المعركة خلال ثلاثة أيام ٧٢ مدفعًا ، وإلى جانب كل مدفع كانت توجد فى القلعة ذخائر حربية تكفى لحصار ستة أشهر ، =

فندق سميراميس

يقع على مقربة من كوبرى قصر النيل على شاطئ النيل ، وهو يتصل بقصر والدة الخديوى ، ويعد من القصور العظيمة التى بنيت حديثًا ، ولم يكن قد أسرف كثيرًا على الإطلاق فى أمر زخرفته ، فحوائطه من الصوماكى - وهو تقليد لأنواع من المرمر ومدهونة بإتقان كبير؛ فلا يمكن أن تفرق عن الأصل ، وأسقفه مزينة بغصون من الكارتون المزين بقشرة ذهبية باهتة، وهو ما يطلق عليه اسم المذهب القاتم تقليدًا للنحاس .

أُحكمت المصابيح الكهربائية المستخدمة للإضاءة داخل إطارات مذهبة كبيرة على شكل شُرابات ، وعلقت الإطارات المذكورة قريبة جدًا من السقف بسلاسل ذهبية .

وفى الليالى تغرق ما حولها تمامًا بالأنوار الفياضة المنتشرة من أسقف القاعات الواسعة ، وبسطت السجاجيد الشرقية القيمة والضخمة للغاية على الأرض ، واصطفت المناضد والكراسى من كل نوع والمصنوعة من الحصير الهندى ، بدقة وتنظيم رائع .

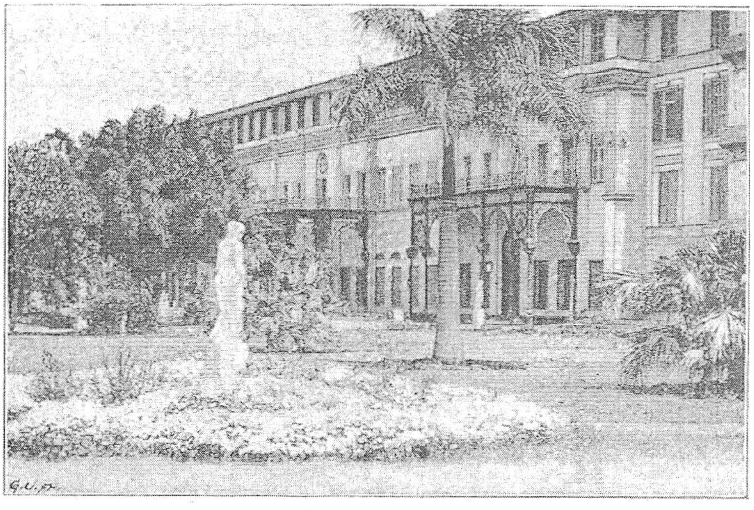
كان قد اكتملت أثاثاتها أيضًا بأطقم قيمة ونفيسة. تعد أدوات السفرة وأطقم الطعام المستخدمة فى هذا الفندق من الأشياء التى تتميز بها عن الفنادق الأخرى . ويرتدى جميع موظفيه ملابس خدم السفرجية الأوروبيين ، وهم عبارة عن أطفال ألمان لا يتجاوز عمر أكبرهم ١٨ عامًا ، وتتميز معاملاتهم للضيوف بالاحترام وفى إطار من اللطافة والرقة . تنبهر الأبصار بمنظر الفندق ليلة كل أحد؛ حيث يُضاء بالكهرباء

= وبالإضافة إلى بضعة مدافع حديثة . هكذا انتهت المعارك التى وقعت ضد الحلفاء والقوة التى قادها " إبراهيم بك" شخصيًا ، ورئاسة أركان حرب " سليمان باشا " ونحن نقتبس جزءًا من الأسطر التالية التى تذكر فى التاريخ (صحيفة ٢١٧) " أين كانت قوات الجيش المكون من ٨٠ ألف جندى تحت قيادة " إبراهيم باشا " والتى كانت تزداد قوتها بالإمدادات العسكرية المرسلة من مصر ؟ وأين صارت حينما طردت عساكر الحلفاء وتعقبت جنود مصر الذين كانوا يحمون معظم سواحل المدن ؟ هل انقطعت أصوات المدفعية المرعبين ، والذين قضى عليهم فى معركة نزيب ، فلم يرفعوا حتى مدفعًا واحدًا فى المعارك التى حدثت مع أعدائهم ؟

بشكل مسرف للغاية ، ويظل مضاءً حتى العاشرة مساءً ، ويوجد فى هذا الفندق - مثل الفنادق الأخرى - فرقة أوركسترا خاصة فى وقت تناول الطعام ، وهناك شبكة البريد وإدارة التليفون والسيارات الخاصة بالفندق والعربات والحمالون .

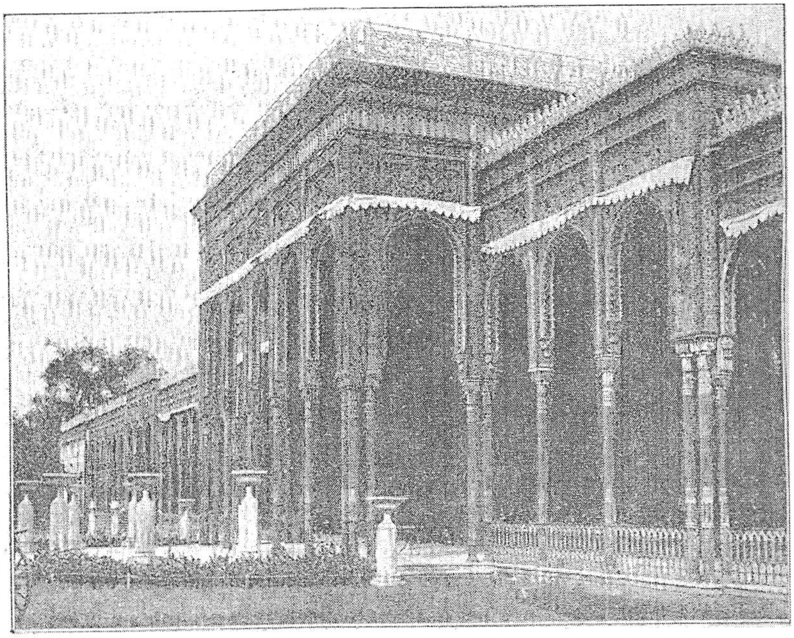
فندق الجزيرة بالاس

أقامه الخديوى " إسماعيل باشا" خصيصًا لزوجة المرحوم نابليون الإمبراطورة "أوجينى" وقد أمر بزخرفة هذا السراى خصيصًا لها . وحديقة السراى كانت قديمًا واسعة للغاية ومزينة ، وكانت مقسمة إلى إدارات ، ويعد الفندق أحد أقسامها ، و من هذه القصور المقسمة قصر الحمراء - وهو عبارة عن إدارة قاعة الضيافة قديمًا ، وقد تبقى القسم الذى أطلق عليه اسم " قصر الحمراء " ؛ بسبب أنه بنى على غرار قصر الحمراء بالأندلس . ولقد تهدمت بقية أقسامه تدريجيًا ، وبيعت مساحته والأنقاض واستفيد منها ، والقسم الكلى للحديقة المقسمة من السراى الذى يعد فندقًا اليوم ، يعد منتزهًا عامًا يسمى المغارة ، وتُدفع أجرة معينة لدخوله .



صورة رقم (٥١)
فندق الجزيرة بالاس - وحديقته

وعلى الرغم من أنه قد ظل الاعتقاد بأن الحديقة المخصصة للفندق ذات مساحة صغيرة جداً بالنظر إلى حالها السابق ، فإنه اشتهر - لجمال موقعه - بامتلاكه حديقة واسعة جذابة بالنظر إلى الفنادق الأخرى الموجودة فى مدينة القاهرة .



صورة رقم (٥٢)
قصر الحمراء ، وهو قسم من الإدارات القديمة لسراى الجزيرة

وعلى هذا النحو كان هذا السراى هو فندق الجزيرة بالاس الذى نحن بصدد تعريفه ، ونظمت حديقة الفندق الموجودة اليوم ، وقسمت بشكل يدل على حسن الذوق ، نظراً لتميز موقعه ؛ حيث يقع على طريق مفروش بالرمال الحمراء ومروج زمردى اللون وأحواض اصطناعية وتماثيل مرمرية بقيت تذكاراً منذ عصر التألق ؛ لذلك فهو يعد فندقاً ممتازاً بُنى مؤخراً بالنسبة للسائحين الأغنياء . ولا يبدو فى بناء هذا الفندق أو فى مظهره الخارجى أى أثر للبذخ والتكلف - والذى أنشئ ليكون خاصاً بقسم حرم السراى .

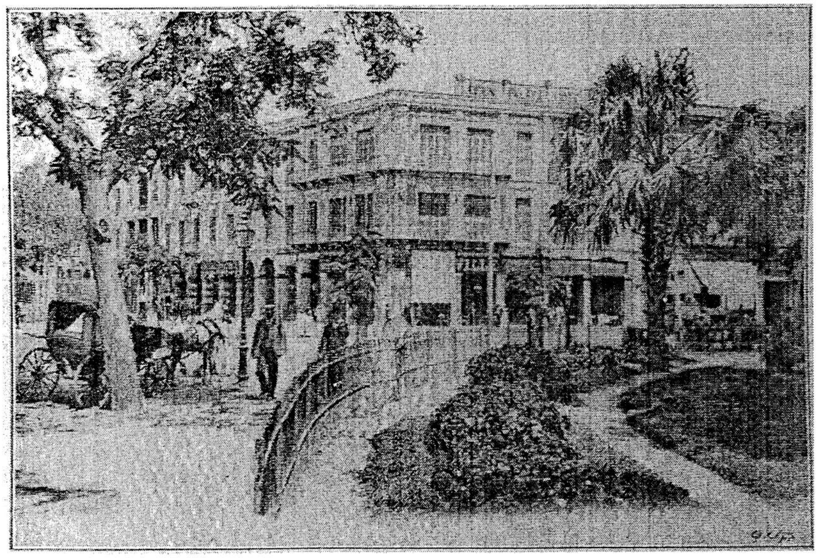
غير أن آثاره المصانة بشكل يظهر الفخـامة فى أثاثاته وزخـرفته الداخلية – ومن بينها الثريات المتبقية من المفروشات السابقة وتماثيلها والمصابيح وستائرها – تبدو فى حالتها الأصلية لم يصبها أى خلل ، كما حوفظ على الهيئة الأصلية للحجرة التى كانت مقراً لنوم الإمبراطورة " أوجينى " .

أدخلت الكهرباء – التى تعد من متطلبات الرقى العصرى – بداخل المصابيح والثريات القيمة والمصنعة ، والتى كانت موجودة قديماً فى كل ناحية بالفندق . وازدانت الفازات والزهريات الضخمة بالأزهار النادرة . والخلاصة ، أنه قد فرشت الأطقم من السجاجيد القيمة التى تضفى على الأنظار جمالاً ، وكانت قد توفرت أسباب الراحة للضيوف بكل أشكالها ، وتم الحفاظ على جمال المروج التى تنثر بهاءها صيفًا وشتاءً ، ويعد هذا إضافة يتميز بها عن باقى الفنادق الأخرى ، وتؤثر حديقتها المظللة بالأشجار المثمرة ، وكذلك موقعها أيضًا فى تلطيف الهواء ببرودة رقيقة دائمة .

ولذا فهو يستحق أن يكون مرغوبًا فيه؛ ففى أوقات معينة يتم إعداد طعام العشاء والشاى للمضيفين المقيمين بالفندق ، بالحديقة فى معظم الأحوال .

ولا يمكن أن نغفل ذكر وسائل الاتصال ووسائل النقل التى تعد من ضرورات الفندق الأساسية . وعلى الرغم من مواجهة غلاء الطعام الذى يمثل عاملاً مهمًا أكثر من إيجار فندق من فنادق الدرجة الأولى التى تتساوى مع نفس الدرجة لفندق الجزيرة بالاس هذا ، بل ومع فنادق الدرجة الثانية ، فإنه لا يمكن تخيل أن يظل بلا ضيوف فى أى وقت على الإطلاق – وخاصةً السياح الأثرياء والأجانب المحترمين الذين لا ينقطعون عنه فى أى وقت ؛ حيث لا يمكن إنكار حسن الخدمة به وفخامة طعامه . والحق يقال إن مثل هذه المؤسسات والمبانى العظيمة تعد مصدر فخار للبلد وزينتها . وينبغى أن نذكر فندق " بيراميد " الذى يطلق عليه اسم " مينا هاوس " و فندق " أدن بالاس " ويحوى مائتى غرفة ، وهو يعد من فنادق الدرجة الثانية .

ويقع فندق " أدن بالاس " فى مواجهة حديقة الأزبكية وسط المدينة ، وكان قد بنى " فندق الهرم " فى مقابلة أكبر الأهرامات " خوفو " فوق السلسلة التى شيدت عليها أهرامات الجيزة .



صورة رقم (٥٣)
فندق أدن بالاس

ويثير طراز تشييد الفندق والأدوات المستخدمة أفكاراً ترد على الخاطر وهى جديرة بالذكر ؛ حيث تتضح مدى تقليدها للآثار المصرية القديمة . يقيم معظم السائحين الذين يرغبون فى مشاهدة الأهرام عن قرب - فى هذا الفندق أحياناً ويستريح معظم الغادين والذاهبين إلى الأهرام فى الفندق أيضًا عند العودة ، ويشربون الشاى الذى يحوى أطعمة متنوعة وكثيرة مما يجعله كوجبة إفطار ، ومن هذا المكان تبرز فخامة الأهرام وعظمتها، ويتألق عنده مشهد الغروب تجاه الأهرام تألقًا رائعًا .

الموسيقى

لم تكن تحدونى أية رغبة في توجيه أى نقد حول قيمة الموسيقى ومزاياها الأدبية ، التى تعد من الفنون النفسية ، إلا أننى سوف أوجز الحديث عن الموسيقى العربية التى قمتُ بدراستها وملاحظتها ، عن طريق مشاهداتى العابرة عن حال الموسيقى فى مصر .

إن حال الموسيقى فى مصر اليوم مختلف ؛ بسبب كونها موسيقى عسكرية ومدنية . وتتكون الفرق العسكرية الموسيقية من ثلاثين أو أربعين شخصًا تقريبًا . وينتظم الزى العسكرى لأفراد الفرقة انتظامًا تامًا ، وهم يلبسون ألبسة الطبقة التى ينسبون إليها ، وبعد أن قصدتُ القاهرة ، كنت قد مررتُ ذات يوم أمام ميدان خاص بالتدريب العسكرى ، وهى ثكنة عسكرية واسعة للغاية وملحقة بكوبرى قصر النيل اليوم . وكانت تقوم بتدريب فرقة موسيقية مؤلفة من عساكر إنجليز يرتدون الكتان الأبيض . كانوا يتلقون تعليمهم بشكل مستمر لا ينقطع ، ويقفون إجباريًا بلا حراك ، وتوحى حركاتهم بالتظاهر بالحركة . كانت هذه الفرقة الموسيقية مجهزة بالآلات الموسيقية النحاسية .

كانت الفرقة الموسيقية الإنجليزية التى شاهدتها عبارة عن أربعة وعشرين جنديًا تقريبًا ، و كانوا يتمنطقون بالطبول على خصرهم تمامًا . ويتخذ أصحاب الطبول الصغيرة أماكنهم فى الصفوف على شمائل الطبالين وأيمانهم . وكان عازفو الفلوت والأبواق يشكلون عدة صفوف منتظمة أمامهم وخلفهم . كانوا فى حالة منتظمة إلى حد كبير ؛ حيث كانوا يقفون ويسيرون بإشارة واحدة بشكل يظن الناظر إليهم أنهم جسد واحد متحرك بماكينة مؤلفة من فرقة متكاملة . وكانوا يبدلون أوضاعهم ويحومون بالعكس ، فيضرب قارعو الطبول بأيديهم الممتدة لكى يحركوا أذرعهم راسمين فى كل

ضربة دوائر فى الهواء بالمقرعة التى يمسكونها بأيديهم ، وتجذب مثل هذه الحركات والأوضاع التظاهرية – خاصةً وقت تحركهم – الأنظار ، وكان انتظام حركاتهم يضفى عليهم جمالاً وروعةً .

كانت الفرق العسكرية الوطنية المصرية تعزف موسيقاها بالتناوب فى حديقة الأزبكية يوميًا فى الصيف ، وفى الشتاء يومى الأحد والجمعة . وفى احتفالات الزواج ، ونظرًا لأنه كان من المعتاد إحضار فرقة موسيقية فى الولائم والاحتفالات الخاصة والعامة ؛ فلقد أصبح فى الإمكان الاتفاق مع الفرقة الموسيقية التى يرغب فى إحضارها أى شخص ، وذلك بأن يدفع إلى القلم الخاص بنظارة الحربية الأجر المعين قانونًا ، ويمكن أن تكون الفرقة تابعة لها ، وتنتفع الحكومة من هذه الوجهة .

كان أرباب الفن الذين التحقوا بهذه الفرق الموسيقية، من الأهالى والأفراد الذين حلُّوا مكان الموسيقيين العسكريين ، قد شكلوا عددًا من الفرق الموسيقية الخاصة ، وهى فرق موسيقية مكونة من عدد صغير من الأفراد يلبسون زيًا موحدًا ، ويلبون الدعوة بأجر زهيد . وكان معظم المحلات فى شارع القلعة المعروف بشارع محمد على مقرًا لهذا النوع من الفرق ، ونظرًا لأنها مجهزة بالآلات الموسيقية وأدواتها ؛ فهى تلفت النظر من أول وهلة . وكان الموسيقيون الذين يقفون أمام البنك الخشبى لمحلاتهم ، والمترقبون لظهور المشترين ، يقضون أوقاتهم أحيانًا فى التدريب ، وأحيانًا بصحبة النارجيلة ، وتتألف آلات الفرق الموسيقية أصحاب الطبقة الثالثة من الطبول والمزمار والطبول الصغيرة المعدلة والمطورة . وعادةً ما يضطر إلى اللجوء إلى المدينة لإحضار إحدى هذه الفرق الثلاث ، وذلك حسب درجة ثراء صاحب العرس ويساره .

وبمناسبة الحديث عن الموسيقى ، فإنه ينبغى البحث عن المطربين والمغنيين . كان القطر المصرى فيما مضى مركز الكمال والعظمة فى مجال الموسيقى العربية، ولا يمكن أن يوجد فى أى مكان آخر فى بلاد العرب أمثال المطربين والمغنيين الذين ينشأون ويظهرون بها ، وما أن تظهر ثمة أغنية أو غزلية ، أو استهلال موسيقى ، حتى تنتشر فى سائر الأقطار العربية .

ويُلاحظ فى الحقيقة أنهم كانوا أصحاب مسلك خاص ؛ فلهم أسلوب فى الغناء والموسيقى ، وهو ما يتم قبوله وتعميمه أحيانًا . كان يفد إلى مصر الطلبة من أجل دراسة الموسيقى وأصول قراءتها ، ومن يُجاز كان يُشار إليه بالبنان ، بل كان يوجد منهم أرباب الكمال وأصحاب الدهاء والذكاء الخارق ، وقد نضجوا فنيًا بصورة أفضل من مطربى مصر . كانت المغنيات المصريات ـ وخاصةً النساء المسلمات الملقبات باسم العوالم ـ يغنين من خلف الستائر فى كازينوهات الطرب العامة ، وكانت تنفرد من بينهن صاحبة الصوت المميز والأداء البديع حتى عن المغنيين الرجال. أما اليوم فقد رفع الستار ، ومن المؤسف أن زالت الموسيقى العربية من القطر المصرى ، أو هى فى طريقها إلى الاضمحلال .



صورة رقم (٥٤)
الباعة المتجولون فى أحيائهم الشعبية – بائعات الخبز

كان الشيخ " سلامة " الذى يعد بحق من الفنانين المعدودين ، وهو الآن يعانى من ضياع صوته الجميل ؛ بسبب تقدمه فى السن ، ولهذا فإنه قد هبط إلى الدرجة الثانية ، من حيث القيمة والميزة ، كان هذا الشيخ قد أسس مسرحًا باللغة العربية يعرف باسمه ، كان يطبق إلى حد ما ، ما يراه مناسبًا من أسلوب فن المسرح القديم .

أما الشخص المعروف باسم " الشيخ يوسف " والموجود الآن بمصر كمغن منفرد معروف بحسن صوته وأسلوب أدائه ، فكان يرد بتعالٍ على دعوات الضيافة والحفلات القيمة جداً ، وذلك من خلال تحديد أجر له فقط بما يساوى خمسين ليرة إنجليزية ؛ من أجل غناء فاصل غنائى واحد فى الليلة ، ولا يدخل فى هذا أجر المعازف أو المنظمين ، كان هذا الشخص قد استدعى منذ أربع أو خمس سنوات إلى دار السعادة لكى يغنى ، وكانت الدعوة من قبل حضرة السيدة والدة الخديوى فى إحدى الحفلات .

ومما يؤسف له أنه لا يوجد - باستثناء هذين المطربين - مصرى ولا مغنٍّ عربى يمكن الاستماع إليه باحترام فى القطر المصرى . وعلى الرغم من أن فرق الغناء المكونة من رجلين وامرأتين مسلمتين مع آلاتهم المكونة من العود والقانون والدف ، كانت تغنى فواصل من الغناء فى المقاهى العامة ، وهى على غرار حلقات الرقص فى إستانبول ، فإنه كان من المعتاد الغناء بإضافة الدربكة إلى مجموعة الآلات خلال غنائهم . وترقص النساء العاريات جزءاً من صدورهن وجميع بطونهن وسررهن ، والداعرات بصورة مشينة تجلب العار لعالم البشر ، ويرقصن رقصات عبارة عن هز الوسط ولى الخصر فقط ، وهو ما يطلق عليه اسم "الرقص الشرقى" ، ويعلقن أذيالهن بأيديهن .

ومن المعروف أن المذكورات يدعوهن زبائن المقهى والمترددين عليه باستمرار والثمالى شاربى الحشيش للقاء خلال رقصاتهن . ومن المعروف أنهن منغمسات فى الملذات بصفاقة والمعاشرة الوالهة الوقحة فى حقيقة الأمر . ولا ريب أنه لن تشتهر الموسيقى العربية فى مصر ، ولن يشار إليها بالبنان فى القريب العاجل ، فقد انحدر مستواها إلى هذا الحد .

ومن ناحية أخرى ، توجد دار أوبرا ممتازة فائقة الروعة فى مصر ، ولا يستطيع أى شخص الذهاب إليها ومشاهدتها ، فلابد من استئجار مكان كان يُخصص للعامة ، والذى يطلق عليه اسم "شرفة المسرح" ، أو لابد من استئجار " يالوجه " " مقصورة " ، وهو استئجار جميع الأماكن عن طريق الاشتراك (بالأبونيه) من أجل ضمان رواجها .

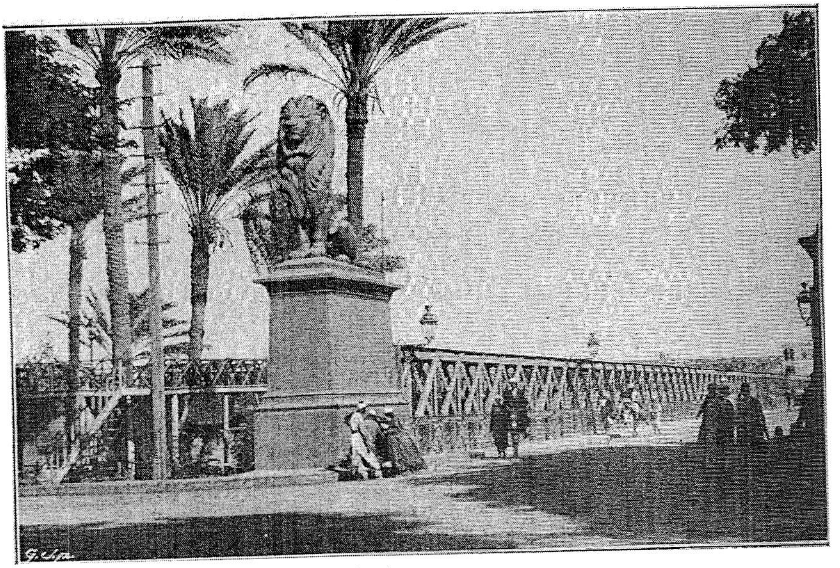
وقد حضرت مسرحية أهدتها دار أوبرا إيطالية إلى حضرة الدوق (دوقونت) ، والتى مثلت بتألق شديد . ويشاهد فى مطاعم اليابان المسرحيات الطويلة ذات الأهداف الثرية المرحة . وطبقًا للمسرح ، فإن الشاعرية التى تعبر بدرجة تغشى الأبصار نتيجة لزخرفة المسرح والألبسة التى تقتضيها المسرحية ، كانت تمثل الواجهة الفنية بشكل يجمع كل أنواع الفنون الراقية . وتعد مجموعة الأوركسترا الممتازة – التى تنساب نغماتها أثناء الطعام فى الفنادق الفخمة ومسارح الغناء التى ينبثق فيها الفن كل ليلة – من أماكن اللهو المحترمة التى يمكن الاستمتاع بقضاء وقت ممتع بها ، وذلك بسبب أنه يتم الغناء فى أماكن خاصة بعد الطعام . وغالبًا ما يكون الأجنبى هو المطلب العام فى هذا المكان .

هذه صفحات عن أحوال موسيقى فى مصر وقدرها .... وفى مصر تحل الموسيقى الغربية محل الموسيقى العربية والوطنية التى تُمحى تدريجيًا . ولا يعد هذا التهافت والرغبة العامة على الموسيقى الغربية حبًا واستحسانًا لها ، إنما هو نتيجة فقدان وجود الموسيقى العربية وزوالها .

مكاتب البريد

اشتهرت مكاتب البريد بمصر بأنها نموذج للانتظام والكمال ؛ بسبب النظام والاتجاه المتبع فى المعاملات والصدق والإخلاص فى تنظيماتها ، فاكتسبت الثقة وحسن ظن الجميع ، ونظراً لأنها كانت باعثًا على زيادة دخل الحكومة زيادة جزئية ، فهى جديرة بأن نذكر تنظيماتها الأساسية التى لا مثيل لها.

يتكون مكتب البريد – يقع فى شارع يؤدى إلى العتبة الخضراء من ميدان الأوبرا فى المدينة – من ثلاث إدارات منفصلة طبقًا لتفرعاتها وتخصصاتها ، على الرغم من أنها لا تعد من الأماكن الضخمة المتناسبة مع شهرتها المعروفة .



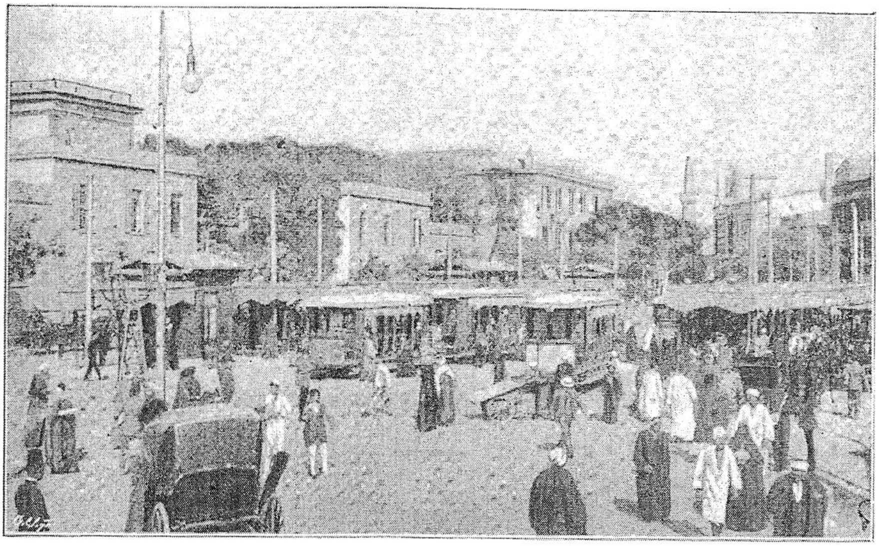
صورة رقم (٥٥)
كوبرى قصر النيل

أولاها : قسم الإدارة المركزية الذى يحتوى على شبابيك دائرية بالدور الأرضى ، وأسقفه مفتوحة ، ومحاط قسم منها بحديقة ، وهذا القسم خاص بتوزيع الأمانات والمراسلات المسجلة وغير المسجلة ، وهو يقبل الأمانات والمراسلات المسجلة الخاصة بالداخل والخارج .

كتب على أقسام الشبابيك بالأحرف الهجائية اللاتينية المرتبة ، ويرجع أصحاب المصالح إلى الشباك الذى يرتبط بدلالة هذه الأحرف بلا سؤال أو استفسار ، ويختص الدور العلوى بهذه الإدارة بموظفى الإدارة .

الإدارة الثانية : وهى عبارة عن حجرتين كبيرتين مجهزتين بصناديق البريد المرقمة جوانبها . ويحصل أولئك الذين لديهم اشتراك فى الحصول على رسائلهم من أدراجهم الخاصة بهم يومياً من مكتب البريد .

والثالثة : ويصعد إليها بالسلم ثلاث درجات ، وهو مكان مفتوح يحوى ثلاثة شبابيك فقط ، ومجهزة أرضيته بالمرمر ، ويقبل هذا المكان الرسائل العادية ، وهم يزنون الرسائل التى تثير الشك ، ومهمة موظفى الشبابيك تنحصر فى بيع طوابع البريد ووزن الرسائل . تزين الرسائل من قبل أصحابها ، وتوضع بشكل خاص فى المكان المعد بالشكل الخاص به . ويوجد فى كل فندق ضخم بالمدينة فرع للبريد ، ويقوم بكل أنواع التعامل الخاصة بمكاتب البريد . وتوجد صناديق البريد الضخمة الصنع فى أماكن مناسبة بالشوارع ، وفى كل إدارة رسمية وبيوت التجارة والمتاجر . تؤخذ الرسائل ست مرات كل ٢٤ ساعة من الصناديق بمعرفة الموظفين المختصين ، عن طريق الأكياس المغلقة المصنوعة خصيصاً للصناديق ، وتوصل إلى المركز .



صورة رقم (٥٦)
ميدان العتبة الخضراء – مقر محطة الترام الكهربائى

ويحظى استلام الرسائل بقدر كبير من العناية حتى أنه من المحال عدم إبداء الإعجاب به واستحسانه . يقوم موزعو البريد بتوزيع الرسائل وهم مستقلون الدراجة ، كما يركب أولئك المكلفون بجمع الرسائل من صناديق البريد موتوسيكل بثلاث عجلات ، وتوضع الأكياس التى تحوى الرسائل فى مكان خاص بين العجلتين الأخريين .

وبعد أن يدخل هذا الموظف كيسه الخاص به تحت صندوق الرسائل ، وبمجرد تحريك السلك الزنبرك لصندوق الرسائل بالمفتاح الموجود لديه ، ينفتح قفل الكيس وغطاء الصندوق الأسفل ، ويمتلئ الكيس مباشرة بالرسائل . وعند إدارة السلك الزنبرك بالمفتاح ينغلق قفل الكيس ويخرج من موضعه وينغلق غطاء صندوق الرسائل ، وبهذا الشكل يسلم الموظف الرسائل المأخوذة من الصندوق إلى المركز دون أن يراها ولا يدرى أيضًا كم أخذ من الرسائل . تبلغ أجرة بريد الرسائل العادية المرسلة من مصر إلى أى مكان على وجه الكرة الأرضية عشرين بارة (نصف فضية) . وتفتح مكاتب البريد من الثامنة صباحًا حتى الساعة التاسعة والنصف مساءً .

موظفو البريد

وهم لا يتمتعون بأية ميزة باستثناء مداومتهم على أداء عملهم ، وهم يرتدون زيًا موحدًا . ونظرًا لما اشتهرت به مكاتب البريد من نظام وتقسيم الجهود وانتظام الأعمال وإتمامها بدقة وعدم إمكانية التجاهل بالتردد والتكاسل ، فإنه لا يمكن أن نلمس أية قدرة خارقة سوى أنها تخضع لتفتيش دائم ورقابة مستمرة ، وينبغى التقصى عن الأسس وتطبيقاتها عمليًا من أجل الاستفادة من وضع أنظمتها الأساسية .

ومن الطبيعى ألا يزول وقار مهنتهم ويميل نحو المصالح الدونية ؛ فموظفو البريد هم الأجدر بالترقية والتدرج المقنن فى المُناصب للوصول إلى الراتب الوافى ، بل إنه فى ظل التفتيش الدائم ينكشف فى الحال من يسير فى الكسب غير المشروع .

تعد وسائل النقل وتوفير السير والسفر دائمًا بالقطارات والبواخر والسيارات من أهم الإجراءات المطبقة باهتمام بالغ فى مصر ؛ ذلك أن مكاتب البريد هى الجهات التى يكثر فيها استخدام وسائل النقل وتسهيل ضمان انتظامها . يوجد فى مكاتب البريد فى مصر صندوق اقتصادى يسمى " صندوق التوفير " ، وهو على نمط " صندوق الأمان " من أجل ضمان مصالح أفراد الشعب وخاصةً الشيوخ .

يقبل هذا الصندوق المبالغ المودعة حتى خمسة قروش ، وبفائدة تصل إلى مائة بارة لمائة قرش . وتحسب الفائدة اعتبارًا من تاريخ التسليم ، ويمكن أن يسترد أصحاب الودائع باراته بالفائدة المحسوبة حتى اللحظة التى يرغبون فيها استلام مبالغهم .

وعندما تصل حصيلة الودائع لشخص واحد خمسين ليرة ، يعاد إلى صاحبه ، ويفهم من ذلك أنه لا تقبل الودائع بأكثر من خمسين ليرة . تشترى إدارة البريد السندات المالية الفائضة بمبالغ الودائع . وعن طريق الاستفادة من الفائض والأرباح ، تضمن الفائض الذى سوف يحصل عليه سواءً أصحاب الودائع أو النفع الذى يعود عليها بالإضافة إلى ذلك .

كان رأس مال صندوق الاقتصاد فى العام السابق يبلغ أربعمائة ألف ليرة مصرية . ومن هذا الرأسمال يضمن ترفيه أحوال الأرامل والمساعدة اللائقة للأيتام واللطف بهم وللموظفين المتقاعدين والموزعين الصغار الذين ليس لديهم راتب عند التقاعد مثلاً .

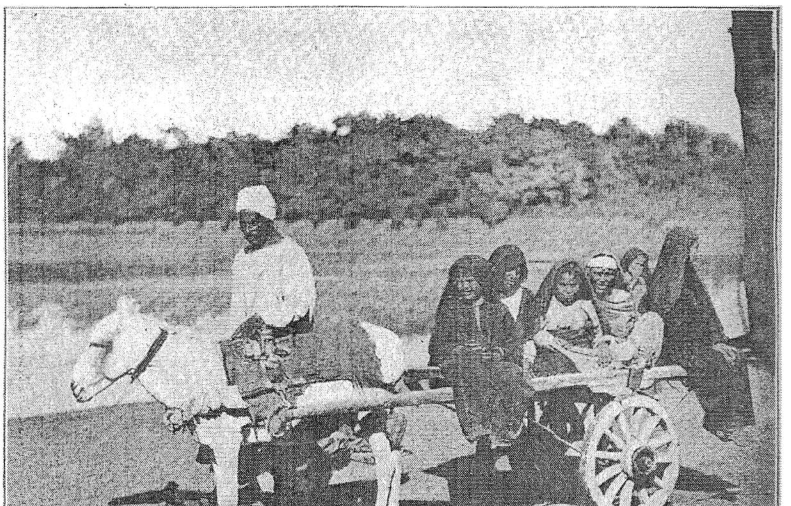
يخضع تعامل هذا الصندوق تحت مراقبة الحكومة المصرية وإشرافها . كانت إدارة البريد قد نشرت وأعلنت جزءًا من الفتوى التى استصدروها من الشيخ المرحوم "محمد عبده " مفتى مصر الأسبق ، وألصقوا صورة مطبوعة لتلك الفتوى فى الصفحة الأولى التى تقدم لأصحاب الودائع اليوم ، بسبب أن مسلمى مصر قد ابتعدوا عن الودائع لاعتقادهم أن الفائض حرام فى هذه الفترة .

وعند الوصول إلى أصغر الفروع باستثناء مكاتب البريد المركزية ، تقبل كل شعبة منها الودائع وتوفى الديون . وقد نشر وأعلن فى إحصاءات تصرح بعدد الأتراك والعرب والبربر الذين يودعون ودائعهم بكميات ، وعدد الأجانب بخلاصة حسابية تنشرها إدارة البريد كل سنة . يوجد صندوق اقتصادى أيضًا فى مكاتب بريد إنجلترا ، ويتضح من الإحصاءات التى نشرت أن رأسمالها اليوم بلغ ١٤ مليون ليرة .

الزى ، والتربية ، والمعاشات ، وبعض المعلومات العسكرية

الزى العسكرى : هناك ثلاثة أنواع لزى الجنود العسكرية الإنجليزية فى مصر :

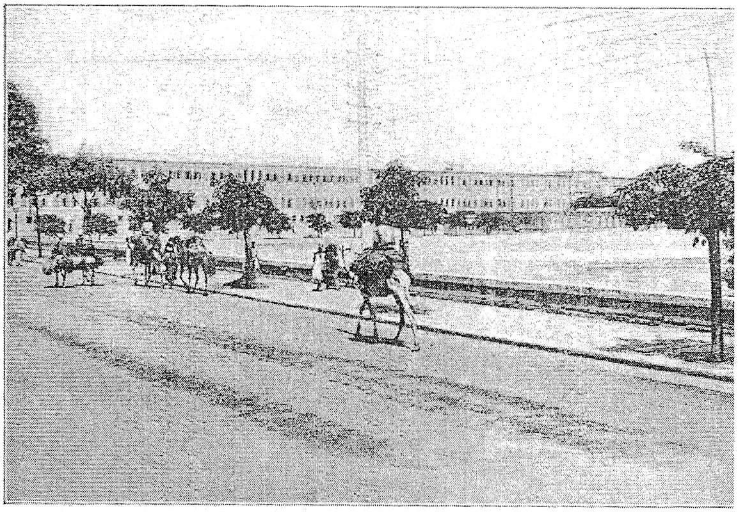
أولها : يرتدى بنطالاً ضيقًا من نسيج صوفى خشن أسود محاك به شريط ذو لون أصفر ، وسترة قصيرة بإزار أصفر فى صفٍ واحدٍ من نسيج صوفى أحمر بلون حبة الرمان . وفى الخصر يوجد حزام أبيض مصنوع من جلد الغزال ، وعلى ياقاتهم وأكتافهم علامات مميزة .



صورة رقم (٥٧)
القرويات وهن يعتلين العربة "الكارو"

وثانيها : يرتدى بنطالاً ضيقًا من القماش المخطط مثل الشطرنج ، وسترة قصيرة ذات إزار مصفوفة صفًا واحدًا وبشريط أبيض ، وهو زىٌّ مخاط ومكيف على مقاييس أجسادهم ، ولونه لاجوردى أزرق ، وله علامات مميزة فى الياقات والأكتاف مثل الآخرين ، وقلانسهم من قماش الصوف الناعم ، وهم لا يحيدون عن ارتداء هذا الزى مطلقًا .

ثالثها : وهو عبارة عن بنطال وسترة ضيقة وقصيرة ذات إزار بصف واحد . وفى فصل الصيف يكون ملبس الفرسان من الكتان الضارب إلى البياض ، وهم يرتدونه فى الأوقات العادية .



صورة رقم (٥٨)
ثكنة قصر النيل وميدان التدريب

وللجنود المصريين الوطنيين أيضًا ثلاثة أنواع من الألبسة؛ أولها : العساكر الموجودون لدى معية الخديوى ، وهؤلاء يرتدون بنطالاً من الصوف الأزرق المحلى بخطوط بيضاء مزدوجة مع سترة قصيرة محلاة بخطوط بيضاء على طراز زى قوات أرطغرل ، وهى مكيفة على مقاييس أجسادهم ، وجميعها مصنوعة من الصوف الأبيض ومقفولة من الصدر والأذرع بصفين من الأزرار ، وهى من الصوف الأزرق ، ويتمنطقون

أيضاً بحزام من الشريط الأبيض ، ويرتدون أحذية نصفية بيضاء من نوع الكالوش . ويرتدى جنود الموسيقى وقسم من العساكر الذين يلبسون هذه الألبسة البنطال الضيق والقصير . تصل لفافة الساق من الرضف إلى الكعوب وحتى زبلة الساق ، وهى من قماشٍ صوفى أسود ، وفى النهاية يعلق مهموز فى أرجلهم ، وهم يطلقون اسم " البيادة الراكبة " ، سواء على الفرسان أو المشاة .

والنوع الثانى لزى الجنود يتكون من البنطال وسترة قصيرة من الصوف الأسود على نمط زى جنود الفرسان حاملى الرماح ، ومخطط مواضع الحياكة فيها باللون الأحمر ، وياقات الصدرية والأكمام من الصوف الأحمر ، وتعلق جنود المشاة العسكرية والفرسان المهموز المنفصل ، وهو من المعدن الأبيض .

يلبس النوع الثالث بنطالاً قصيراً وجاكت ضيقاً بلا إزار ، من الكتان بلون ضارب إلى البياض، ويتشابه زى الضباط مع زى الجنود ، غير أنه يُحاك بإتقان وعناية أكثر .

أما العلامات المميزة الخاصة بالرتب ، فهى عبارة عن نجوم فوق الأكتاف . وتوجد على القوائم الأمامية بأذرع الضباط وحتى البكباشى كشكشة من الإبر يُسمى المفتول من الخيوط الحريرية السوداء . وبالنسبة لمن هم فوق رتبة البكباشى توجد كشكشات على الأذرع على نمط بزة الباشا العسكرية ، وبها شريط من خيوط فضية رقيقة حسب رتبهم .

وبصفةٍ عامة تميل طرابيش الجنود والضباط إلى ناحية الشمال ، وعلى أطرافها الشمالية جوارب منقطة ناتئة . ومن مقتضيات الأصول والنظام لدى الجنود أن تُصبَّ طرابيشهم فى قالب، وأن تُحلْق أذقانهم وأن تُمسح أحذيتهم، و الظهور بأعلى الرأس فى غاية النظافة .

الضباط :

على الرغم من أن السيف يتغمد حافة المقبض الفولاذية ، وهو على طراز نوع من السيوف الذى يسمى " مج" ، فإن تعليق سيف الضباط يقتصر فقط عند تأدية وظيفة رسمية ، أو خلال فترة التعليم .

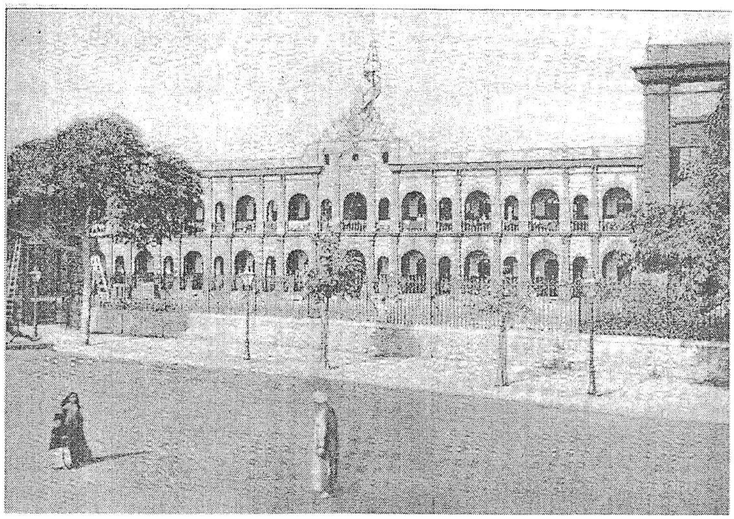
ومن أجل عدم إدخال أيديهم فى جيوبهم كمسلك طبيعى للضباط الذين يتجولون بلا سيف خارج الثكنة وخارج الخدمة ، يوجد صولجان قصير من الخيزران فى أيديهم جميعًا . وفى القوائم الأمامية بأذرع الزى الفخم ، كشكشات فى كل منها شرائط مصنوعة من نسيج القبطان الرقيقة ذات ألوان بيضاء وسوداء وحمراء حسب رتبهم ، وعلى الرغم من أن الصدر مطرز على نمط ما طرزت به بزة المدفعية القديمة ، فإن شرائطها أكثر اتساعًا ، وإزارها أسطوانية الشكل ، مغطاة بشرائط سوداء ، وعليها علامات مميزة للرتب .

ياقة القوائم الأمامية ذات خيوط فضية ، ولا توجد الكتفية فى البزّة الفخمة ، ويعد ارتداء القفاز الأبيض من متطلبات الزى لدى الضباط المغمدين سيوفهم . يمتد شريط زينى عبارة عن ثلاثة شرائط سميكة للغاية ، ومصنوعة من نسيج القيطان ، من كتفى البكباشى حتى الكتف الآخر .

ومن أجل ألا يكون طويلاً لأمراء الفرسان والمدفعية ، توجد أحزمة مجدولة ذات خيوط فضية لتلاقى منتصف الظهر من الخلف . يحمل كل ضابط من ضباط الفرسان حقائب مربوطة بثلاثة من الأحزمة الفضية العريضة المتعلقة باستقامة السيف خلال وجودهم مع الحيوان . وتوجد شرابات طويلة تحت اللجام على رؤوس حيوانات الضباط ، ويمتد من فك الحيوان وحتى الأرض ، ويرتدى من الملابس بنفس الشكل والنوع من زى الضباط العساكر ذوو الألبسة البيضاء ، وهى طويلة مثل بنطال الجنود . وتوجد أيضاً علامات مميزة للرتب فى الألبسة البيضاء ، وأيضًا على أطراف الأكتاف .

زى الثكنات :

أطلق على الثكنة الموجودة تجاه سراى عابدين الواقعة فى ميدان عابدين – وهى المقر الرسمى للخديوى – اسم ثكنة التوفيقية . ولقد كتب اسم الثكنة عليها "القشلاق التوفيقية " بخط عريض جداً فى لوحة ضخمة ، وعلقت فى موضع مواجه لسارية العلم وفى منتصف واجهة الثكنة تماماً . ومما يلفت النظر السُّلّم المفتوح طرفاه ، وهو على هيئة سلّم المنارة فى الطابق الأسفل الذى يمتد حتى موضع شعار النبالة لسارية العلم .



صورة رقم (٥٩)
القشلاق التوفيقية ثكنة التوفيقية

لم تكن ألبسة العمل لجنود المشاة بداخل الثكنة على طراز ألبسة ممن هم بداخل إسطبل المدفعية والفرسان . وعلى الرغم من أنهم كانوا يتجولون بالملابس الداخلية والطاقية البيضاء ، ويقابلون الضابط بتلك الهيئة، غير أن الجنود المستعدين للخروج من الثكنة يتزينون على النحو اللازم ، ويتم فحص الأحزمة المجدولة وهيئاتهم العسكرية ، وتنظف ملابسهم الخارجية بالفرشاة .

كنت أراقب الخارج من فرقة منتظرة بالثكنة . جمع الجنود الذين كانوا يتجولون هنا وهناك بشكل متفرق والذين كانوا يتحدثون مع زملائهم ، وقد انتظموا صفين وسط ميدان الثكنة وفى أيديهم سلاحهم وأبواقهم وفى خصرهم الرماح . قام جندى يرتدى سترةً قصيرة ، بتسوية الصفوف ومحاذاتها جنبًا إلى جنب ، وقام بفحص كل جندى منهم .

وبعد أن فحص أن الإزار مؤتزرة و منتظمة حسب هيئتها النظامية بدأ جندى آخر ذو سترة قصيرة فى تنظيف ملابسهم الخارجية بالفرشاة ، وخلال هذه الفترة كان قد

جذب دقة انتباهى استمرار الجنود ذوى السترات القصيرة فى أداء مهامهم بلا ملل ، بينما جاء بالقرب من الجنود ضابط شاب أسمر نظيف المظهر الخارجى ، ويرتدى قفازًا فى يديه . وبعد أن يستقبل الضابط الصفوف ، ويدقق النظر فى الجنود كل منهم على حدة ، كان يصيح على مقربة منه الجندى ذو السترة القصيرة . كان الجندى يرتدى هيئة عسكرية وذلك الزى تجاه الضابط المذكور ، واستمر فى فحص الجنود مرة أخرى بعد أن تلقى الأمر بذلك مؤديًا التعظيم العسكرى الذى يعد من الأمور المرعية فى مصر .

فى هذه الفترة خرج من الحجرة يوزباشى وفى يده عصا قصيرة ويرتدى بنطالاً و جاكت أسود ، وركب عربته اللامعة والمجهزة بحصان واحد ، والمصانة باهتمام بالغ من قبل صبى زنجى صغير حافى القدمين فى هيئة هندية ينتظر أمام الباب ، وتحرك قابضًا بيديه على ملجمات الحيوان . وركض الصبى ذو الزى الهندى وراء العربة بعد أن أدى تحية لطيفة. وعند خروجه من باب الثكنة تسلق العربة ، وجلس فى مكان معين خلف العربة .

وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق خرج ضابط آخر من غرفته ، وركب عربته التى كانت تنتظره بنفس الشكل ، وعند خروجه من باب الثكنة وثب خادمه إلى العربة . ولقد فهمنا أنه من المراسم الضرورية عدم ركوب العربة بداخل الثكنة باستثناء الضباط ، وتتبع العربة راجلاً حتى باب الثكنة ، ركب ضابط ثالث أعقبهما أيضًا بسيارته التى قبض على طرفيها جندى مصرى ، وعلى الرغم من أنه خرج من الثكنة ، فإنه لم يكن قد أكمل فحص الجنود الموجودة ومعاينة هيئتهم العسكرية فى ميدان الثكنة .

انتظرت مضطرًا ، وبعد أن استمر هذا الفحص والتنظيم ساعة ونصف تمامًا سل الضابط السيف وربط الرماح للجنود ، وقام بإلقاء تعليمات حول استعمال الأسلحة ، وفى النهاية بدأ فى التحرك بقيادته " اليمين نصف لليمين " و " مارش سريع " وخرج من باب الثكنة بقيادته " نصف شمال – مارشْ" ، ومر من ميدان عابدين وهو يلقى التعليمات الواحدة تلو الأخرى ، واتجهوا إلى سراى الخديوى فى عابدين .

التربية العسكرية

تعد الهيئة العسكرية للجنود خارج الثكنة ، والذين يرتدون الملابس الرسمية وثقافتهم المكتسبة وما غير ذلك، من الأشياء العظيمة للغاية والجديرة بالمباركة ، ويجب التقصى بحق عن الانتظام فى مشيهم واستعمال الأسلحة ـ خاصةً وقت تدريبهم ، وهناك مزية أخرى تكتسب من حركاتهم المركبة الجذابة .

وينصب الاهتمام بالتمرينات البدنية اهتماماً بالغًا، ونظراً لاهتمامهم بتعليم جنود الإنجليز والمصريين بأصول المدفعية الخاصة بالإنجليز ، والمداومة على مزاولة السباقات المختلفة والألعاب الرياضية ؛ فإن الجنود المصريين الوطنيين ـ وهم عبارة عن عساكر بسيطة أساساً ، وعساكر الإنجليز الشباب الذين يبدو عليهم تلك الحيوية وذلك الجمال ـ يظهرون قدرة بدنية فائقة إلى درجة تلفت معها الأنظار ؛ حيث ينصب اهتمامهم الفائق على التدريبات البدنية ، وكذلك لأنهم يركزون اهتمامهم على تعليم الجنود الإنجليز والمصريين يومياً – فى ميدان مركز التعليم الضخم للغاية والثكنات الممتدة والواقعة سواءً جهة العباسية أو الثكنة العسكرية الإنجليزية الملحقة بكوبرى قصر النيل – المبادئ الإنجليزية الخاصة بالمدفعية والمداومة على مزاولة السباقات المختلفة والألعاب الرياضية .

يمنح ضباط مصر الشبان والكتائب العسكرية شهادات التخرج من المدارس العسكرية المسماة المدارس الحربية . وتدريجياً يتم توظيف أفواج من الضباط ، وتعد شخصية الضباط جديرة بالتقدير والوقار والاحترام ، ولم يكن قد شوهد على الإطلاق وهو يخل بالشرف على أية حال وفى أى موضع ، ولم يكن ملموساً اختلاطهم بالعوام .

يرتدى الضباط زيًا موحدًا ، ولم يكن قد رؤى أيضًا أى ضابط يجلس فى مقاعد الدرجة الثانية للتراماواى ، كما أنه لم يصادف أيًا منهم مرتديًا زيًا وملابس رثة ، ولم ير أحدهم مخالفًا للنظام فى الزى أو يظهر بمظهر عارى الصدر أو طربوشه مائل فى الأسواق والبازارات . أما بالنسبة للضباط الإنجليز ، فلم يكن يصادَف مطلقًا أىٌّ منهم فى أماكن اللهو - فيما عدا الأوبرا ومسارح الغناء التمثيلى . ويعد فندق "سافوى" الضخم - وهو من فنادق الدرجة الأولى - من الأماكن التى يرقص فيها الضباط الإنجليز مع عائلاتهم فى معظم الأوقات . ويشرح واحد من العالمين بالأحوال الداخلية أنه كان يصعب رؤية الضباط وهم يتجولون بهذا الشكل ، وذلك للمحافظة على وقارهم وفخارهم ، ومع ذلك كان يمكن أن يوجد منهم اعتبارًا من رتبة ضابط جناح كتيبة فى كل مكان وهو يرتدى زيًا مدنيًا .

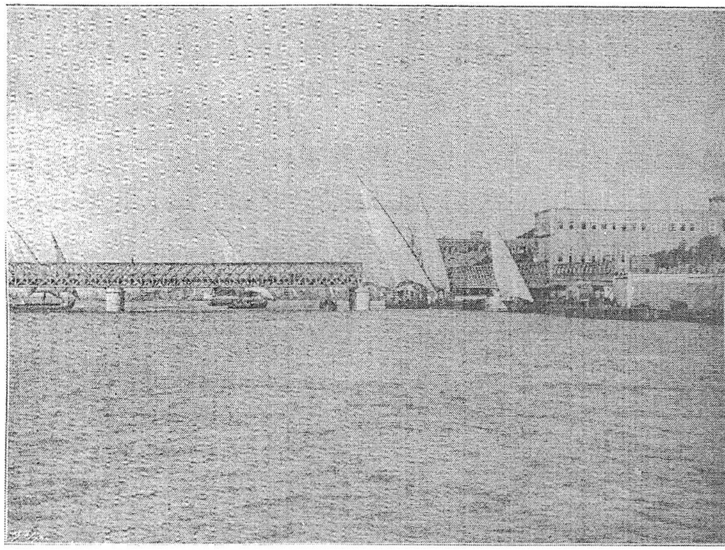
يقيم العساكر المصريون الوطنيون فى ثكنات منفصلة عن ثكنات العساكر الإنجليز ، وتوجد إدارة خاصة لإقامة قائد الثكنة مع العائلة فى مكانه المخصص له بمركز التدريب للثكنات التى يقيم فيها الجنود الإنجليز . ويخصص ثكنة مكونة من إدارات عبارة عن مطبخ وحجرة خاصة لكل عائلة ممن يتزوج من الضباط المرشحين الذين يطلق عليهم اسم " الصول " و " باشجاويش " ؛ نظرًا لأنه يسمح للجنود الزواج بعد الحصول على رتبة " باشجاويش " فى الفرق العسكرية الإنجليزية .

تعطى الحكومة الجنود المتزوجين رواتبهم وكل أنواع الوقود ، ولا يُسمح للجنود غير المتزوجين بالدخول إلى هذه الثكنة ، غير أنه يمكن أن يقبل أحد الجنود المتزوجين زيارة صديقه غير المتزوج الذى هو محل ثقته .

ولا يمكن أن يدخل غير المتزوج فى أى وقت مطلقًا ، حتى من أجل رؤية زوجة أى جندى متزوج . وتقع الثكنة العسكرية للمتزوجين وثكنة قصر النيل على شاطئ النيل وبين مصنع الترامواى الكهربائى .

يُروى أن الثكنات التى أقيمت مؤخرًا فى منطقة العباسية وبتكاليف بلغت نصف مليون ليرة ، قد أنشئت بهدف ازدياد جنود الاحتلال ، وأنها أسست بشكل يمكن أن يجمع الأجهزة العسكرية والصحية اللازمة من كل منطقة . يتحرك الجنود الحراس

دائمًا بخطوات موزونة تقريبًا أمام الموقع أو الباب المكلفون بعدم إلقاء السلاح من فوق أكتافهم فى الثكنة والدوريات .



صورة رقم (٦٠)
وضع كوبرى قصر النيل وهو مفتوح ، وثكنة قصر النيل

يضع الجنود الذين لا يتجولون مؤخرة بندقيتهم أمام جزء من أقدامهم اليمنى، ويمدون أيديهم اليمنى إلى الأمام ممسكين بالبندقية فى حذاء العنق ، ويقبض على ماسورة البندقية فى وضع مائل للإمام ، ولكن فى بعض المواقع كان يرى أيضًا من يتجول حاملاً السلاح على أكتافه . كان فرسان العساكر المصريون الوطنيون ينتظرون استلام عملهم بالرماح فقط أمام المخفر ، وفى أماكن أخرى كانوا يؤدون مهامهم فى وضع مريح بدلاً من أنهم كانوا يعلقون الرماح . ومما يلفت النظر خلال سير العساكر الإنجليز ، هو أنهم يمسكون مؤخرة البندقية – حاملين سلاحهم على أكتافهم – من الطرف الأسفل حتى تصل الأصابع إلى أعلاها ، وطول البنادق يشابه طول البنادق الضخمة الدقيقة ، كما أن حربات البندقية أيضًا قصيرة جداً . وُضِع على أبواب الثكنات والمدارس الحربية مدفعان برونزيان على الطراز القديم .

الرواتب العسكرية

تصرف الرواتب العسكرية بالليرة المصرية . وبسبب أن الليرة المصرية تفوق الليرة الإنجليزية فى السعر بقرشين ونصف ؛ فهى تثمن قيمتها بمائة واثنين وعشرين ونصف قرشاً حسب رواجها فى دار السعادة .

ومن النادر جداً أن يتعامل السوق بالليرة المصرية ، بل إنها لا توجد على الإطلاق . فكان من المضمون أن يكون التعامل مع معاملات البنكنوت . وطبقاً للأوامر العسكرية التى عممت من مركز الخرطوم العسكرى ، فإن الرواتب العسكرية اعتباراً من اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٠٩ يكون على النحو التالى :

رواتب الإقليم المصرى :

الفريق	راتبه الشهرى	٧٥ ليرة مصرية
اللواء	» »	٦٥ ليرة مصرية
الميرالاى	» »	٤٧ ليرة مصرية
القائم مقام	» »	٤٠ ليرة مصرية
البكباشى	» »	٢٨ ليرة مصرية
مساعد القائد	» »	١٨ ليرة مصرية
يوزباشى(١)	» »	١٢ ليرة مصرية
يوزباشى(٢)	» »	١٠ ليرة مصرية
ملازم أول	» »	٧ ليرة مصرية
ملازم ثان	» »	٦ ليرة مصرية

(١) يوزباشى (مدة الخدمة المتبقية مع طرح مدة الخدمة العسكرية الموجودة خارج الكادر لا تقل عن سبع سنين وإن زادت على ذلك) .

(٢) يوزباشى (مدة الخدمة المتبقية بعد طرح مدة الخدمة العسكرية الموجودة خارج الكادر هى سبع سنوات وإن قلت) .

يحصل الضباط الموجودون خارج الكادر على ثلثى الراتب حتى رتبة "يوز باشى" ، ويحصل على نصفه من هم فى المرتبة الأعلى . وينال الضباط الحاصلون على رتبة ميرالاى وما دونها الراتب على الوجه الآتى فى حال توظيفهم بالسودان :

رواتب الضباط العاملين فى السودان :

يحصل الضباط العاملون فى أسوان أو فى شبه جزيرة طور سيناء أو بين أسوان ووادى حلفا على المميزات والمخصصات الخاصة بالسودان . وتكون علاوات رواتب موظفى الصحة السنوية على النحو التالى :

ميرالاى	راتبه الشهرى	٥٦ ليرة مصرية
قائم مقام	« «	٤٦ ليرة مصرية
بكباشى	« «	٣٣ ليرة مصرية
مساعد القائد	« «	٢٣ ليرة مصرية
يوزباشى (١)	« «	١٤ ليرة مصرية
يوزباشى (٢)	« «	١٢ ليرة مصرية
ملازم أول	« «	٩ ليرة مصرية
ملازم ثان	« «	٨ ليرة مصرية

(١) يوزباشى (مدة الخدمة المتبقية مع طرح مدة الخدمة العسكرية الموجودة خارج الكادر لا تقل عن سبع سنين وإن زادت على ذلك) .

(٢) يوزباشى (مدة الخدمة المتبقية بعد طرح مدة الخدمة العسكرية الموجودة خارج الكادر هى سبع سنوات وإن قلت) .

ويحصل الضباط العاملون فى أسوان أو فى شبه جزيرة طور سيناء أو بين أسوان ووادى حلفا على المميزات والمخصصات الخاصة بالسودان . وتكون علاوات رواتب موظفى الصحة السنوية على النحو التالى :

طبيب	»	»	٧٢
صيدلى	»	»	٣٦
صبيب	»	»	٦٠
صيدلى	»	»	٣٦

وتوجد مستحقات للحصول على بدل الملبس لضباط السلاح الحاصلين على رتبة مساعد القائد والرتب التى دونها . ويحصل الضباط الحاصلون على رتبة يوز باشى وما دونها على مخصصات لهم ولطعام الحيوان ، وتسوى لهم فى بداية كل شهر إفرنجى عيناً وبدلاً . ورواتب جنود العسكرية المصرية والضباط المرشحين محررة فى الجدول الآتى :

صول	الراتب الشهرى للضباط المرشحين الذين يطلق عليهم اسم الصول		٤٠٠ قرشاً
باشجاويش	الراتب الشهرى		٧٠ قرشاً
أمين البلوك	»	»	٦٠ قرشاً
شاويش	»	»	٥٠ قرشاً
أونباشى	»	»	٤٠ قرشاً
جندى	»	»	٣٠ قرشاً

كانت مستحقات الزى العسكرى للجنود العسكريين والضباط المرشحين المعينين فى هذا القسم ، تعطى على شكل منشور خديوى مرقم بتاريخ أكتوبر ١٩٠٨ م .

التقاعد فى مصر :

يحال الضباط العسكريون والموظفون المدنيون الذين بلغوا سن الخامسة والخمسين إلى التقاعد ، ومهما يكن مقدار الراتب للمتقاعدين ومدد خدمتهم ، فإن الحد الأعظم لراتب التقاعد يبلغ سبعين ليرة مصرية .

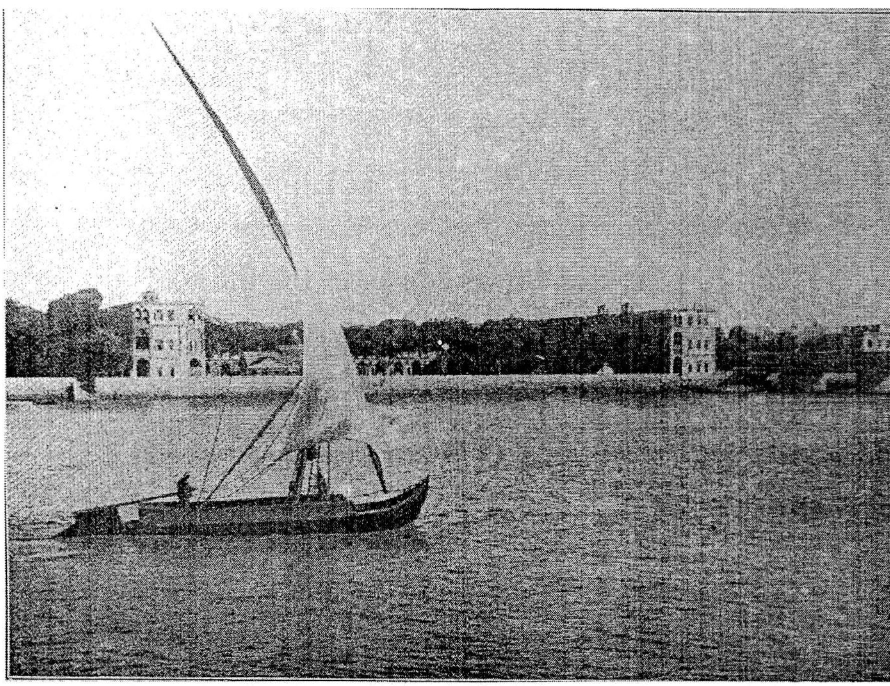
ويحصل كل موظف يؤدى الخدمة حتى يصل إلى السّتين من عمره على الراتب كاملاً ، والذين يخدمون أقل من ذلك ينالون راتبًا يقدر بتقسيم راتب الوظيفة الأخيرة على ستين ، وضرب ناتج القسمة على مدة خدمتهم . ينال الكولونيل الذى يعمل خلال هذه الفترة فى السودان وطور سيناء وأسوان أو وادى حلفا على راتب يبلغ ٤٢ ليرة . كان يحسب كل سنة يعمل خلالها فى مناطق طور سيناء وأسوان ووادى حلفا وهى تعادل السودان ، بسنة ونصف ، وكل سنة خدمة فى أوقات الحرب بسنتين .

وعلى الرغم من أنه يجبر على الإحالة من يصل إلى سن الخامسة والخمسين ، فإنه لم يكن هناك حد نظامى للتقاعد الاختيارى ؛ حيث يستطيع كل موظف أن يطلب التقاعد وقتما يريد ، ويخصص له معاش حسب مدة خدمته ، ويأخذ نقدًا وعلى دفعة واحدة راتب التقاعد المخصص له ، ويبلغ ما يساوى عشر سنوات.

أما المتقاعد غير المتزوج ، فإنه يأخذ نقدًا وعلى دفعة واحدة راتب التقاعد المخصص له ، ويقدر بما يعادل عشر سنوات ، ويستطيع أن يتخذه رأسمالاً له . ومن الطبيعى أن يظل محرومًا من الراتب بعد ذلك . أما المتزوج ويعول أسرته ، فلا يمكن أن يطبق عليه ما سبق بأكمله ، وإنما يستطيع أن يحصل على نصفه فحسب ، ويتم صرف بدل راتب التقاعد لرواتب الأيتام والأرامل ، ويمكن أن يدخل المتقاعدون من المدنيين والعسكريين إلى خدمة الحكومة أو العسكرية من جديد ، ويأخذ راتب الوظيفة أو الرتبة الجديدة مع راتب التقاعد . وينال حق التقاعد علاوة على عمله فى هذه الوظيفة الجديدة ، غير أنه عند تعيينه فى الوظيفة الجديدة لا ينظر إلى الخدمة السابقة ورتبته الحاصل عليها ، ويعين فى الخدمة من جديد ، وعلى هذا النحو يكون التعامل طبقًا لهذا النظام .

الموظفون المدنيون والعسكريون :

وهم لا يحصلون على عشر فى المائة أو خمسة فى المائة من رواتبهم ، وهو يمثل مستحقاتهم من هذه الاستقطاعات عند تقاعدهم ، وراتب التقاعد هى أموال مخصصة مستقلة ملحقة بالميزانية، والمبالغ التى تعطى تحت مسمى المعاش هى حق مكتسب لمواجهة الحياة ومحولة بصورة يستطيع صاحبها أن يصرفها، وبالنسبة لمدة الخدمة فقد تم اتخاذ حد نظامى للوصول إلى التقاعد فى سن خمسة وخمسين ، كما حدد سن خدمة معينة خاصة لكل رتبة ، ومنها أنه يمكن للواء أن يعين وعمره أربعة وخمسون ، إلا أنه لا يمكن لليوزباشى أن يعين وعمره خمسون ، وكذلك لا يمكن للملازم أن يعين وعمره أربعون ، ويحالا إلى التقاعد .



صورة رقم (٦١)
مشهد لثكنة قصر النيل من جهة النيل - والمراكب الشراعية التى تعمل بالنيل

ويخصص لصرف رواتب الفرق العسكرية الإنجليزية الساعة الثانية عشرة من آخر يوم من الشهر الإفرنجي ، وللفرق العسكرية الوطنية الساعة العاشرة صباح اليوم الأول من الشهور الإفرنجية ، ويتم اتخاذ هذه الإجراءات سواءً فى حال الحضر أو السفر ، فى مراكز الإقامة أو فى حال تحركهم وتنقلهم .

تؤخذ تعويضات قليلة جداً ومتباينة من الضباط الذين لم ينالوا رواتبهم فى الوقت المحدد ، أو الذين هجروا صندوق الفرق والكتائب . وتبلغ المبالغ المخصصة المتفرقة - باستثناء رواتب قائدى الفرق - حوالى خمسة آلاف قرش ، ويسمح بصرف المبالغ المذكورة كيفما اتفق على النفقات النثرية للفرق ، وفى حالة عدم كفايتها يسمح بطلب مبالغ إضافية أيضًا . ويكون قائد الفرقة مجبوراً على تقديم حساب موضحًا أن ما تم أخذه هو أربعة آلاف قرش من المبالغ المذكورة .

وبهذا الشكل يسمح لقائدى اللواءات وقائدى الفرق بصرف عشرة آلاف على نفقاتهما المتفرقة . يحول الضباط إلى " قلم قبور الضباط " بوزارة الحربية أيام صرف رواتبهم مرة واحدة فى السنة . وعندما يتم اكتشاف وجود ضباط متوفين وتم دفنهم فى مصر أو السودان ، فإن وزارة الحربية تأمر بإقامة قبور لتصير شواهد مصنوعة من المرمر المتسق فى الشكل والصورة المقبولة لدى الوزارة ، وذلك بالمبالغ التى كلف بجمعها وحفظها هذا القلم . وتنحت عبارة صغيرة فى موضع معين ومناسب على الشاهد ، وهى " قبر الضابط الفلانى " الذى توفى فى الموقع الفلانى أو فى المعركة الفلانية . كانت الحكومة قد أحالت قبور الضباط بشكل تكليفى لنحاتٍ إيطالى فى القاهرة .

بعض المعلومات العسكرية :

تعد مدينة الخرطوم مركز الجيش فى الإقليم المصرى ، ووزارة الحربية الموجودة فى القاهرة بمصر هى شعبة للمركز العسكرى بالخرطوم ؛ فالأوامر والقرارات العسكرية تنشر وتعمم من مركز الخرطوم . وكما يتضح من رؤية خطاب كتب عليه آخر

الألقاب على النحو الآتى : وهى عبارة عن لقب قائد الجيش والألقاب الرسمية – حضرة سعادة السيد قائد الجيش المصرى .

يتصل مركز الخرطوم العسكرى بوزارة الحربية فى القاهرة بتليفون مستقل وخط تلغراف ، كما يضمن التخابر والاتصال بواسطة القطار مرتين فى الأسبوع ، وبالباخرة التى تحمل البريد نهراً مرةً واحدة ، وترتبط المراكز العسكرية داخل الإقليم ببعضها بعضاً بالتليفون والتلغراف ، وكذلك تتصل المواقع العسكرية بالمدن، وخاصةً مراكز البوليس بعضها مع بعض ومع إدارة المحافظة التى يُطلق عليها اسم "غور ونور" بالتليفون .

كانت أقدم آمال الحكومة الملكية والعسكرية بعد احتلال الحكومة المصرية السودان للمرة الثانية – والتعبيرالأدق احتلالها لحساب حكومة الاحتلال وبتوجيهها – هو ضمان الارتباط وإقامة خطوط اتصال بين القوات العسكرية المختلفة .

وبسبب أن المناطق المهمة التى تبعد عن وادى النيل حسب الموقع الجغرافى ، عبارة عن قفارى شاسعة بلا ماء ؛ فقد حاولت واجتهدت فى حفر الآبار بالأراضى الخالية ، ونجحت فى هذا الأمر ، مما جعلها تقدم على فتح أبواب كثيرة للإنفاق ، باستعمال آلات المسبار المختلفة التى عرضت فى المعارض الزراعية من أجل تعميمها واستخدامها مع الاستعانة بالتقنيات الحديثة المتقدمة ، ثم إقامة الطرق المنتظمة ورصفها . وأقاموا فى نهاية تعميرها إدارات البرق والبريد المنتظمة والسيارات .

ونتيجةً لهذه المحاولات المتواصلة ، فقد كان مسجلاً ومقيداً بأنه تم إنفاق عشرة آلاف ليرة سنوياً من أجل حفر الآبار فى المواقع الخالية من العمران بالسودان خلال الأربع سنوات الأخيرة . توجد معظم الكتائب العسكرية متفرقة ، وكان القائم مقام هو قائد الكتائب . ونظراً لأن معظم الكتائب العسكرية الموجودة فى مواقعها بالسودان مقسمة إلى فرق ، فيوجد القاضى فى مركز الفرقة الأهم ، وفى الفرق الأخرى يوجد البكباشى ومعاون الضابط ، وفى إدارة المواقع العسكرية والملكية القاضى والبكباشى ومعاونو الضباط ، والقائد الفعلى للفرقة والمسؤول عن الانضباط والإرشادات العسكرية هو البكباشى .

يبلغ البدل العسكرى فى مصر عشرين ليرة ، ويقبل البدل النقدى الذى يقدم قبل الوصول إلى السن الإلزامى . ويتسلم من يقدم البدل تذكرة إبعاد ومعافاة من كل أقسام الخدمات العسكرية وفروعها ، مثل الاحتياط والرديف والاستدعاء.

ولا يقبل البدل النقدى والشخصى للجنود العسكريين الذين دخلوا السن القانونى الإلزامى ، ويكلفون بأداء الخدمة بالفعل . يُكافأ الجنود العسكريون المتصفون بالأخلاق الفاضلة والحسنة أو من قام بتهذيب الأخلاق فترة خدمته بجائزة الفضيلة والأخلاق الحسنة لكل جندى عند نهاية الخدمة .

كان قد تم توزيع مكافأة نقدية بلغت خمساً وعشرين ليرة للجنود العسكريين الذين أنهوا خدمتهم فى يونيو ١٩٠٩ م . ويمكن أن تكون هذه الجوائز أيضًا رأسمالاً للفقراء ، كما أنها تعد بداية تشجيعية لإكساب الجنود الأخلاق الفاضلة .

هيليوبوليس أو عين شمس

يقع المكان الذى يطلق عليه اسم " هيليوبوليس أو عين شمس " ، فى شمال شرقى مصر ، وهى تقع شرق متنزه اسمه المطرية الواقع فى بلدة مهجورة يطلق عليها قديماً اسم " عين شمس " ، ويستغرق الوصول إليها بالترامواى الكهربائى أربعين دقيقة ، وبالسيارة ساعة ونصف . أرضها صحراء يابسة ؛ لأنها ترتفع عن سطح أرض مصر بعشرين متراً . ولقد شيدت اليوم مدينة جديدة فى الموقع المذكور ؛ لكى يصبح مصيفاً للقاهرة للإفادة من نقاء هوائها ، ويتزايد عمرانها يوماً بعد يوم .

كانت شركة بلجيكية مقرها القاهرة ، قد قامت بشراء أراضى فى الموقع المذكور ، يبلغ اتساعها عشرين كيلومتراً وبأسعار الأراضى الخالية ، أى بليرة واحدة لكل فدان . واليوم تُباع بعد تعميرها بأسعار مختلفة يتراوح سعر المتر المربع من ليرة واحدة إلى ثلاث ليرات . ولهذا السبب ، فإنه قد بدأ العمل فى تشييد المبانى بعد أن مدت أولاً خطوط الترامواى الكهربائى بدايةً من الموقع الذى يطلق عليه اسم "الريدانية" حالياً العباسية[1]، وحتى الخارج، ثم بعد ذلك تم توصيل خطوط المدينة الجديدة مع القاهرة ، وشيد طريق منتظم مرصوف بالقطران . ولقد أعدت خطة المدينة بشكل فنى بعد أن تم تأمين وسائل النقل بها[2]. أقيم طريق مرصوف بالقطران ، وشيدت شوارع واسعة

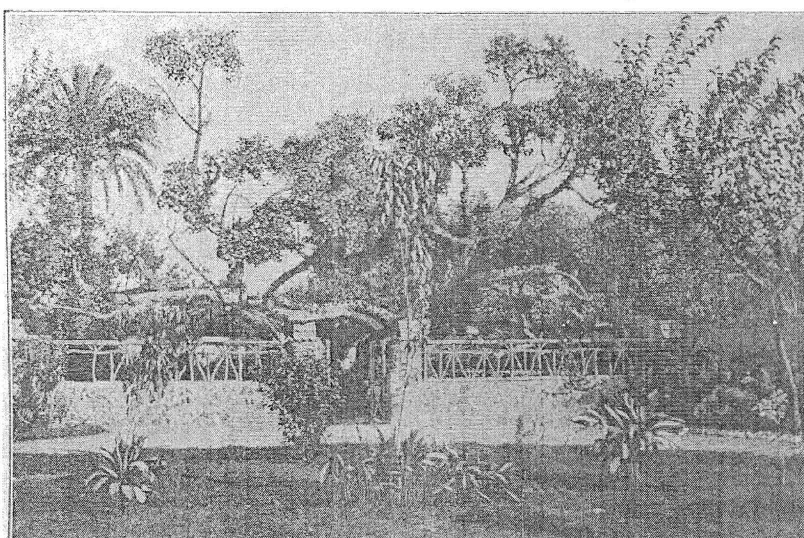
---

(١) كان موقع العباسية هو ذلك الخط الحربى للجيش العثمانى فى ميدان معركة القاهرة خلال حرب السلطان ياووز سليم على مصر ، وقد شهدت موقع استشهاد الصدر الأعظم " سنان باشا " فى المعركة المذكورة ، وهو مدفون اليوم فى جامع "تيمور طاش " .

(٢) كان الوصول من القاهرة حتى موقع عين الشمس (مصر الجديدة) - بواسطة خط ترام كهربائى آخر ، وأنشئ مؤخراً جزء منه تحت الأرض هذه المرة - يستغرق عشر دقائق بالقطارات المكلفة للغاية ، بينما كانت القطارات التى كانت تسير وتتحرك عند بداية تأسيس هذا الخط ، تقطع هذه المسافة، وتقدر باثنى =

للغاية لكى تكون طرقًا يقام على أطرافها ومنتصفها الحدائق . وبعد أن تمت إنارة كل الشوارع بالكهرباء ، وأنشئت خطوط الترامواى الكهربائى للمدينة التى أسست حديثًا ، وأحيطت بها فروعها بشكل دائرى ، تم افتتاح مياه الصرف ، ووزعت المياه التى تدفقت ، وعمرت الحدائق وغرست الأشجار ، وحددت مناطق توزيعها وتزيينها . ولقد وضعت جميع المنشآت الموجودة حاليًا تحت حساب اسم الشركة صاحبة الأرض .

شُيدت المنازل الخاصة ذات الخمس والست حجرات الخاصة بالعائلات ، والشقق الفخمة جدًا التى تحتوى على زخرفة تصل إلى درجة فخامة الفنادق ، وأقيم فندقان مزخرفان إلى أقصى درجة ، حتى أنهما يضاهيان فى تشييدهما الطراز المعمارى المعروف بسراى الحمراء الواقع فى الأندلس، والذى كان يطبق تدريجيًا على المبانى الأخرى .



صورة رقم (٦٢)
شجرة العذراء فى منطقة عين شمس التى يطلق عليها اسم "المطرية"

= عشر كيلو مترًا ، فى ست دقائق بسرعة ١٢٠ كيلو مترًا فى الساعة ، إلا أنه تم تعديل السرعة من قبل الحكومة بعد الحوادث المذكورة عند حدوث أى اشتعال من جراء سرعة تحركها ، وهى تقطع المسافة اليوم فى عشر دقائق .

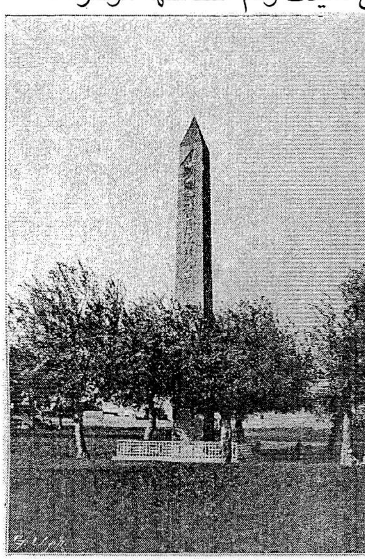
تؤجر المنازل الخاصة التى أسست ، بعد استكمال أساس المدينة الجديدة بهذا الشكل من قبل الشركة ، كما قامت ببيع الأراضى المتبقية للمشترين ، بتقسيمها إلى قطع من أراضى فضاء ، أو تُباع بشكل الإيجار عند ظهور المشترى ، شريطة تسديد ثمنها على عشرين عاماً .

ويتبين عند التفكير فيما يعود من فوائد ومزايا من جراء هذا الموضوع ، أنه قد أدى إلى نتيجتين مذهلتين : أولاهما : جذب الأنظار إلى تلك المنطقة بفكرة امتلاك عقار ، وينتج عن ذلك الإفادة من ارتفاع قيمة تلك الضاحية ، أما ثانيتهما فهى إمكانية تملك مسكن للعائلات التى تملك القدرة على دفع إيجار زهيد . تقوم بهذا العمل شركة فى مصر . والحمد لله أن قد بلغ إلى مسامعنا أنه تم إنشاء الشركات عندنا (فى تركيا) ، إلا أننا رأينا أن معظمها يرغب فى الاتجاه إلى التجارة ، فإذا هم سعوا إلى الاحتذاء بنموذج صغير ، مجازفين بجسارة بالقدوم على شراء الأراضى الفضاء التى تقع فى أجمل المواقع بدار السعادة والبلاد الثلاثة ؛ فهل يا تُرى سوف يلازمهم التوفيق والفلاح ؟

شُيدت منازل هيليوبوليس وباقى المنشآت بالأحجار وفقًا لطراز موحد ، وليس من الممكن ألا يستحسنها أى زائر يرى المدينة ؛ فقد طبق فنها المعمارى بأسلوب جديد معدل ومطور امتزج فيه أصول البناء العربى وأصول فن المعمار . تزين الأسطح الخارجية للفنادق والشقق ، بل وحتى المنازل الخاصة بالزخرفة الأرابيسك ، وهى مغطاة بالقباب ، ومحاطة بالأعمدة والقناطر المصنوعة من الطراز العربى الخاص – وكثيراً ما يصادف أمثالها – ويستدل من نظرة واحدة بأنه كان قد استخدم فى مصر وطبق مذهب معمارى قومى لهذا السبب ، ومن الواضح أن هذا المذهب قد ظهر فى أكثر الأقاليم الممتازة والمطورة والمتحضرة ، وهى مصر ، والهدف منه إبراز نموذج متكامل لبلدٍ عربى للآلاف من الرحالة الأجانب الذين يسارعون إلى زيارة مصر من أجل مصر .

وعلى الرغم من هذا الحال ، فمما لا شك فيه أن المدينة سوف يبدو عليها العمران[١] لأقصى حد وفى زمن قصير للغاية ؛ بسبب سهولة وسائل النقل بها ورخصها ، واستكمال الإضاءة بها على وجه الخصوص ووجود فروق بسيطة بين الإيجار والشراء . ويعادل سعر الإيجار فى الشوارع المعروفة والمعمورة ، إيجار الإقامة بوسط شوارعها . وقد كان من الممكن شراؤه ملحقًا بالأجرة لدرجة لا يمكن أن تحس . وقد بلغ ما تم استئجاره فى المدينة الجديدة – عند حلول يوم زيارتى لها- مسرحين وفندقًا مفتوحًا ومنزلاً واحدًا فقط .

كان القادمون والغادون بالترام الكهربائى والعربات والأتوموبيلات من أجل التنزه يوميًا كثيرين للغاية ، وقد كتبت عبارة (مصر – عين الشمس) على قطارات الترام الكهربائى المخصص لهذه المنطقة . تقوم القطارات ذات العربات المزدوجة ، إحداها عربة ذات درجة ، والأخرى بدونها ، ذهابًا وإيابًا من الخامسة صباحًا وحتى الثانية عشرة ليلاً بفاصل كل نصف ساعة . وتستفيد العربات والأتوموبيلات من الطرق المرصوفة بالقطران ، والتى شيدت وتم افتتاحها مؤخرًا .



صورة رقم (٦٣)

المسلة المنتصبة فى عين شمس "المطرية"

(١) يروى أن أراضى الشركة التى قررت إقامة بحيرة صناعية فى المنطقة المذكورة هذه المرة ،كانت تحفز على الإنتاج وزيادة عمران المدينة المذكورة التى يفهم من اسمها " مصر الجديدة " أن لها قيمة وأهمية ، =

يقطع الترام من المحطة الخاصة به – التي يطلق عليها في مصر اسم "العتبة الخضراء" – إلى مصر الجديدة بما قيمته ثلاثة قروش في الدرجة الأولى ، وقرش ونصف في الدرجة الثانية . يتحرك الترام في هذا الخط بسرعة فائقة ، وتغطى عربات هذا الترام – وحتى في الدرجة الثانية – بالستائر الجميلة ، ويفرش بالحصير الهندى المنقوش .

وفي الحقيقة ، فإن موقع عين الشمس – التي يطلق عليها اسم " المطرية – تاريخيًا يعد قريبًا جدًا من هذه المدينة الجديدة . كان قد حدث في هذا المكان معركة كبيرة مع الفرنسيين عام ١٨٠٠ م ، وهي تعد مزارًا حسبما يروى بأن حضرة المسيح عيسى عليه السلام قد جلس عند مجيئه مع السيدة مريم إلى مصر ، والتي فرت هاربةً من ملك اليهود هيرودوت ، تحت شجرة الجميز التي يطلق عليها اسم شجرة العذراء الموجودة الآن .

ويروى أن تلال عين الشمس التي تبدو على مقربة من المطرية هي أطلال بلدة قديمة ، وكان الناس فيما مضى يزورون صنمًا كان مقامًا هنالك بنية الحج ، وأن ذليخا قد تضرعت طويلاً تحت أذيال يوسف الطاهرة ، في حين أن بلدة الفيوم كانت عاصمة الدولة في عهد يوسف ، والتي تقع على أطراف ساحل بحيرة قارون . وما يروى بهذا الشكل هو برهان على ضعف الواقعة .

وعلاوة على ذلك ، يوجد هنا عمود مسلة كتب عليه بالهيروغليفية ، وهو من قطعة واحدة مصنوعة من الصوماكي الأحمر . كانت قد جلبت إلى إستانبول مسلة أخرى مطابقة لهذه المسلة في زمان الرومان ، وانتصبت في ميدان السلطان أحمد .

= والتي شيدت بشكل جميل ، وكذلك عملت الشركة على حفر وافتتاح قناتين لتكون إحداهما للذهاب والأخرى للعودة ، وتمتد من السويس إلى البحيرة المذكورة ، وكان يعلن عن بيع تلك الأراضي : فمساحة ما يقدر بعشرة كيلومترات يصل سعرها مساويًا لثلاثين مترًا من جديد .

أراضى البناء الخالية

كان قلم التنظيم الذى حل محل إدارة البلدية ، قد أقام بشكل رائع أيضًا الشوارع العامة ، وأقام أصحاب الثروات الشوارع الخاصة ، وكان هذا نتاج ما لزم تطبيقه من قرار يقضى بالسماح بالمعاونة على البناء ، بعدما نظفت أولاً مصارف الماء ، أنشئت الشوارع ووضعت فناراتها وأضيئت ؛ من أجل إنشاء أماكن فى الأحياء التى أسست حديثًا بالقرب من مدينة القاهرة أو خارجها ، أو بيع أية قطعة من أراضيها الشاسعة وتقسيمها إلى قطع .

كان هذا القلم الذى يتبع الوزارة النافعة ، قد أمر بتشييد الطرق والشوارع وأرصفتها بالكامل، والتى سوف تؤسس وتفتح فى الأراضى التى يقوم بتقسيمها ، ووضع فناراتها وإضاءتها ، حتى أنه يقوم برش الطرق التابعة لهذه الأراضى الخالية وكنسها يوميًا .

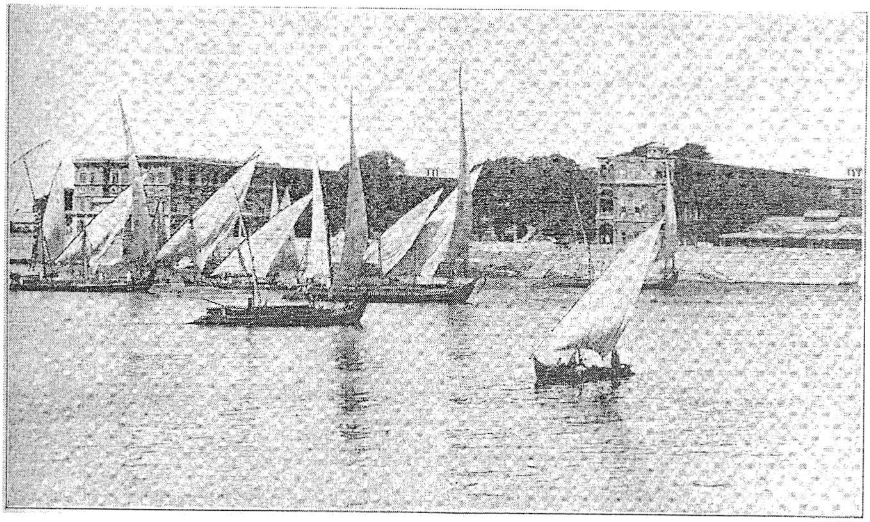
على الرغم من أن كثيراً من الأراضى الخالية المقامة شوارعها بهذا الشكل ، وتنار فناراتها كل ليلة ، وترش شوارعها يوميًا ، فإنه لم يكن قد بنى بها حتى منزل واحد ، أو أن منازلها لا تزال حديثة ، وقد أنشئت تدريجيًا . وفى الوقت الذى يجهز فيه الذين يفتحون الشوارع من مالهم الخاص ، وشوارع الحى التابع للبلدية – متخلين عن خاصية حقوق الطريق – فإن الحكومة مكلفة بتشييد الشوارع المذكورة والمحافظة عليها على الوجه السابق وتضمن المحافظة على نظامها من أجل الإسراع فى تعمير المؤسسات والمنشآت الجديدة وتطويرها .

وفى الحقيقة ، فإن المسألة التى يجدر فحصها هى أنه لم يكن ممكنًا التصديق فى الحال على خطة البناء ورسوماتها وإعطاء المواد المعتادة التى تقدم ضمن طلب

المساعدة من إدارات البلدية من أجل البناء ، وبعد أن يتم الحصول على الموافقة على أسلوب البناء الذى تصدق عليه الحكومة حسب المنطقة فحسب ، يسمح بالبناء .

لا يستطيع مالك الأرض أن يبنى أرضه التى يمتلكها فى المكان الذى يحلو له ، إلا إذا كانت الحكومة قد قررت إنشاءه فى أى شكل على أن يكون البناء على نفس طراز الشارع ونفس الارتفاع أو يحجب بسياج حديدى أو حائط ، أما إذا جزمت ببنائه فى الخلف بأى درجة من سياج المبانى ، حينئذ فإن صاحب الملك يستطيع أن يقوم ببنائه بشرط الموافقة على ذلك الوضع .

بالإضافة إلى أنه يسمح لكل صاحب ملك بإمكانية بناء الأرض التى يمتلكها بدرجة يمكن أن يشغل ربعها فحسب ؛ فهو مجبر على ترك الأقسام المتبقية منها لإقامة حديقة عليها ، وغنى عن التعريف الفوائد التى تعود بالنفع من وراء هذا ، مثل ضمان المحافظة على الصحة نتيجة نقاء الهواء ، والحماية ضد أخطار الحرائق .



صورة رقم (٦٤)

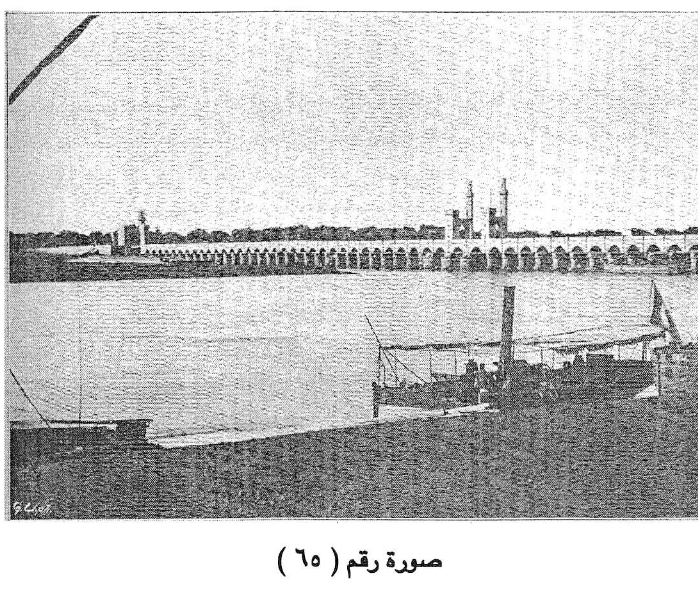
مرور المراكب من كوبرى قصر النيل

أما الحوائط التى تشكل واجهة الشارع، فلا يمكن أن يتجاوز شكلها وارتفاعها ما تفرضه البلدية ، حفاظًا على زخرفة الشارع ونظامه .

غير أنه عند بناء منازل المسلمين فى منطقة تقرر فيها إقامة ساتر سياجى ، فإنه يسمح بشرط إقامة حائط مزين بطول الإنسان ، وإتمام طرفه العلوى بالسياج من أجل ضمان تغطيته . كان يوجد منطقة أسست حديثًا على ضفاف النيل ، أطلق عليها اسم "حارة الجناين" ، وكان قد تقرر تفريق المنازل التى سوف تبنى فى هذا المكان بالسياج تمامًا ، وإحاطتها دائريًا بالحديقة .

القناطر الخيرية

هى القناطر التى يُطلق عليها اسم " القناطر الخيرية " أو " الخزانات " ، وتعد المنظمة والمتحكمة لتيار النيل ، وهى سبب عمار مصر وسبب حياتها . فقد توافرت احتياجات الأهالى ، وخاصةً رى أراضى الأماكن البعيدة عن شاطئ النيل فى كل جهة بمصر السفلى من نهر النيل الذى يعد أساس الحياة بها بواسطة القنوات المتعددة . وتبحر فى كل فرع منها طيلة العام ، وتسافر فيها السفن الصغيرة من أجل نقل المحاصيل ، ويطلق عليها اسم " الترع الصيفية " ، والجهات اليابسة فى موسم الصيف فى قسم آخر يطلق عليها "الترع الشتوية" أو "الترع النيلية" .



صورة رقم (٦٥)

القناطر الخيرية المسماة " خزانات الدلتا "

يُستفاد من النيل فى وقت الفيضان فى أوائله فحسب ، وتنحصر هذه الاستفادة فى بعض الأوقات من العام ؛ حيث تُروى الأراضى المتجاورة فى كل مواسم العام ، وذلك بأن أصدر المرحوم " محمد على باشا " أمرًا ببناء القناطر المجيدية التى تحول اسمها مؤخرًا إلى القناطر الخيرية ، واعتبرت أساس حاضر الثرة القومية .

كان ارتفاع منسوب مياه النيل وانخفاضه قد أعمل فكر " محمد على باشا " الداهية ، وكان قد وضع شخصيًا حجر الأساس الأول للقناطر الخيرية فى الدلتا يوم الخميس الموافق ٢٣ ربيع الآخر عام ١٢٦٣ ، وعلى الرغم من أنها تأسست فى وقت لا يتجاوز عشر سنوات بواسطة مهندس فرنسى يدعى " موزل بك " بتكلفة تقدر بمليونين ليرة تقريبًا ، فقد تمت محاولات لإصلاحها واستكمالها دائمًا من قبل خلفائه أيضًا ، وانصبَّ الاهتمام خاصة على تشييد جميع أنواع المنشآت التى تُحقق الرقى الفنى فى الأزمنة الحديثة (١) ، ولا يمكن لأى زائر شاهد مصر حقيقةً ، ولم يتعمق فى التقصى

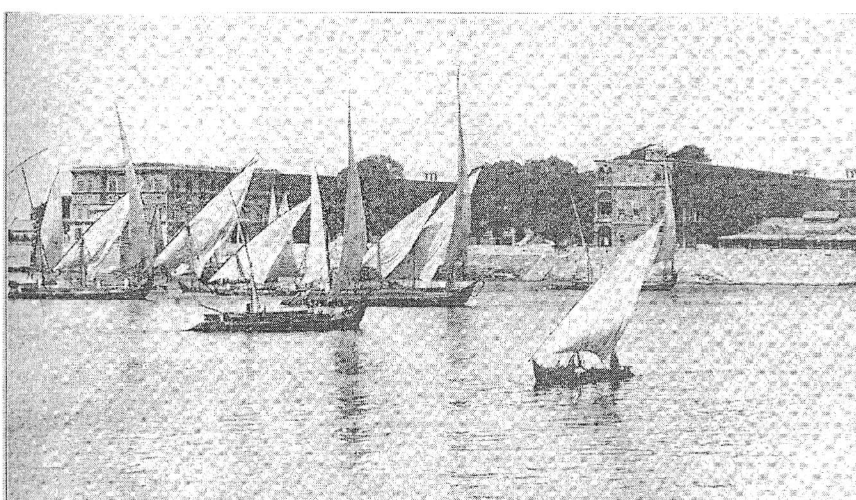
(١) هذه صورة من الكتابات التى تم الحصول عليها ، والتى حررها " محمد على باشا " إلى الباب العالى بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر ١٢٦٣ ، والمتعلقة بإرساء الأساس رسميًا .

" كما هو معلوم لدى أصحاب الفخامة ذوى المقام العالى أن النيل المبارك يتفرع إلى فرعين بعد أن يتجاوز تقريبًا ثلاث ساعات ، ولقد ترسخ فى ضميرى منذ فترة تعمير أراضى قرى مصر المحروسة وبلاد الريان وهى تروى من الترع التى سوف تشق على جانب كل منها ، وذلك بإقامة السدود والخزانات فى أوقات انحسار الماء ، وبتأسيس قنطرة ضخمة للفرعين المذكورين بدءًا من بوغاز رشيد ودمياط حتى انصبابهما فى البحر ، وإقامة الأرصفة التى تقتضى معها جلب الأدوات وإحضار المعدات والأجهزة اللازمة فى ظل قدرة حضرة حاكم البلاد ، وبالذهاب إلى موضع القناطر التى وضع أساسها من قبل وبالمبادرة إلى وضع أول حجر أساس بيدى العاجزة يوم ٢٣ من ذلك الشهر ربيع الآخر ، ومع إيصال دعوات حضرة حامى الخلافة بالتوفيق فى تأسيس وإقامة مثل هذه الآثار العظيمة ، صارت القنطرتان المذكورتان بنايتين ضخمتين ذات منافع وفوائد عميمة . ولقد صدر أمر وفرمان يقضى بإطلاق اسم عبدكم العاجز المهندس " موزل بك " فى بيت له يتعلق بتاريخ منقوش فوق قطعتين من الأحجار المؤرخة اللتين يجب تنصيبهما فى أماكنهما عند إتمام البناء ، وفى ختام هذا الأمر المرسل إلى العبد الحقير يوضح لأصحاب الهمة العالية وأصحاب الفخامة ومرشدًا وعارضًا على أعتاب فلك مقام حضرة الحاكم بأن الترعة المذكورة – التى افتتحت وحفرت بين الإسكندرية والمكان المنتسب إلى اسمه بتاريخ ٣٥ – تنسب إلى اسم حضرة السلطان ساكن الجنان ، كما أن إحراز الشهرة والتزين بزينة صحائف تواريخ الآثار يعد من جملة محاسن ملوك العصر ، وعلى كل حال فهو أمر وفرمان إلى من له الأمر.

فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣ هـ

حول القناطر الخيرية سواءً كان قد شاهدها أو لا ، وذلك لأن معرفة أسباب رقى مصر ووصولها إلى وضعها المتمدن لن يحدث بدون رؤية القناطر الخيرية والتحرى عن المنافع التى توفرها لمصر وإدراكها . اليوم تُولى الحكومة المصرية اهتمامًا كبيرًا جدًا بأمر توزيع الماء ورى الأراضى بواسطة إدارة يطلق عليها اسم (تفتيش الرى) ، وهى تتبع الوزارة النافعة التى تعرف باسم " الأشغال العامة " . وحتى اليوم لم تكتفِ بما شيدته من مؤسسات ، بل إنها تستمر فى التشجيع على الصناعة بافتتاح الجداول والقنوات تدريجيًا حتى الآن ، ويوجد أيضًا مهندسون ومفتشون لكل قناة ، وموظفون وعمال لكل قسم من الجداول .

وهناك إدارة مركزية فى موقع القناطر الخيرية ، كما أن لها مدارس للهندسة والمحاسبة ، وكذلك توجد بالإدارة المركزية خطوط تلغراف وتليفون لتسهيل الاتصالات بالمفتشين والمهندسين . وبناءً على هذا الاهتمام ، فإن الأراضى الصالحة للزراعة ، مهما كانت فى أى موسم من مواسم السنة ، تنثر دائمًا جمال الربيع مثل الزمرد .



صورة رقم (٦٦)

مراكب النيل أمام قصر النيل

ونظراً لعدم وجود أى حاجز مطلقًا على وجه الأراضى - تلك التى يطلق عليها اسم "مصر السفلى" الممتدة من الإسكندرية وإلى القاهرة - فهى تعد قفارى لانهاية لها ؛ فهى تمتد على امتداد مرمى البصر .

يقطع القطار السريع المسافة بين القاهرة والإسكندرية التى تبلغ ٢٠٨ كيلومترات، فى ثلاث ساعات . لا يمكن أن يبدو شبر واحد - من هذه المسافة العظيمة القدر وتلك القفارى اللانهائية التى تبدو من القطار - وهو مزروع ، ولذلك لا يمكن أن يُرى أى طريق إلا ويبدو فسيحًا أكثر مما هو عليه فى الواقع .

تمهيد الأرض : - لا توجد أية عوائق يمكن أن تعترض البصر، سوى النخيل وأكوام التراب المستخرج من الجداول والقنوات المفتوحة ، يتم بذر البذور والحصاد فى كل موسم من مواسم العام ، ويؤخذ من كل حقل ثلاثة محاصيل فى كل ١٤ شهراً .

يُحصد المحصول الأول الذى بُذر عقب الفيضان - عند نضجه ، إن كان قمحًا على سبيل المثال .

وعقب الحصاد يُزرع قمح الذرة ، وبعد جنى المحصول يُزرع البرسيم الذى يستهلك كثيراً جداً فى مصر ، ويروى المحصول الثانى والثالث بالماء المأخوذ من الجداول ، ويؤخذ محصولهما . وينضج محصول البرسيم فى وقت قصير للغاية ، فيتم حصاده من ناحية ويتم استهلاكه ، ومن ناحية أخرى يروى الحقل الذى حصد للمرة الثانية والثالثة ، ويُجنى المحصول عند نضجه . وعلى الرغم من تفضل صاحب الفيض المطلق بالإحسان والعناية وحفظه بالفيض والبركة ، فهو يحظى حقيقة بالوصف المبارك فى ظل توجيه الاهتمام والاستمرار فى إقامة الأعمال الصناعية التى لا تلقى بالاً بما لا يعود بالفائدة ويذهب جفاءً ، وفى ظل رى الأراضى المجاورة وسقايتها بانتظام ، وفى ظل انتظام فيضان نهر النيل وسريانه ، فضلاً عن مدى إمكانية الاستعداد لاستفادة العباد من الألطاف الربانية والقدرة على حسن استعمالها .

يبلغ طول نهر النيل خمسة آلاف وتسعمائة وأربعين كيلومتراً ، ولئن كان عرضه يتغير تبعًا للمواسم ، فإن عرضه الذى يقع أمام قصر النيل بالقاهرة - ويعتبر

وسط القاهرة – يبلغ ٤٤٠ مترًا . ولونه أحمر وقت الفيضان ، وفى زمان الانحسار يصبح لونه أسمر .

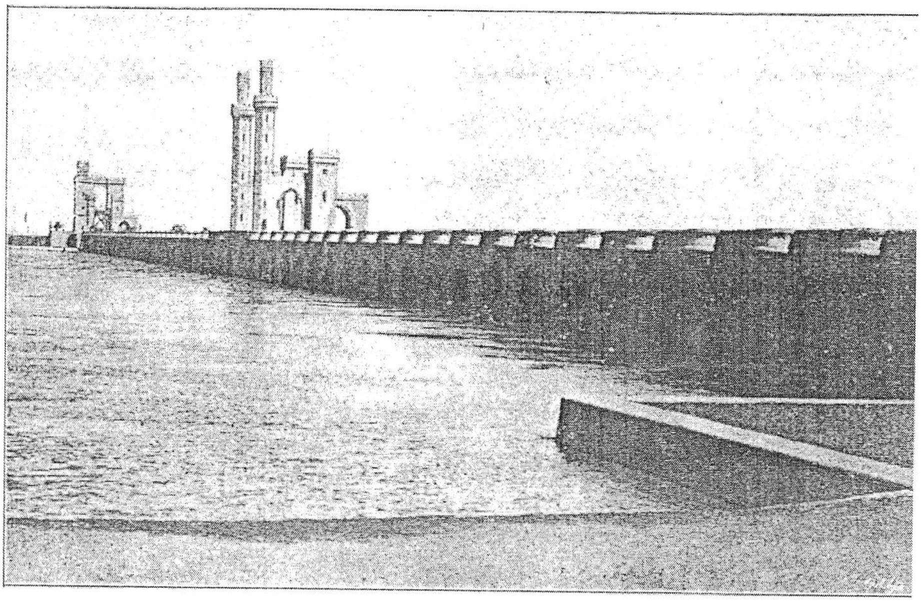
أما فى الأيام العادية فيكون لونه شبيهًا بلونه العادى أمام ميناء الخليج " أيوب " ، وبينما يتعقب نهر النيل المبارك مجرى واحدًا فحسب من الخرطوم وإلى مصر القاهرة ، فهو ينقسم إلى فرعين فى الموضع الذى يسمى " بطن البقرة " فى الشمال الغربى الذى يبعد عن القاهرة بمسافة تقدر حوالى ساعتين أو ثلاث ساعات ، أحدهما شرقًا إلى دمياط والآخر غربًا حيث يتجه إلى رشيد مشكلاً الدلتا .

كانت القناطر الخيرية قد أنشئت – وهى عبارة عن كبارى كل كوبرى منها ضخم ومنظم ومتقن للغاية – فى الموضع الذى ينفصل فيه النيل إلى فرعين رشيد ودمياط . ويستغرق الوصول من القاهرة إلى محطة القناطر الخيرية بالقطار السريع نصف ساعة ، ويتوقف دقيقتين فى كل من محطتى شبرا وقليوب ، ويمكن الوصول إليها أيضًا عن طريق النهر بباخرة التنزه التى يطلق عليها اسم " ذهبية " .

ويفضل غالبًا السفر نهرًا من أجل الإفادة من ضياء القمر فى العودة خلال الأيام التى يصادف فيها وقت تلألؤ القمر . وتقوم أيضًا البواخر التابعة لشركة الترام برحلتين يوميًا . وعند الوصول إلى محطة القناطر الخيرية بالقطار ، فإن المسافة التى يستغرقها فى النهاية للوصول إلى السدود هى ربع ساعة سيرًا على الأقدام وعشر دقائق على طريق رملى .

مُدت خطوط سكة حديدية ضيقة ومزدوجة لتكون ترسينات خاصة بالموظفين فقط ، من أجل العبور من فوق الخزانات بدايةً من محطة القطار ، ومن أجل تجول الموظفين فى جميع المواقع التى يقومون فيها بعملهم ، ويقود هذه الترسينات مصريون . وبسبب أن أحد الرفقاء – خلال زيارتى للموقع المذكور – قد قام بتوصية وإخبار " إسكندر أفندى ديمتراكى " محاسب بوزارة الرى الذى يتولى مهام السكرتارية بمصلحة الرى ، فإننى بالمناسبة أكرر شكرى الذى أدين به إلى هذا الشخص الذى أرسل الترسينة

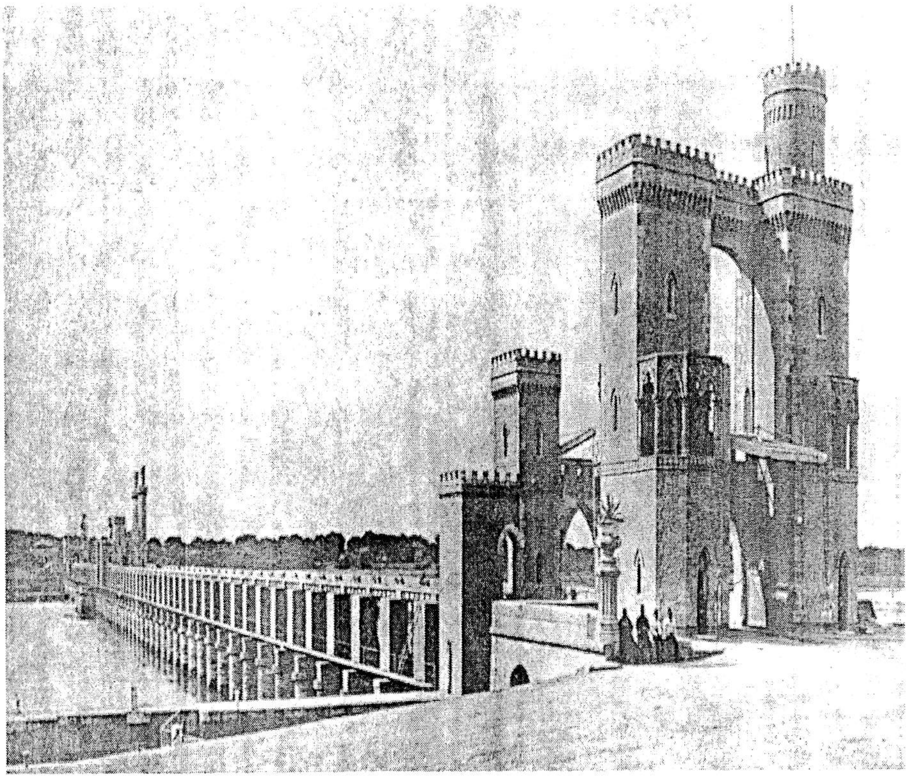
الخاصة بركوبه إلى المحطة ، وأرشدنى وأمدنى بمعلومات حقيقية جداً عن المواقع التى أمر بضرورة التجول فى كل ناحية بها مؤخراً .



صورة رقم (٦٧)

منظر القناطر الخيرية من جهة المصب

وبصفة عامة ، ينبغى القول – من أجل التعريف بالقناطر الخيرية – بأنه كان قد أقيم كوبريان حجريان رصينان للغاية بطول كيلومترين ؛ من أجل المرور من الساحل إلى الدلتا ومن الدلتا إلى الساحل المقابل ، وهذان الكوبريان يختلفان عن الكبارى العادية فى أنهما قد شُيِّدا بشكل قوى جداً وباهتمام فائق ، وهما عظيما الشأن . ونظراً لتهدم أساساتهما وفتحتين أو ثلاث فتحات فى عام ٣٠٦ هـ ، فقد صدرت الأوامر بتشغيل مئات من العمال ليلاً ونهاراً بعد أن تم تحويل الماء إلى الجهة الأخرى وأقاموا حائلاً أمام الفتحات بالأكياس الممتلئة بالتراب على بعد مائتى متر ، وقدر لها أن ترمم ويتم تعميرها خلال شهرين ونصف ، وتكلفت ٦٠ ألف ليرة .



صورة رقم (٦٨)

منظر للقناطر الخيرية المسماة " خزانات الدلتا "

ولكى نستطيع تقديم فكرة موجزة من قبل المختصين عن التعريف بالأهمية التى يحتلها هذان الكوبريان ، نبادر بالإيضاحات الآتية : شيدت دعامات هذين الكوبريين الحجريين والقناطر بعناية خاصة ، وأغلقت الفتحات بصمامات حديدية محكمة ومنظمة تتحرك عمودياً إلى أسفل وإلى أعلى . وتوجد ماكينات فوق الكوبرى تحوى أجهزة تعمل على تحريك الصمامات الحديدية الموجودة فى الناحية التى يأتى منها الماء . وتستطيع أن تسمح بسريان الماء بالدرجة المطلوبة بالحساب ، ويتم تشغيل هذه الماكينات بالكهرباء .

وحينما ينفتح أى صمام أو ينغلق ، يندفع بموتور كهربائى يتحرك بواسطة خط سكة حديدية صغير خاص به .

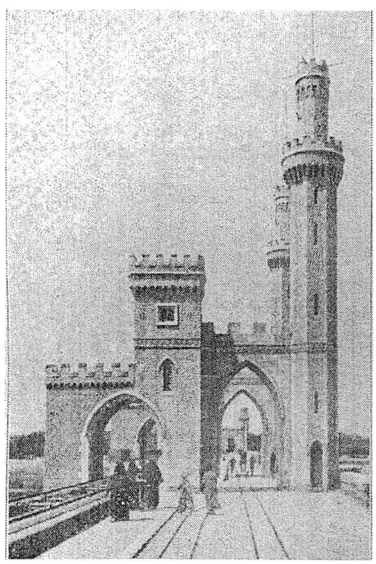
ولقد أنشئت الخزانات حجرية فى الأصل . وكان قد أخذ فى الاعتبار أيضًا سير وتحرك البواخر والقوارب وجميع أنواع المراكب النهرية التى تسافر من البحر حتى وادى حلفا ، ومن هناك إلى الخرطوم وإلى أبعد منها . وعلى الرغم من القول بأن الخزانات أساسًا هى عبارة عن كوبريين ثابتين شُيِّدا على هيئة بنيان حجرى من الأحجار ، فقد ترك مدخل كل كوبرى منهما مفتوحًا وواسعًا أكثر من أقسام الكوبرى الأخر ، وهو ما يُطلق عليه اسم " الهاويس " الذى يعنى " الحوض " كما نعرفه نحن .

إذا أخذنا فى الاعتبار درجة الضغط الذى يحدثه الماء بعد إغلاق جميع الصمامات لمواجهة شدة التيار ، فإنه يكون من المؤكد الإقرار بضرورة ما ألحق من بنايات إلى هذين الكوبرين ابتغاء إضفائه شكلاً وهيئةً ؛ فعلى الرغم من كون الخزان المشيد من الكبارى العادية ، وكذلك رغم سهولة بناء القناطر المقامة فوق دعامات حجرية ، فإن هيئتها العامة تستند بعضها ببعض إلى أسس متينة فى كلا الشاطئين .

وعندما بدا ضرورة إضافة ملحق ضخم ثقيل فوق هذه الأعمدة ، شُيدت بروج فائقة الروعة والصنعة ومزخرفة بأشكال وطرز مختلفة – كما تبدو فى الصور – فى الأماكن التى يجب إحكام أعمدة المدخل وتثبيتها الذى يعد ممرًا للسفن ، وهى مشيدة فى الوقت نفسه لتضفى نوعًا من الزينة والجمال على هيئتها العامة ، وهى تعد من الأماكن المفتوحة الخاصة لعبور المراكب البحرية ومرورها على النحو المذكور ، وينبغى تطبيق شكل فنى مختلف عن الأعمدة الأخرى لضمان قوة الأعمدة الموجودة بالمدخل الذى يعد ممرًا للسفن .

ولا تستعمل الكبارى كخزانات فحسب ، بل اتجه التفكير أيضًا إلى الإفادة من أعلى الكوبرى ، فقد افتتحت لكل منها قنطرة على غرار قنطرة (يكى جامع) على

النحو الموضح فى الصورتين رقم (٦٨) ورقم (٦٩) بارتفاع وسعة تسمحان بمرور كل أنواع وسائل النقل من تحت البروج التى بنيت عند طرفى المداخل ، وتسمح أيضًا بالمرور والعبور . وبسبب أن فوق المداخل من الأماكن المفتوحة ، فإنها تنغلق وتنفتح بسهولة استنادًا إلى البروج كما تبدو فى الصورتين رقم ٧٠ ، و٧٢ . أضيف كوبرى خشبى لكل منها ، وهو محاط بدرابزين من الحديد . ومن وجهة نظر أخرى ، فإن المداخل التى تعتبر ممرًا للسفن تحتاج أيضًا إلى إعادة التفكير ، خاصةً عندما يتزايد الماء وتنغلق جميع الأجزاء الجانبية من القناطر .



صورة رقم (٦٩)

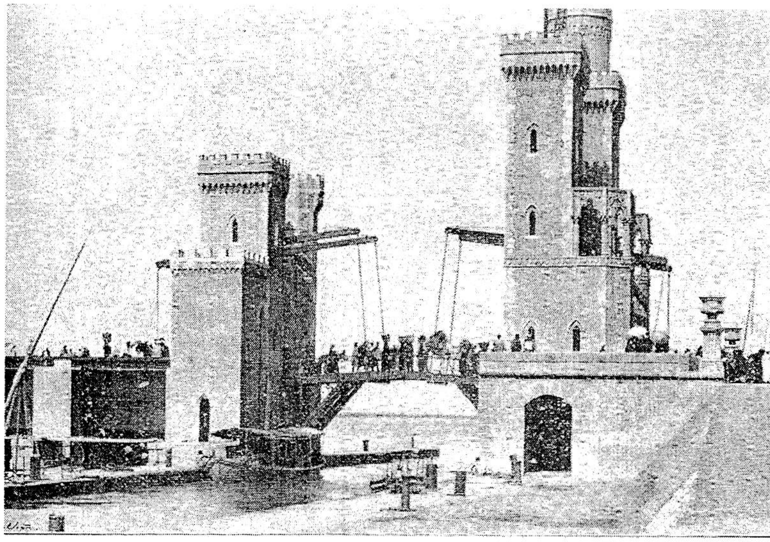
مشهد من فوق القناطر

كان التفكير تجاه علاج الحوادث والمشكلات الناجمة عن هبوط السفن المتجهة من المصب إلى المنبع ؛ أى من جهة البحر إلى ناحية القاهرة ، وارتفاعها من طبقة الماء الهابط وهبوطها إلى طبقة الماء العالية، وكذلك العكس ، عند تحرك أية سفينة من الأعلى إلى الأسفل فى آنٍ واحد .

ولهذا السبب أقيمت تجهيزات خاصة عند طرفى المدخل . هكذا فإنه من أجل أن تكون المداخل أوسع من أساس الكبارى ، فقد أقيمت أبواب متوافقة مثل أبواب الأحواض (الخاص بإصلاح السفن) عند كلا الطرفين ، وتمتد على طول تيار النهر .

ينفتح باب المدخل للمراكب التى تصل من الأسفل ، وينغلق الباب الواقع فى الجهة المقابلة . وبمجرد دخول السفينة إلى المدخل ينغلق باب المدخل ، وتظل السفينة محصورة بين البابين ، وفى هذه الأثناء ينفتح باب الخروج ، وبالتدريج يرتفع الماء وتتفتح أبواب الخروج عند وصولها إلى مستوى الماء الموجود بالخارج ، فيساعد على مغادرة السفينة .

وبسبب إهدار الوقت فى إتمام هذه الإجراءات من أجل فتح الكبارى الخشبية وإغلاقها ، وضمان إياب المسافرين الذين يتحركون على سطح القناطر ورجوعهم ، ومرور السفن من المداخل وعبورها من ناحية إلى أخرى ؛ لذلك فإنه اختصاراً للوقت تُمرر كل ثلاث أو أربع سفن أو باخرة أو مركبتين شراعيتين أو ثلاثة مراكب أو قوارب وتدخل إلى الحوض . ويظل الموظفون - المتخصصون فى فتح أبواب المدخل والمخارج وغلقها ، ورفع الكبارى وإنزالها - على أهبة الاستعداد لتنفيذ مهام وظيفتهم فى كل دقيقة .



صورة رقم (٧٠)

المعبر الخاص بمرور السفن فى القناطر - الكبارى الخشبية

وتعد الدعامات - المقامة على طرفى أماكن الممرات والخزانات التى يوجد فى كل منها القناطر الأربعين أو الخمسين ، وكذلك الممران من أجل مرور السفن فى النهر الذى يحيط الدلتا من الجانبين ، والبروج التى شيدت فوق هذه الدعامات ، لكل برج منها نظام وطريقة مختلفة عن الآخر - يعد كل هذا نتاجًا للآثار العظيمة التى يطلق عليها اسم " القناطر الخيرية " .

يوجد طريق مرصوف بالحصباء منتظم وواسع للغاية يبلغ طوله كيلومتر واحد وعرضه عشرون مترًا تقريبًا ، وهو يبدو فى الصورة رقم (٧١) بين البروج التى شُيِّدت فى نهاية الكبارى وفوق أراضى الدلتا ، ومما يجدر مشاهدته ما تضفيه الأشجار الضخمة من جمال وروعة على المكان ، والمصفوفة على جانبيه منذ أربعين أو خمسين سنة . وقد بلغت اليوم درجة النضج . كانت قد شيدت فى منتصف هذا الطريق تمامًا إدارة ووزارة المياه بطراز جميل خلاَّب ، وقد حُفَّت كل أطرافها بنبات اللبلاب .



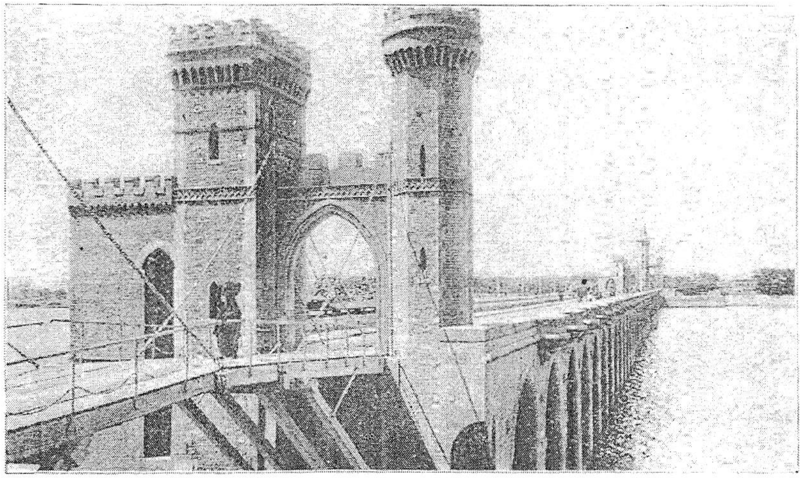
صورة رقم (٧١)

الطريق المرصوف الضخم والواسع الواقع ما بين القناطر فى الدلتا – وإدارة النظارة

يقوم المفتشون والمهندسون فى القنوات والجداول المتفرعة من نهر النيل بوظائفهم سيرًا على الأقدام .

وعندما يقل الماء فى قناة من القنوات يطلب الموظف الماء من الغدارة المركزية – مقدمًا المعلومات بالتلغراف أو التليفون . ويحث موظف المركز على سريان الماء فى القناة المطلوبة ورفع النيل وإغلاق الأبواب التى تتحكم فيها القناطر بدقة من أجل سريان الماء بنسبة معينة داخل المكان المطلوب .

وعلى العكس من ذلك ، يقوم موظفو المركز بإبلاغ أى مهندس أو مفتش آخر بتزايد الماء فى القناة المكلفون بها ، ويعملون على إطلاق الماء إلى جهة البحر ، وقد أمروا بفتح أغطية القناطر هذه المرة إلى الدرجة المطلوبة . وعلى هذا النحو ينخفض ماء النيل إلى المستوى المحدد ، ويتخلص من فيضان ماء القناة المعنية .



صورة رقم (٧٢)

القناطر الخيرية – مشهد آخر للكبارى الخشبية والبروج التى تعتلى الممرات الخاصة بمرور السفن

وعلى الرغم من أنه يتم التخلص من فيضان المياه الزائد عن حد نصاب القنوات والجداول (عن طريق السماح بسريان الماء الزائد ناحية البحر) . وفى بداية فيضان النيل تفتح أغطية الفتحات بالقناطر الخيرية حسب الضرورة ، وينفتح الخليج طبقًا للتقليد القديم ، الذى يمر داخل مدينة القاهرة ، إلا أنه لا تتوافر التجهيزات السابقة لكى تكفى لوصول الفيضان إلى درجة الكمال ، ويصب ما تبقى من الماء الفائض فى الوادى " الخليج " .

الخليج :

وهو واد مهد جانباه بالأحجار ، ولقد أصبح المكان الذى انتهت إليه خزانات النيل والمسمى " العيون " – التى أُقيمت لإيصال الماء من النيل إلى القلعة – علمًا للمنطقة التى سميت باسم "الخليج" . يتصل "الخليج" بالنيل اعتبارًا من هذا المكان

المذكور ؛ حيث يبدأ به ، وينتهى بقرية " أبى زعبل " ، وهى من ملحقات مديرية قليوب ، وينعطف على حافة جبل الجيوشى الذى يحكم شمال شرق مصر ، ويمر بمنطقة العباسية الواقعة شمال شرق القاهرة ، وكذلك يمر بوسط المدينة . وحتى الآن يفتتح مدخل "الخليج" هذا بمراسم المدينة القديمة جداً . ويسارع أهالى المدينة والموظفون الحكوميون فى إقامة تقاليد مراسم الافتتاح فى اليوم المذكور ، وتُنار الفنارات والقناديل بالمدينة ليلاً ، وتعم البهجة والسرور .

كانت المشاعر العاطفية فى العصور الجاهلية الغابرة تميل نحو عادات سخيفة ومجموعة من القوانين تُوحى بالشرك والحماقة ، ذلك أنهم كانوا يعتقدون بأن فيضان النيل يتوقف على تقديم قربان يتمثل فى تزيين عروس بكر يطلق عليها اسم "عروس النيل" ، وتُلقى فى النيل . وحينما قام عمرو بن العاص فاتح مصر باستئذان العتبة العلية حضرة الفاروق الأعظم ، أصدر الأمر بكتابة هذه العبارة " أيها النهر إذا كنت تجرى بالإرادة الإلهية البالغة فَفِضْ كاملاً ، حينذاك لن يكون بمقدرتك ألا تفيض " ، وألقيت فى النيل ، وفى تلك السنة فاض النيل أكثر من المعتاد ، وألغيت تلك العادة الأليمة .

يبدأ نهر النيل فى الفيضان فى السابع عشر من شهر يونيو الإفرنجى من كل عام ، ويظل حتى الواحد من شهر سبتمبر ، ويبدأ فى الانحسار تدريجيًا اعتبارًا من العشرين من أكتوبر، ويصل إلى درجة الانحسار القصوى فى شهر أبريل .

يوجد مقياس النيل لإظهار الفيضان والانحسار ، فى كل من روضة الجزيرة بالقاهرة وأسوان ، كما توجد مقاييس عند مداخل العواصم : أسوان وأخميم وحلوان ومدينة ممفيس من عهد القدماء المصريين ، ويُقال إن حضرة سيدنا يوسف عليه السلام قد أمر بإقامة مقياس للنيل منذ البداية .

تُقام مراسم افتتاح الخليج على الوجه السابق ذكره عندما يصل فيضان النيل إلى الحد المعتدل فى مقياس جزيرة الروضة ، وهو ١٦ ذراعاً .

يعد أسامة بن زيد التنوحى والى مصر فى عهد حكم سليمان بن عبد الملك الثانى الأموى - هو المؤسس الأول لهذا المقياس عام٩٧ هـ ، وبعد ذلك جدده المأمون ، وهو من الخلفاء العباسيين عام ١٩٩ هـ ، ثم أقيمت له الإصلاحات من قبل يزيد بن عبد الله التركى والى مصر من قبل المتوكل على الله العباسى عام٢٤٧ هـ .

وكان المستنصر بالله - وهو من الخلفاء الفاطميين - قد أصلح البناء الموجود حتى الآن ، وفى النهاية قام محمد على باشا بترميمه .

حديقة القناطر الخيرية

هى حديقة عامة تقع فى مقدمة الدلتا فى الموضع الذى ينقسم فيه النيل إلى فرعى رشيد ودمياط ؛ فقد أحيطت جوانبها الثلاثة بفرعى النيل ، والجانب الآخر بشارع كبير فخم بين القناطر التى سبق ذكرها فى المبحث السابق . وهى تشبه الجنة ؛ حيث انصب الاهتمام بتقسيمها تقسيمًا منظمًا ، وبزخرفتها بشكل خاص ، ويبلغ حجمها فى حدود كيلومتر ونصف أو كيلومترين مربع .

قدم إلى هذا المكان منذ فترة الخديوى بمفرده بالباخرة من القاهرة ، عندما كانت حديقة مخصصة لنزهته، إلا أن الحكومة الحاضرة لم تكتفِ بالالتزام بتعميمها فحسب ، بل أولت اهتمامًا كبيرًا بتوسيعها وزخرفتها ، وقدمت كل ما يمكن اتخاذه من تسهيلات ، وأعطت المبالغ المخصصة اللازمة لكل أنواع المصاريف ، علاوة على تعيين كثير من المستخدمين بالحديقة ، وهم : البستانى والحارس وحارس الكوبرى وصاحب القنال وحارس الترسينة بالقناطر ، ولقد جعلت عدد الموظفين - بالإضافة إلى الموجودين منهم - مائة وثمانين شخصًا .

كان قد تم تخصيص أربعين أو خمسين ليرة للأشخاص الذين قدموا من لندن تحت مسمى " حراس الحدائق "، واستكملت احتياجات الحديقة للزخرفة بالشكل الذى اتفق عليه من تقديم كل النفقات الضرورية بلا أدنى تردد . وفى الحقيقة ، فإن تنظيم الحديقة اليوم وتقسيمها يأخذ بالألباب ؛ فهى طبيعية للغاية ، لدرجة يستحيل لأى زائر لها ألا ينجذب لتلك المناظر الخلابة ، ويظل بداخلها على الدوام ، ولا يمكن أن يلمس فيها عيبًا . تُفتح هذه الحديقة اليوم أمام الأفراد بلا تذكرة للدخول ، ويتجول المسلم

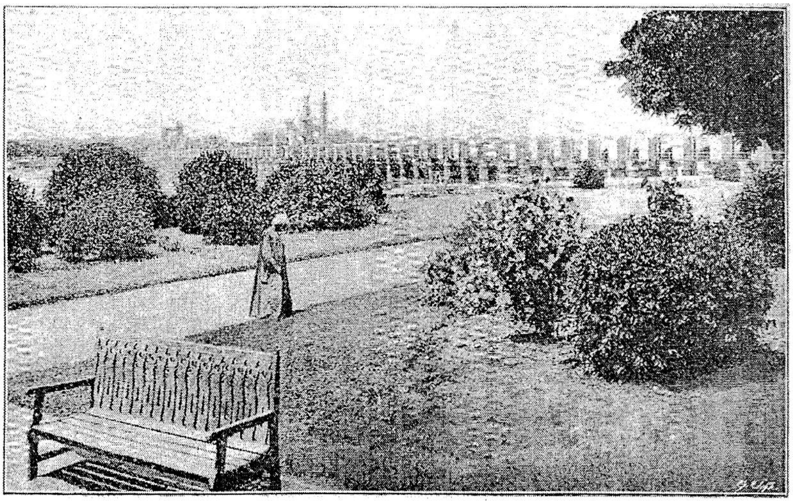
وغير المسلم ، الفقير والغنى ، الفرد والجماعة ، بل ويتجول بها أى فرد مع أسرته شريطة اتباع التعليمات المعلقة فى كل مكان .

توجد أيضًا المراجيح المعدة للكبار والأطفال ، وتتوفر المناضد والآرائك المجهزة للطعام الخاص بالعائلات ، والأماكن التى تقوم بالطهى . وينفرد مكان تناول الطعام فى زاوية من الزوايا العارية من الأشجار والأغصان ، وقد فرشت أرضيته بالرمل ، وهو يعد مكانًا فريدًا مميزًا . نظمت الممرات الدائرية التى تحيط بالحديقة تنظيمًا رائعًا ، وفرشت الرمال عليها بشكل ملائم ، وازدانت الطرق بالزهور وأشجار الجنة .

كانت الأشجار المسماة بأشجار الرحمة ، والتى شُذبت على شكل رقائق رقيقة بدت بارتفاعات متناسقة ، وانتصبت فى مؤخرتها بأبعاد متساوية ، قد شكلت سياجًا وحائطًا . وضعت الآرائك النظيفة والملونة فى أماكن مناسبة فى الممرات ، وتوفرت بهذا الشكل استراحة للزائر ؛ فقد أقيمت أحواض دائرية من الزهور ، وزرعت أشجار غير معروفة ، وانحدرت الأراضى ، وارتفعت بميل جذاب لتكتسى الحديقة تمامًا بالأعشاب الخضراء . ولقد حُددت بقايا تجريف النيل بإنشاء حائط حجرى يميل ميلاً منتظمًا على جانبى النيل بشكل دائرى ، وانتصبت سلالم حجرية فخمة منتظمة ، ووضعت رؤوس الأعمدة من أجل تقصير المسافة وتيسيرها على السائحين القادمين من القاهرة عن طريق النيل ، ومن أجل أن تكتسى الحديقة تمامًا بالمروج والعشب فارتفعت الأراضى وانخفضت بميل مناسب .

تعد التعليمات الخاصة بالتحرك داخل الحديقة معتدلة جدًا ؛ فهى عبارة عن عدم قطف أوراق الأشجار والزهور ، وعدم إلقاء القمامة على الأرض والمروج ، وعدم التجول فوق أعشاب المروج ، وعدم تناول الأطعمة فى الأماكن غير المخصصة لذلك ، وتشمل التنبيهات الصادرة من قبل الموظفين المختصين ، عقوبات نقدية ممن يخالفون هذه التعليمات فى تحركهم ولا يلتزمون بها ، بالإضافة إلى أنه يوجد قسم خاص فى الحديقة يحظر على أى شخص أن يدخله ، وقد انفصل بسياج ، وهو عبارة عن سور

وحبال وباب خشبى مصنوع ، ويبدو بشكل طبيعى بدرجة لا يمكن تمييزه بسهولة إذا لم يشر إليه .



صورة رقم (٧٣)

الحديقة العامة بالقناطر الخيرية

تحتوى الطرق الضيقة الهابطة والصاعدة على رقع مزروعة مكونة معظمها من جذوع الأشجار ، وأقيمت المحاولات لجمع الكثير من الأزهار النادرة فى هذا المكان ، واستعمال الأجهزة المتنوعة بأشكال مختلفة ؛ فعلى سبيل المثال أقيمت بحيرة اصطناعية راكدة منخفضة ، واستزرعت الأزهار النادرة التى تنمو وتترعرع فى بحيرة ، ووضعت آرائك فى الأماكن المنزوية المناسبة ، وازدان سطح البحيرة المائل بالزهور اللطيفة الخلابة من جنس اللبلاب ، أو من جنس عاشق الزهور ، وبالأشجار الظليلة .

انتصبت تماثيل فى أماكن شاعرية فخمة ، خالية من الحساد والمتلصصين ، وهى تعد رمز الجمال ، حتى إنه يمكن أن تعتبر متنزهاً للجن أو هى خلود العشاق .

أقيم عدد من الكبارى التى تصلح للاستخدام بالحدائق ، خاصةً وقد أنشئت الكبارى المعلقة ، وبسبب وجوب اهتزاز هذا الكوبرى عند المرور فوقه ، فقد بسطت ألواح خشبية منتظمة فوق أسلاك مربوطة بخطوط من أسلاك فولاذية رفيعة للغاية فيما بين الأعمدة الحديدية التى أقيمت بشكل جيد على جانبيه ، وتوجد بكثرة نباتات قيمة وثمار تم استزراعها بعناية تامة مثل أشجار الموز والأناناس والقشدة ، فى منحدرات الحديقة ومرتفعاتها ، وفى السدود والسلالم المشكلة من جذوع الأشجار الطبيعية ونبات اللبلاب وأنواع من الزهور ، وحينما يتكشف عن رقعتها المزروعة ، يظن أنها أقيمت من الأشجار المجتثة والميتة .

ولا يمكن على الإطلاق عدم إبداء الإعجاب تجاه جمال الطبيعة التى تبدو على شكل بانوراما عند مشاهدة قوارب النيل ذات الأشرعة البيضاء العالية التى تتهادى بين أعواد قصب السكر والصنوبر خلف السدود الخضراء المقسمة بعناية ، والتى تتكون من عفص البلوط ونبات الغار .. وعند رؤية بقاع الورود الجميلة ، ومشاهدة نخيل البلح الذى يبدو وكأنه فى غابة من حقول الشعير الخضراء تمامًا ، والذى يكتسى تمامًا اللون الأصفر ، حتى إنه لا يمكن أن تنجذب الأعين فيما بعد إلى سفن البواخر الصغيرة التى تمر بسرعة فيما بينها .

ومن المحال عدم استحسان المقدرة البشرية ، وإمكانية التعرف على الأذواق الداخلية التى استغرقت فيها وتصوير جمالها فى الحقيقة ، بينما يتهادى النيل بتيار بطىء غير محسوس فى كل مكان ، فإن العين تستطيع أن تميز سرعته فى هذا المكان .

تتعرض المراكب ذات الأشرعة العالية للعديد من المشكلات حسب شدة التيار أحيانًا ، وأحيانًا تتجمع بعض القوارب ، ويقتضى تعرضهم لأحوال يصعب معها التحرك مع بعضهم البعض واجتماعهم سويًا إلى إطلاق تعبيرات معروفة خاصة بالملاحين .

يضطر الزائر إلى الاستغراق فى متابعة مشاهدته لهم بدافع الفضول . وعلى الرغم من أن متابعتهم تمتزج مع جمال ما تتحلى به الأشياء من ألوان ، مع برودة لذيذة وشمس براقة ونغمات مألوفة ، فإن أول ما يراه ويواجهه هو رؤيته لمنظر واحد وإذا كان لديه الرفيق الذى يجيب على الأسئلة التى يطلقها بدافع الفضول ، فإنه ينبغى أن يكون فى حالة روحية ناتجة عن كل هذه الأحوال المبينة ؛ حيث إننى أشعر أن ذكرياتى هى عبارة عن بضع ساعات قضيتها فى التجول بهذه الحديقة الجميلة والشاعرية .

وفى الحقيقة ، فإننى أجزم – نظرًا لنقاء الجو وجمال الموقع الذى يشتهر به الإقليم المصرى – بأنه لم توجد ، ولا يمكن أن توجد ، أجمل من هذه الحديقة التى لاتزال تلقى مثل هذه العناية بزخرفتها خاصةً فى الوقت الحالى ؛ فهى جديرة حقًا بأن يطلق عليها لفظ " تمثال الجمال " .

بينما كان هذا المكان من قبل خاصًا بتنزه واستراحة ذات الخديوى السامية ، إلا أنها افتتحت للعامة اليوم ، وزاد الاهتمام بتزيينها أكثر من ذى قبل .

أما ملاحظاتى وآرائى الخاصة – على سبيل المثال – فيما دفن فى أهم مواضع الحديقة التى نحن بصدد تعريفها ، وإقامة مراسم جنازة جنديين من جنود عساكر الإنجليز كانا قد لقيا مصرعهما غرقًا بعد نزولهما النهر من أجل السباحة بهدف طفولى فحسب ؛ فقد نقلتُ هذه الآراء إلى المواضيع الأخرى التى تعد من متطلبات القناطر الخيرية بناءً على أنها سوف تشكل مبحثًا خاصًا بالقسم الثانى من الكتاب .

كان قد أعلن أنه سوف يخصص ٣٧٨ ألف ليرة إنجليزية من أجل رواتب مفتشى القناطر الخيرية ومهندسيها وموظفيها ومستخدميها وحراس الحدائق الموجودة بالقناطر ومن يقومون بأعمالها .

متحف المنشآت المياهية

كان العديد من الأعمال والمنشآت قد تم تنفيذها من أجل الإفادة من كل نقطة وقطرة للنيل الذى يعد أساس الحياة فى مصر ، ولا تزال الجهود مبذولةً من أجل ذلك حتى الآن ، وتُجرى محاولات كثيرة اليوم حتى لا تضيع ١٣٠٠٠ متر مكعب بلا إفادة من الماء الذى يصب فى البحر الأبيض فى كل ثانية . ويجب أن يكونوا قد نجحوا اليوم فى الكثير من التطبيقات العملية التى تهدف إلى الإفادة منها ، حتى يتجه التفكير فى أسباب تلافى هذا الضياع ، وإبداء الآراء حول هذا الموضوع.

وفى الحقيقة ، فقد أثارت الأعمال الصناعية والمنشآت المياهية التى طبقت من أجل الإفادة من النيل ، انبهار العقول . لا يمكن أن نكتفى برؤية ما يبدو من هذه المنشآت فحسب - مثل رؤية السد الضخم أو الكوبرى - لتحديد مزية هذه المنشآت ؛ إذ إنه لابد من معرفة كيف يتسنى لهذا السد أن يُبنى دون تغيير مجرى النيل حسب عمق النيل وسرعة جريانه ، وما هى الترتيبات التى أقيمت اليوم فى قاع النهر الذى يغطيه الماء ، وما هى المحركات والمساند التى لا تُرى مداخلها ومخارجها ، وبأى صورة وبأى وسيلة تستفيد الأرض من قناطر قد شُيدت عليها ؟

إن الإجابة على كل ما يرد على الخاطر من تساؤلات ، يكمن فى زيارة لمتحف المنشآت المياهية ، على الرغم من أنه يمكن أن تبدو تلك الملاحظات التفصيلية لا داعى لها ، فإنه لا يمكن أن نستوعب معنى الرقى والتمدن دون رؤية النيل الذى يعد سببًا لهذا التمدن ، فهو الثروة والرفاهية التى يمنحها لمصر ، والمنافع التى يضمنها لها ، والتدقيق وفحص كل ما يمكن تطبيقه والإفادة منه ، وإلى أى درجة قد شُيِّدت المؤسسات التى تظهر خلال التجوال .

وعلى هذا النحو ، أقيم متحف المنشآت المياهية لهذا الغرض . كان الأمل الذى حدا بالمؤسسين إلى الاستكشاف وتقدير هذه الحقائق تمامًا ، قد أدى بهم إلى أنهم وضعوا للمتحف نموذجًا مفصلاً لكل التجهيزات والمؤسسات على مساحة صغيرة تهدف إلى الإفادة من النيل فى الإقليم المصرى حتى العصر الحاضر .

قمتُ بزيارة خاصة للمتحف المكون من طابق واحد على طرف الحديقة التى سبق وصفها من قبل ، ويصعد إليه بسلم مكون من أربع درجات ، وهو عبارة عن صالون قاعة مستطيلة واسعة ، وكان قد انتصب على سلم الحديقة مدفع برنزى قديم الصنع كان قد أمر بتصنيعه فى الدلتا " سعيد باشا " الوالى الأسبق ، ونقل اليوم من القلعة التى تبدو فى حالة من الخراب اليوم . وعندما رُفع غطاؤه المصنوع من أقمشة القلاع ، تبين من الأرقام المحفورة عليه ، أنه قد صنع عام ١٢٢٦ هـ ، وبدا فى حالة مصانة ، فهو نظيف .

عند الدخول إلى الصالون بدا الكثير من النماذج المصنوعة من الأخشاب بشكل فنى فوق مناضد منفصلة عن بعضها البعض ، والمدهونة بشكل يجعلها تشبه الأصل تمامًا ، والتى اختلفت ألوان الثرى فيها ، أما الأحجار فقد استخدمت كخطوط مشتركة فيها .

لاحظنا قبل كل شىء نموذجًا للقناطر الخيرية ، ومما يجدر ملاحظته بدقة أساس الأماكن المحجوبة التى عبرنا فوقها ، مثل الكوبرى الذى يعلوها ؛ فنظرة إلى دعامات الكوبرى : أشكالها ومظهرها الخارجى والمشيدة من أجل مقاومة ضغط الماء ، وأيضًا نظرة إلى أرضية الكوبرى ... وهى عبارة عن بناء حجرى منتظم الدرجات شُيد على امتداد كبير من قاع النهر من أجل المحافظة على دعامات الكوبرى وجميع خزاناته ضد تجريف تيارات الماء مع مرور الوقت .

شُيد هذا البناء بطراز يجعل تلك الأغطية الحديدية الضخمة تهبط وتصعد تقريبًا داخل تجاويف تفتح وتغلق بأجهزة ميكانيكية ، وكذلك الدعامات الموجودة فى عيون الممر ، وهى تبدو تحت الماء بشكل واضح المعالم والتفاصيل ؛ فتبرز العلامة التى تسمح

بمرور الماء المقدر له بالحساب ، وفى أى درجة ، ووضع الأغطية ومفصلاتها والتجاويف الجانبية المقاومة لتضييق الماء الذى يرتفع إلى سطح الماء المرتفع ، والسلاسل المربوطة من أجل غلق الكبارى الصغيرة وفتحها بسهولة ، والتى سبق تعريفها من قبل ، بواسطة أجهزة أُرسيت فى قاع النهر هنا ، والبكر الذى يلفها ، كل ما سبق ذكره كان يبدو وكأنه يؤدى المهمة المنوطة به .

وفى نموذج آخر ، يتضح من رؤية القناطر الخيرية – وهى تبدو تحت الماء ومغطاة أسطحها الجانبية بزجاج ملون يفصلها عن الماء ؛ لكى يتكشف كيف تم تأسيسها وإنشاؤها خطوةً بخطوة تحت الأرض ، بدايةً من الأساس وحتى الحوائط التى تتعرض للتيارات الجارفة – يتضح منها أن الأرض طبيعية ؛ فهى رملية وترابية ، ولهذا فإن الطبقة الأولى كلها ، وكذلك الطبقات الثانية والثالثة والرابعة ، قد بدت طبقاتها منفصلة عن بعضها بعضًا ، وعلى هذا فهى مشيدة من الأحجار والماء المجصص ، أو من الأحجار الصغيرة والأسمنت .

وفى موديل آخر ، وضعت الأجهزة المعدة لوضع أساس للمواقع التى لا يمكن تغيير مجرى للنهر فيها ، وقد أقيمت جميعها بشكل دقيق حتى تصل إلى المسامير والحبال الضخمة ، وتبدو كذلك كيفية ربط الأخشاب التى تحيط بها وتثبيتها ، والأعمدة التى ترتكز على النيل وقت البناء . وبهذا الشكل تثبت فى هذا الموضع الذى يبدو على شكل مخزن يمتد حتى داخل صندوق ضخم يبدو ارتفاعه، وكأنه يصل من قاع النهر إلى سطح الأنابيب النحاسية التى تمتد طوليًا من سطح الماء إلى القاع بمسافات مناسبة ، وبهذا الشكل تفتح التجاويف الموجودة فى جميع أطراف الأنابيب . أقيمت السلالم الخاصة بصعود الغواصين وهبوطهم ومعهم أدوات الغوص ، والتى يتحزمها الغواصون العاملون بالضرورة داخل الماء .

والخلاصة أنه قد صُنع نموذج لمضخة الهواء والأنبوبة البلاستيكية الخاصة بدفع الهواء للغواصين ، صنعت بحجم ضخم وبنسبة معينة ، ولم تهمل حتى أدق التفاصيل

الإنشائية ، والمستلزمات العادية التى استعملت وقت البناء - مثل الدلو والمسطرين وبراميل الأسمنت - فقد وضعت وتم عرضها بدقة ونظام .

ومن ثم يمكننا بتعريف بسيط يقدم لأى زائر يرى هذا الموديل ، لكى يستطيع أن يفهم بسهولة شديدة أنه قد شيد عمودًا خرسانيًا ، ولقد تحجر الأسمنت الذى كان سائلاً ينفذ خلال الأحجار الصغيرة من بين الثقوب بدايةً من الطبقات السفلى، وتدريجيًا يصب فى الأنابيب النحاسية بواسطة مدلاة من الأسمنت المذاب فى أوعية خشبية بالحوض البارز فى النموذج بعد أن تقذف فى البداية كتل الأحجار الصغيرة فى هذا المخزن . ينبغى فصل وشق الجداول والقنوات المتفرعة من النيل ، من منتصفها ، أو ينبغى عدم حدوث خلل فى التسوية المطلوبة ، والمرور من فوق بعضها البعض حسب احتياج الأرض . ولهذا السبب تبدو الأشكال الصناعية التى تمثل أساس بنائها ، مستقلة فى نماذج خاصة بها أيضًا .

ولا يمكن الإفادة من قوة تيار النيل فى الإقليم المصرى ؛ نظرًا للبطء الشديد لتيار النيل ، وهو يتبع ميلاً بسيطًا ، فى حين أنه يشكل الشلالات فى المواقع البعيدة جدًا ، كما هو الحال فى موقعى أسوان ووادى حلفا ، وتبلغ سرعة تياره ألفين وأربعمائة متر فى الساعة فى المتوسط ؛ فهو يجرى بميل اثنين على الألف من شلال أسوان حتى القاهرة ، ودرجة واحدة على الألف من القاهرة وحتى البحر الأبيض ، وتبلغ سرعة تياره وقت الفيضان عشرة آلاف متر مكعب فى الثانية فى المتوسط .

ومما يلفت النظر فى نماذج المنشآت الصناعية التى شيدت من أجل بناء هاون الأرز ، وتدوير طاحونة حجرية على طراز عتيق ، وتشغيل مضخة بقوة سرعة التيار أو بقوة شدته الناتجة عنه . وما يجذب استحسان الأنظار أكثر من ذلك ، هى النماذج التى تبرز إمكانية الحصول على اندفاع الماء إلى الطبقات العليا بواسطة المضخات التى ينبثق الماء منها فى حجم الخصر ، والتى يُطلق عليها اسم " الساقية " ، وهو يجرى فى الطبقات السفلى بواسطة المضخات المقامة بشكل تمتزج فيها الأجهزة الفنية والمعدات الصناعية ، وتتحد معًا بالاستعانة بالتسهيلات التى تمنحها فروع التطورات

الفنيـة الصناعيـة للمناطق التى لا تسـتطيع أن تتـمكن من الحـصـول على شـلال اصطناعى، أى رفع الماء تدريجيًا وانصبابه من انحدار مفاجئ ورفعه تدريجيًا بسبب ضعف التيار .

والخلاصة أنه على الرغم من سهولة الحصول على معلومات كافية لإيضاح الحقيقة لدى عقل الزائر ، بواسطة مشاهدة نماذج من التطبيقات الصناعية الخاصة بالمنشآت المياهية والبحث عن متحف المنشآت الصناعية التى تحوى كل هذه النماذج ، فإنه قد استحدث أثرًا أكثر إعجازًا وأكثر إفادةً ، ويستدل به عمليًا على نتائج المنشآت الصناعية المتعلقة بالإدارة ، بهدف توسيع محصلة المعلومات ؛ لذا فقد قمت بزيارة هذه الإدارة بعد المتحف .

خريطة الرى التطبيقية المجسمة

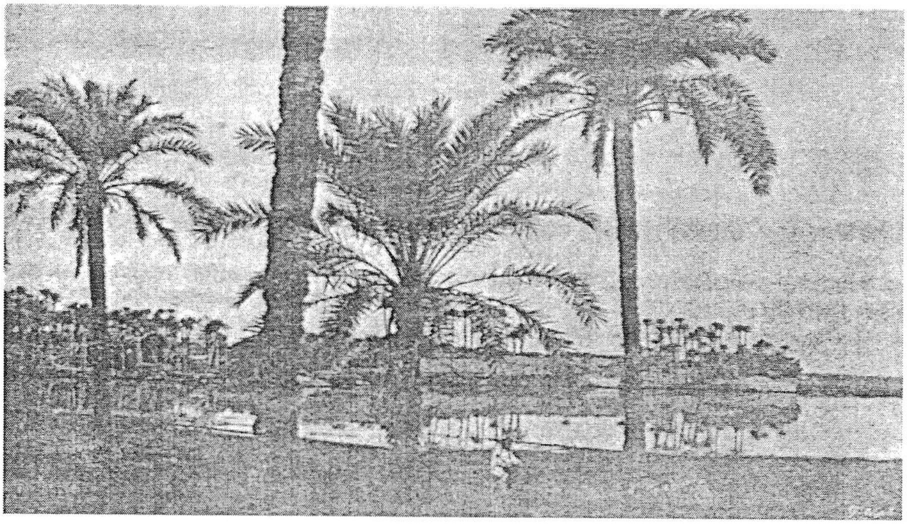
وتقع فى موضع وسط بعد ممشى دائرى محاط داخليًا بسياج خشبى وبأطرافه حجرة تقع خلف متحف المنشآت المياهية ، وتبلغ مساحتها ستة وثلاثين مترًا أو أربعين مترًا مربعًا . ولقد وضعت خريطة بارزة لمواقع معينة للإقليم المصرى ، وهى ملونة بمقياس يمكن أن تبدو للوهلة الأولى بأنها مجارى مياه خاصة .

بدت مساحات من السهول بلونها الأخضر ، والقرى الموجودة هنا وهناك مليئة بالنخيل ، كذلك كان نهر النيل مرسومًا بالجزر الواقعة بداخله ، وباتساع نسبة معينة فى مجراه الداخلى ، وبالعمق الحقيقى لمجراه الطبيعى ، بل إن مدينة الفيوم التى بدت على شكل مدينة ، كانت تظهر طبقًا للخريطة بمنازلها وشوارعها ، وعلى الرغم من دقة هذه الخريطة التى ترسم وتهيئ شكل الجبال المحيطة بالسهول الخضراء وارتفاعاتها وميل جوانب الجبال ، بل حتى ألوانها بشكل يحاكى حالها الطبيعى ، فإن إقليم مصر العظيم كان يبدو من زاوية واحدة .

لم يكد يفتح الحارس صنبور الماء الحقيقى الذى انسال على المجرى بأمر مرشدنا ، حتى ارتفع الماء الذى بدأ يجرى بهدير جميل ، ويرتفع تدريجيًا من الطبقات السفلى فى قاع النيل ، ويملأ المجرى بدرجة حقيقية . فى البداية ظهرت جميع الجزر التى يمكن تمييزها بسهولة ، وتدريجيًا يبدأ فى الانصباب فى الجداول ، ثم بعد ذلك يجرى فى الأنهار والقنوات الصغيرة . وبعد أن يصل إلى حد معين من جريانه فى الكبارى العلوية والممرات السفلية طبقًا للمنشآت الصناعية المقامة فى أماكنها ، يبدأ فى الجريان خارج الخريطة من مجارى خاصة .

تكون رؤية الزوار من بعيد ومن الجوانب ، وعلى الرغم من أن مشاهدة هذه الصورة بشمولية عامة تجذب النظر فى البداية ، فإنه من الممكن التجول حول الخريطة حتى المكان المطلوب ، وخلال الصعود فوق الكوبرى المعلق الذى شيد من ألواح خشبية ثخينة وطويلة تتحرك بعجل خاص فوق القضبان ومصطفة على جانبى الخريطة للراغبين فى الوقوف عن قرب خلال المشاهدة ، وفحص التفاصيل البنائية ، والتوقف عند المكان المرغوب فيه .

وإن كان يوجد شىء يمكن أن يوصم بنقص أو عيب فى متحف المنشآت المياهية الذى يظهر بشكل تطبيقى ؛ فهو عدم توضيح حاله وقت فيضان النيل ، حينذاك يمكن استعمال كلمة (عيب) بالنظر إلى كمال تجهيزاته . هكذا فإن القناطر الخيرية التى أسست عام ١٢٦٣م من قبل المرحوم " محمد على باشا " بغرض إفاضة الماء فى القنوات والجداول إلى القفارى الجرداء لرى الأطراف والمناطق القريبة منها بالماء فى أوقات انخفاض المياه ، وهى تعتبر بناءً عظيمًا ، شيد فى وقت لا يتجاوز عشر سنوات ، وبلغت تكاليف إنشائه مليونين من الجنيهات .



صورة رقم (٧٤)

إحدى قرى مصر المحفوفة بالنخيل – بقية آثار فيضان النيل

وعلى الرغم من أنه لا ينبغى عدم ذكر مؤسسيها إلا بكل احترام ، والتقدير لآثارهم ؛ لما أبدوا من اهتمام بتنفيذ المؤسسات النافعة مثل هذا البناء وغيره ، فإنه ينبغى التنويه إلى أن إحراز شرف تأسيس هذه القناطر المسكينة كان مقدراً على جبينها بتغيير اسمها بصفة مستمرة دائماً ، فقد كان محكوماً عليها بتحويل اسمها إلى القناطر الخيرية ، بينما كان يطلق عليها اسم " " القناطر المجيدية " فى بداية تشييدها ، ثم تحول هذه المرة إلى " قناطر الدلتا " .

أما الأماكن التى سوف نقوم بزيارتها بعد القناطر الخيرية ، فإننا سوف نبادر بتعريفها لاحقًا ، نظراً لأنها متصلة بهذا المكان ؛ فهى قريبة جداً من القناطر الخيرية ، وهى عبارة عن الترسانة والسجن العمومى و قلعة مهدمة .

الترسانة ، السجن ، القلعة

الترسانة

وتبدو بأكملها على هيئة حديقة وغابة صغيرة ؛ بسبب وفرة الماء بالقرب من القناطر الخيرية بالدلتا ، والاهتمام الموجه إليها . وعلى الرغم من أنه قد شيدت منازل وحدائق خاصة بالموظفين العاملين فى هذه الأماكن الرائعة، فإنه لم يكن خافياً تمييز مقر المستخدمين الإنجليز والموظفين الوطنيين عن بعضها البعض ؛ حيث تزدان منازل الإنجليز وحدائقهم بزخرفة أكثر من غيرها . وقد تصدرت ترسانة الدلتا بعد هذه الأماكن الخاصة ، وتوجد ترسانتان رئيسيتان للمراكب الصغيرة التى تسير وتسافر فى نهر النيل ، أضخمهما تلك الموجودة فى بولاق التى تعدّ اليوم من المناطق السكنية فى مصر ، وثانيتهما فى القناطر الخيرية التى يطلق عليها اسم " خزانات الدلتا" .

لم يكن هناك أى أثر للحركة والنشاط ؛ بسبب أننى قمت بالزيارة فى وقت لم تشيد فيه هذه الترسانة ، ولم يتم تعميرها بعد ، وعلى الرغم من أنه من الطبيعى ألا يمكن أن يبرز أى نشاط أكثر من مشاهداتى اليوم فى هذا المصنع الذى ينبغى ألا يستحق أن يطلق عليه أساساً أى كلمة سوى التعبير عنه بأنه معمل ، فإنه مما يجدر الإشارة إليه هو دقة ونظام جهاز محرك ضخم وإعداده ليكون قوة محركة ، ويقول موظف بأنه يوجد هنا فى مخازن مقسمة إلى أجهزة وأقسام بدرجة يمكن أن ترمم كل أنواع المراكب النهرية ، بل وتوجد مستلزمات الأشياء التى يمكن بواسطتها صناعة باخرة خاصة بنهر النيل بفرعيه الصغيرين . كان جميع المستخدمين مصريين تابعين للدولة العثمانية . ومن الطبيعى أساساً أن يكون الموظفون هنا من هذا النوع ؛ إذ يشترط

فيـهم معرفة اللغـة الإنجـليزية أو الإلمـام بها ؛ من أجل إمكانية استخدامها إذا لزم الأمر فى أى شعبة من إدارات الحكومة .

السجن العمومى

وهو مبنى للسجن العمومى ، ويحبس بداخله اليوم ألف وثمانمائة سجين ، وقد بُنى حديثًا بالأحجار الخالصة ، خلف الترسانة ، أى شمالها . وبسبب عدم السماح بالزيارة داخل السجن ، فإنه يتم التجول فى الحديقة بحيث لا يسمح بالهبوط من الترسينة . ويستدل من الأحاديث التى دارت حول إنشائه فى ذلك الوقت ، أن الحجرات التى تقع فى الطابق الأرضى يتكون كل منها من محبس ذى نافذة صغيرة لشخص واحد ، وهى مقر المجرمين الخطرين ، وحجرات أخرى لحبس شخصين أو ثلاثة أشخاص ، طبقًا لدرجة إجرام المجرمين . ويخصص الدور العلوى لإقامة الجميع ، وهو يحتوى على مهجع للمساجين الذين أظهروا صلاحهم . يجبر السجناء خلال ساعات النهار على أن يكونوا مستعدين للعمل مثل الشرفاء الذين يحصلون على أقوات يومهم بالسعى الذاتى ، فيعملون فى الحديقة وتزيينها وتجديدها ، وفى رعى حيوانات الأبقار فى القسم الذى يعد على شكل مزرعة ، ويستخرجون منها اللبن والزيت . وتجرى محاولات حثيثة لتهذيب أخلاقهم بالسعى والعمل . تتوفر أسباب المحافظة على صحتهم ؛ نظرًا لنقاء الهواء والمياه فى هذا المكان . وبسبب أنه لا يجوز أساسًا منح إجازة للمحبوسين فى مصر ؛ فإنهم يعطون جزءًا صغيرًا جدًا من أجرتهم اليومية مقابل أعمالهم اليومية ، وذلك للمسجونين ذوى الحبس العادى وطبقًا لدرجة إجرامهم ، أما المحكوم عليهم بالمؤبد أو الأشغال الشاقة فهم لا يؤجرون على خدماتهم اليومية ، إلا أنهم يكافأون بالاهتمام بطعامهم ؛ حيث يحوى على قيمة غذائية عالية تعينهم على الإعاشة .

المنفيون إدارياً

طبقًا للقرار الأخير ، فإنهم ينفون إلى واحة الدخيلة الواقعة جهة السودان بعد أسيوط ، ويؤمرون بالعمل فى مجال تعمير الواحة . وقد شيدت هذه المرة المنازل، وأقيمت الحدائق بواسطة المنفيين الذين أبعدوا لمدة خمس سنوات ؛ من أجل تجهيز المياه وحفر الآبار الإرتوازية فى واحة الدخيلة المذكورة ، ومساحتها ٢٠ ألف فدان ، وبهذا الشكل تحولت الأرض التى كانت قفارى إلى أراضى معمورة .

ويتم تسليم آلة محلية مغطاة لكل من يرغب فى تعلم مهنة من المحبوسين الموجودين فى سجن الدلتا ومن يمتهنون صنعة ، وهم يعملون هنا بكل همة ونشاط ، كما يؤمر بالعمل أيضًا من لديه استعداد لتعلم صنعة .

وعلى كل حال ، يتم تعليم السجناء صنعة خلال فترة سجنهم، وتُباع حصيلة جهودهم ، و بعد أن يقسم رأس المال من حاصل الثمن ، يتم تجميع ما تبقى مما اكتسبوه فى صندوق المال بالسجن . وعند إطلاق سراحهم أو عند العفو عنهم أو إتمام مدة حبسهم ، يتسلمونه فى أيديهم كرأسمال لهم .

كان يسمح للسجناء المتزوجين أن يتحدثوا مع أزواجهم وأولادهم خلال النهار فى الحديقة تحت أنظار حراس السجن . أما المحكوم عليهم بالسجن المؤبد فى سجن القلعة بمصر ، يخلى سبيلهم بعد عشرين عامًا . أما من يتم التأكد من صلاح حاله خاصةً ، يفرج عنه قبل تلك المدة .

يحيط النيل وقناة متفرعة منه بأطراف الحديقة تمامًا ، وقد أقيم عند المدخل الوحيد للسجن كوبرى يغلق ويفتح بشكل يختلف كثيرًا عن الكبارى الأخرى ، وذلك لمرور السفن الصغيرة .

كان موقع السجن فيما مضى موقع القلاع الجسيمة التى أقيمت حينذاك فى عهد الخديوى المرحوم " سعيد باشا " والى ولاية مصر من أجل الدفاع ومواجهة هجوم

الأسـاطيل القـادمـة من البـحـر الأبيض عن طريـق النيل ؛ حـيث كـان بـعض أقسـام من خنادقـهـا ومـواقع المدفعية السرية وأحيانًا أنقاض الخنادق ، تقوم بمهمة حـائط دفاع تجاه السجناء اليوم .

ويتضح من المخازن الحجرية ذات المدخل المقوس والمنحنى القوى الذى بلا نوافذ ، وهى تظهر من مكان إلى آخر داخل يبوسة هذا المحيط الرائع ، أنـها كـانت مـخـازن للعتاد الحربى التى أزيلت التروس من فوقه . ويعد سجن أسوان الذى نحن بصدد تعريفه مكملاً للقناطر الخيرية ، وقد استغرق بناؤه أربع سنوات بتكلفة بلغت ستة ملايين ليرة ، وأعلنت عنه جريدة الحوادث فى صفحاتها ، وأقيم له حفل افتتاح فاخر للغاية حضره حضرة الخديوى وهيئة الوزراء ، وهو ملائم لاحتياج العصر بالاستعانة بالتطورات الفنية الحديثة .

أيام إجازات موظفى الحكومة وأحوال ملازمتهم للعمل

يبدأ الموظفون الرسميون أعمالهم اليومية المحددة ، وإثبات حضورهم فى أماكن العمل فى تمام الساعة الثامنة إلا ربع صيفًا ، وفى الساعة الثامنة فى فصل الشتاء ، نظرًا لتقديم ساعة الغروب فى مصر .

وعلى الرغم من ضرورة انتهاء العمل فى الإدارات الحكومية فى الساعة الواحدة أو الواحدة والربع ، فإنهم يخرجون من أماكن عملهم فى الساعة الثانية عشرة بناءً على انتهاء معظم المهام المعنية . وبالنظر إلى ذلك الحال وبالنظر إلى الوقت ، فإن أكبر مدة لملازمتهم للعمل تستغرق خمس ساعات ونصف ، ويستمر عمل الموظفين غير المعينين من الساعة الواحدة حتى المساء .

وتجرى فى مصر قبل الظهر اجتماعات شبه رسمية ، وزيارات بين الأحباء من علية القوم والأشخاص الأشراف ، وبعد الظهر تنحصر الزيارة على الصحبة غير الرسمية . وتتبع الإجازات الأسلوب السائد ، وتشمل الأيام المباركة والرسمية التى

تصادف أيام الجُمع والأعياد الإسلامية واحتفالات المحمل والمولد . تغلق متاحف الآثار العربية والآثار الفرعونية والمكتبة الخديوية وإدارات الحكومة فى هذه الأيام .

أيام الآحاد

يُسمح بساعة واحدة فقط صباح أيام الآحاد بالنسبة لعباد الملل المختلفة الذين يعملون فى مختلف فروع الإدارات الحكومية ، بينما تغلق الإدارات التى تتعامل خاصة مع التجار والتجارة الأجنبية – مثل الجمرك والبريد – أيام الآحاد ، إلا أنها تستمر فى مهامها أيام الجمع .

يوجد فى مصر نوعان من المحاكم ، وهما يتبعان وزارة العدل ، ونظرًا لأن إحداهما – وهى المحاكم الأهلية – تهتم بالدعاوى المتعلقة بالرعايا العثمانيين فحسب ، فإن يوم عطلتها هو يوم الجمعة . ويتم تعطيل المحاكم المختلطة – التى شكلت فى مصر بموجب فرمان همايونى بتاريخ ١٢ جمادى الأول عام١٢٦٦ ، والذى منح للمرحوم عباس باشا والى مصر – سواءً فى يومى الجمعة أو الأحد ؛ ذلك لأن عضويتها تتكون من عضوين عثمانيين وأعضاء يتبعون باقى الحكومات ، ورئيسها هو المكلف بمهمة النظر فى الدعاوى وهو المتحدث باسم الرعايا العثمانيين والأجانب أو باسم الرعايا الأجانب فقط ، وبسبب أنهم ينفذون الأحكام بقانون خاص منظم وموحد من قوانين الحقوق والجزاءات ، فقد استغنوا عن إيجاد مترجم من القنصليات خلال محاكمة الرعايا الأجانب

جباية الأموال

تعد المبادئ والأصول التى تتبعها الحكومة المصرية ، وتنتهجها فى جباية الأموال من الأمور الجديرة بالدراسة والتقصى ؛ إذ إن لفظ " المتأخرات " غير معروف قطعيًا بالنسبة للضرائب الأميرية فى الإقليم المصرى .

وقد نتج عن الاجتماعات التى تنعقد مع بعض الموظفين الوطنيين ضرورة جدية بيانات الموظفين المشار إليهم ، وخاصةً فى بعض البيانات المتعلقة بمسألة المتأخرات . كانت الأحاديث تدور بخصوص الميزانية المالية للسنة الحالية(*) ، وقد دار مفهوم المحادثة حول ما كتب عن أن الواردات قد بلغت خمسة ملايين ومائة ألف جنيه ، والنفقات بلغت أربعة عشر مليون وثمانمائة ألف جنيه مصرى ، واستمر الحوار حول الرد على السؤال الآتى :

" ماذا تعنى المتأخرات ؟ وما مقدار ما تبقى من متأخرات للواردات ؟

واتضحت فى النهاية الحقائق الآتية : كيف كان من الممكن أن تظل المتأخرات ، وكيف كان من المستحيل تقديم دين إلى فرد ما ، وكيف لا يمكن للفرد أن يرد دينه ، وكيف يمكن عدم إعطاء فرد دينه إلى الحكومة ؟

ولقد أدركت – بسبب عدم إتاحة الفرصة لحدوث تلك الاحتمالات – أنه لن يكون من الممكن تصديق إمكانية أن تظل المبالغ الحكومية متأخرة . وتدريجياً تقتنع الأهالى المصرية بهذا الوضع وتتعود عليه ، ويمتثل الدائنون للحكومة مهما يكن هذا الدين ، للأمر الواقع ، ويوفون بديونهم فى الحال بلا طلب منهم .

بل إن الحكومة تفكر حتى فيمن لا يقدر على الدفع بأسلوب منصف للغاية ، وبناءً على ذلك ، يتأكدون بأنها تساعد على تأدية الضريبة خلال أربعة أقساط فى السنة الواحدة ، وفى مقابل هذا القدر من المساعدة الرحيمة السامية ، فإن الدائن الذى لا يستطيع أن يدفع القسط الأول من دينه ، فهو لن يتمكن بالطبع من دفع باقى الأقساط المتراكمة عليه والمتأخرة ، يتم الحجز على متاعه بناءً على إخطار جامع الضرائب الذى يطلق عليه اسم " الجابى " ، وذلك فى حالة إذا لم يكن لديه إيراد ومعاش ، وكذلك إذا لم يكن لديه مال وأملاك ، وتُباع بمعرفة الحكومة خلال أربع وعشرين ساعة ، وتستوفى حقوق الخزينة .

(*) صادف ميزانية عام ١٩٠٩ / سنة ٣٢٤ – ٣٢٥ الرومية .

كانت الأهالى المصرية قد تأكدت أيضًا أن هذه الإجراءات تتفق مع العدالة . يقيم فى كل قرية "جابى" للضرائب بصفة دائمة ويُطلق عليه اسم " صراف البلد " ، ويحصل الجباه الضرائب الأميرية على أقساط زمنية ، ويخول إليهم أن يجبروا أى شخص على دفع القسط الدائن عليه فى الحال ، ولهم الحق كذلك فى طلب الأموال المطلوبة ، أو القبض عليه نظير الدفع .

ولهذا السبب يحدث الاقتناع بأنه لم تعرف المتأخرات طريقها إلى ميزانية مصر ، ولن تدركها ؛ لأنه لا يمكن تأجيل دفعها ولو يوم واحد .

وفى البداية كان يعطى لكل شخص يدفع الضريبة بطاقة هوية على شكل رخصة تذكرة تعداد السكان ، وذلك لتعويد الأهالى على التعامل بهذه الصورة ، وكان يكتب خلفها الضرائب الأميرية المفروضة على المدين أن يدفعها خلال سنة .

ومهما تكن الأسباب ، فإنه قبل الاستماع إلى شهادة أرباب المصالح المجبرين على الرجوع إلى الإدارات الحكومية أو البوليس ، فإنه يتعين على من يطلب منه ورقة إثبات الشخصية والنظر فى دعواه أن يكون قد تبرأ من الديون ، وإذا كانت عليه ديون أميرية ، فإن الحكومة تتجاهل المدعى الذى لم يؤد دينه للحكومة ولا تستمع حتى إلى شكواه !

وعلى الرغم من أنه لا يمكن تخمين مدى صحة وقوع الرواية ، فإنه طبقًا لشهادة الراوى هذا ، فإن الحكومة أولاً تجرى تحرير نوع من تعداد النفوس كل عام ، وفى الخطوة التالية فإنها تضمن تحصيل الأموال الأميرية .

المطافئ

ومقرها فى ميدان الأوبرا ، فى شارع مكتب البريد . تجهز عرباتها ذات المضخة والخرطوم والسُّلَّم طبقًا للنظم الحديثة ووفقًا للتطورات الحديثة ، وهى فى حالة نظيفة براقة لامعة للغاية لمداومة الحفاظ عليها . تفتح أبوابها دائمًا لتعلن بأنها على أتم استعداد لتأدية وظيفتها فى أية لحظة .



صورة رقم (٧٥)

" ثكنة المطافئ وبرجها بالقاهرة "مركز البوليس – قسم العتبة الخضراء

عربة الحنطور

وهى مجهزة بأطقم من الحيوانات فى إسطبلاتها المقسمة خلف عربات المضخة المعروضة ، والتى بدت فى حالة ممتازة . وينتظر العساكر المرتدون ملابس رسمية أمام الباب بصورتهم المعروفة الخاصة بهم ، وكأنهم يترقبون ظهور عمل ما ، وهم يوضحون للمسافرين القادمين والمارين ما يخص عملهم عند ما يوجه لهم أى استفسار . كان عريش العربات الخشبية على جوانبها وأطواق الحيوانات مربوطة كل طرف بالعريش ، والأطراف الأخرى تعلق بسلاسل بشكل يسمح بمرورها إلى عنق الحيوان . ومن أجل عدم إضاعة الوقت ، فقد انتصبت السلالم وهى على شكل سلالم المنارة ؛ من أجل صعود وهبوط العساكر الموجودين فى الطابق العلوى للمركبة والإسطبل لحظة إعلان الحريق .

وبسبب أن عامة المبانى فى القاهرة مبانى حجرية ، فإنه من النادر وقوع الحرائق ، إن لم تكن معدومة الحدوث . تبدأ المضخات التى تعمل بالموتور - فى العمل وقت مغادرتها - لتكون مستعدة - وتباشر مهام عملها بلا إضاعة للوقت عند الوصول إلى مكان الحريق .

ومن أجل إمكانية تحسين الخدمة عند الوصول إلى مكان الحريق ، وعدم الإحساس بأدنى تعب ، وعدم ركض جنود المطافئ خلف العربات ، فإنه يتم توزيعهم وركوبهم على العربات والمضخات والخرطوم والسلالم . وللمطافئ وظيفة ثانية فى المدينة ؛ فهى تندفع فوراً فى حال عدم استطاعة البوليس تفرقة التجمهرات مثل المظاهرات والإضرابات ، حيث ترش الماء على الأهالى المجتمعة ، فكانت تستعمل أيضًا فى تفرقة المتجمهرين .

وإذا ما قمنا بتطبيق ما يختص بتوزيع عساكر الإطفاء على العربات ، بما يحدث عندنا أيضًا ، فمن الجدير بالذكر أنه يمكن الإفادة منها أكثر فى خدمات جنودنا المساكين الذين يواصلون السير إلى الحريق الذى تبعد مسافته بدرجة تصيبهم بإنهاك قواهم . ومما يلفت النظر أن الضباط والجنود المكلفين بالإطفاء ، يبذلون جهدهم بحب وإخلاص، ويغمرهم حالة من العشق والهوس لعملهم .

موكب المحمل

كان يوم سفر المحمل وعودته يقام بمراسم خاصة ، وهو يحتل أهمية كبيرة تجعله يمثل عيداً قومياً فى مصر مثلما هو الحال فى الشام . ويقال إن هذه المراسم كانت تجرى فى صورة أكثر تألقاً فى مكة المكرمة والمدينة المنورة .

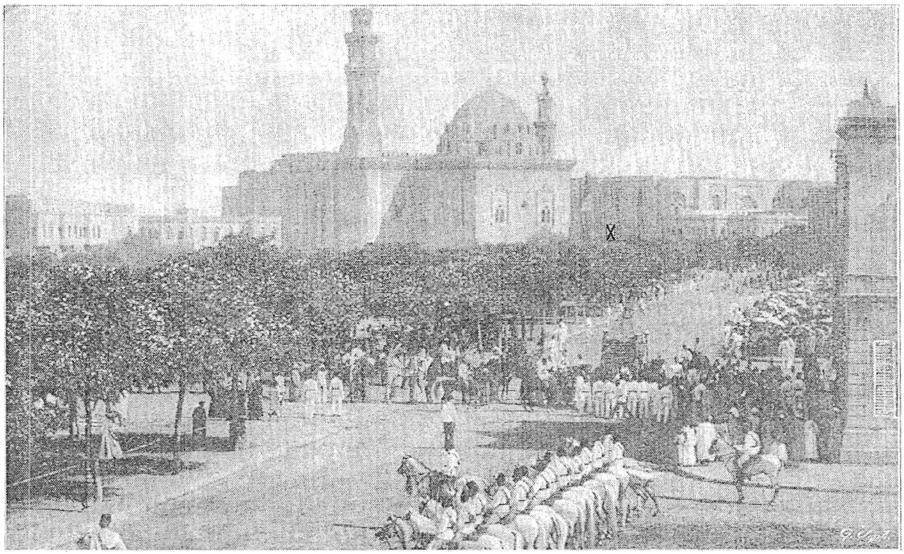
وبينما كانت مراسم الكسوة والمحمل تؤدى فى الشام على شكل تشييع واستقبال عند السفر والعودة ، فقد ظلت فى مصر عبارة عن أداء مراسم التشريف المعتادة فى صورة تسليم وتسلم فقط .

كانت المراسم التى تجرى فى الشام عبارة عن رفقة الوجهاء والعلماء والموظفين ، وهم يرتدون البدل الملكية والعسكرية الفخمة للمحمل الشريف وهم يمتطون خيولهم حتى موضع القدم الشريف ، وهى محطة طريق سكك حديد الحجاز فى المدينة خارج الإدارة المركزية ، وتنفيذهم لمراسم التسليم والتسلم المعتادة فى الموقع المعين المعدّ لوصوله إلى الموقع المذكور .

وكانت طلبة المدارس العامة وطوائف من الفرق العسكرية والفرق الموسيقية وقوة الدرك وقوات البوليس يؤدون المراسم التشريفية مصطفين فى وقار واحتشام . كانت الأهالى الوطنية تشاهد الموكب تبركاً ، وهى تجتمع على الطريق ، وتستأجر المنازل والمحلات التى يمر بها ، وتسجل أسماءها قبل بضعة أيام من مروره ، وتضرب المدافع فى أثناء سفر المحمل وتحركه ، وتعطل الإدارات الحكومية فى اليوم المذكور .

يوجد نوعان من مراسم المحمل التى تجرى فى مصر : أحدهما موكب الكسوة والآخر نقل الكسوة المباركة للكعبة المعظمة ، والتى تنسج فى مصر ، كان موكب

الكسوة عبارة عن مراسم تسليم محافظ الحج أو تسلمه المحمل من الذات الخديوية والطواف به فى ميدان القلعة وفى موقع محدد ومعين للواء الشريف بالمحمل .



صورة رقم (٧٦)

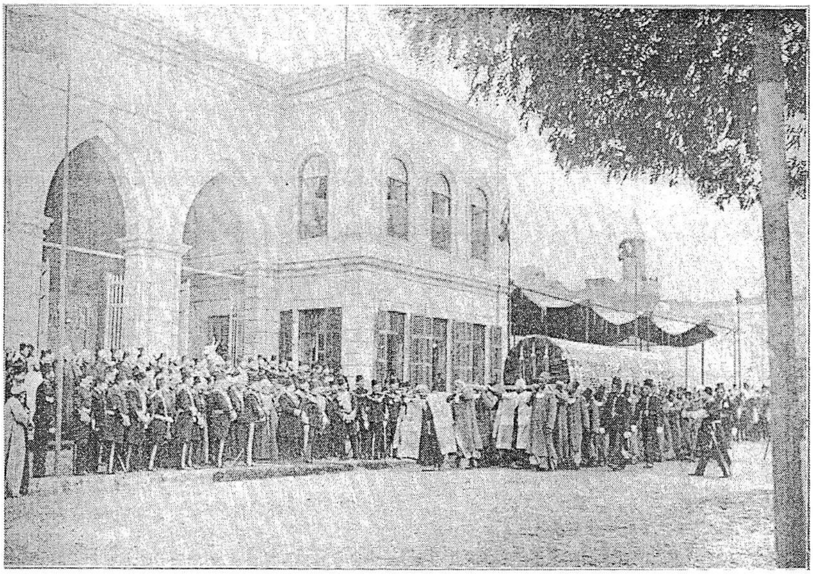
" مراسم تسليم وتسلم المحمل الشريف أمام القصر الخديوى فى ميدان القلعة " - القاهرة

ومن أجل تأمين تأدية القيام بالمراسم التشريفية للمحمل وتسهيلها ، ومن أجل إمكانية رؤية كل شخص للمراسم التى تقام فى ميدان القلعة - وهى أساسًا طريق واسع جداً ومرصوف بالحصباء المطليَّة أرضيته بالقطران - بأشكال مختلفة من الفرق العسكرية للمحمل وبأشكال دائرية ، كان يتم إحضار الأسِرَّة التى تؤجر لأفراد الشعب ، وتجهز الحكومة أماكن خاصة للأجانب الوجهاء والأشخاص المدعوين . يأتى أفراد الشعب إلى المراسم مبكرين جداً ومسرعين أفواجًا أفواجًا ، وبعد أن يتم أخذ المواقع بين العسكر بشكل توافق عليه الحكومة ، وبعد أن يستقر الزوار الذين يأتون للمشاهدة بالعربات فى الأماكن المعينة الخاصة بوقوف العربات ،

وبعد أن يأخذ الموظفون الملكيون والعسكريون وهيئة الوزراء مواقعهم بالسير بعرباتهم إلى المكان المخصص ، كلٌّ فى مكانه مستقل ومنفصل حينئذ ينتظر تشريف الخديوى .

وفى اللحظة التى يصل فيها حضرة الخديوى إلى موقع المراسم - راكبًا عادةً العربة ومحاطًا بقوات عسكرية ذات صفوف سبعة أو ثمانية يقودها أربعة خيول مطهمة ومزينة بزينة خاصة بالمراسم التشريفية فى الساعة التاسعة والربع ، ومحاطًا أمامه وخلفه بقوات عسكرية ذات صفوف سبعة أو ثمانية متقلدين السيوف ، وآخرون يتقلدون الرماح ، وعند انطلاق قذائف المدافع الواحدة والعشرين من القلعة فى اللحظة التى يعلن فيها الخديوى بالتحرك ، وتنتهى المراسم التشريفية .

وبعد نصف ساعة من تحرك الخديوى ، وبعد القيام باستعراض لسرية مدفعية - مكونة من المشاة والخيالة مع طابور من مشاة يرتدون ملابس من الكتان ، بينما تترنم فرقة موسيقية فى المقدمة بصوت عال ، فى حضور الخديوى بالورود حتى الميدان - يدخل الميدان المحافظ الحاج الذى يرتدى زيًا عسكريًا رسميًا فخمًا عقب فرقة موسيقية أخرى بعد أن يتخذوا مجلسهم فى منتصف الميدان وتجاه قصر الخديوى ، ويدخل من خلفهم المحمل الشريف المحمول على جمل عظيم الهيبة ، عليه كسوة مموهة بالذهب الثمين ، وخلفه اللواء الشريف على جمل آخر ، ويتعقبهم الحداه وعازفو المزمار والطبالون طبقًا للعادات القديمة الشعبية ، وهم يمتطون جمالاً أخرى يعزفون ويتماوجون بمقام خاص غير متجانس النغمات ، وعند التوقف أمام قصر الخديوى بعد أداء الاستعراض ، يقدم السلام بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع من القلعة مرة أخرى ، وبعد تسليم المراسم التشريفية يعود إلى القلعة بالمراسم نفسها من الطريق الذى جاء منه ، ويقوم بالدوران مرة ومرتين ، ويؤمر المشاة والمدفعية بحمل المحمل على عربات المدافع ، وعقب عودتهم وأداء الاستعراض ، وقد انقسموا مثل الذراع المثنى ، يتلقى الخديوى التحية من العساكر الموجودة والأهالى المجتمعة ، ويعودون من طريق آخر بنفس بالمراسم التشريفية نفسها .



صورة رقم (٧٧)

مراسم المحمل المبارك أمام قصر الخديوى – القاهرة

تعود قوات العساكر المصرية الحاضرة التى اشتركت فى المراسم إلى ثكناتها بانتظام تام وهم يؤدون الاستعراض بينما تعزف الموسيقى أمامهم ، وتتفرق الأهالى المجتمعة .

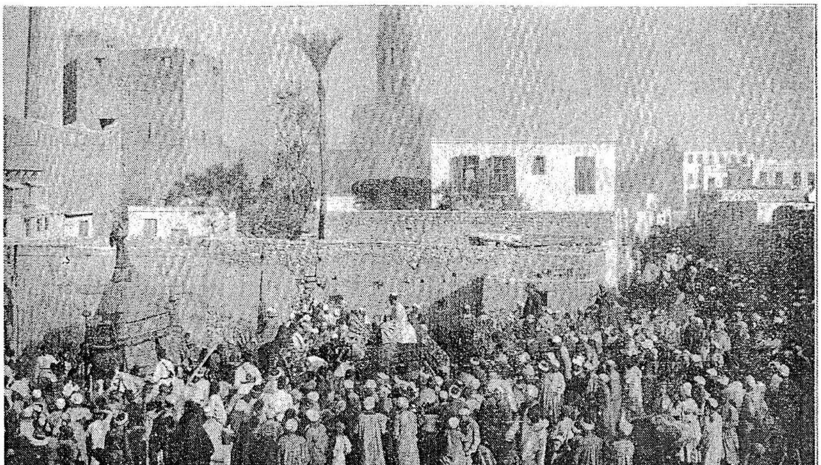
تتعطل الإدارات الحكومية اليوم كرامةً لمراسم المحمل . والجدير بالذكر حسن الاهتمام الذى يبديه مفتشو البوليس وبوليس المشاة والخيالة فى أداء المراسم التشريفية ؛ من أجل المحافظة على النظام ، وقيامهم بوظائفهم بجدية ووقار خاص مع عدم تقطيب وجوههم لأفراد الأهالى ، هذا بالإضافة إلى تعود الأهالى للطاعة وتقبلهم للتعليمات وتنفيذها بدون اعتراض .

وعند وصول المحمل الشريف المذكور إلى مكة المكرمة تنصب الخيام بجوار موضع يسمى (جرول) خارج المدينة المباركة ، وينتظر مراسم المحمل الشامى . وفى اليوم

التالى من تنصيب الخيام على بعد مسافة كيلومترين تقريبًا من المكان المذكور ، يقصد أمير مكة المكرمة وجميع أركان حاشيته خيمة أمين الكسوة فى صورة رسمية مرتدين الألبسة الرسمية بالكامل .

وبعد أداء السلام رسميًا بإطلاق المدفع ، وبعد إجراء الاستقبال من قبل الموظفين مثل وكيل الكسوة وأمينها ، تُجرى مراسم تسليم وتسلم الأمر السلطانى لجناب الخليفة وإعطاء كاتب الديوان التركى الفرمان السلطانى بعد أن يقبله أمير مكة . يتحرك المشار إليه بوقار تام ممتطيًا فرسه وأمامه قافلة أيضًا .

وعقب القيام بالإجراءات التشييعية بالمراسم نفسها ، يواصل المسيرة إلى موقع المحمل المصرى مصحوبًا بالترنيمات القومية للبدو الفرسان الهجان وهم يقرعون الطبول ويعزفون المزمار الخاص بحضرة الأمير ، والذى يشبه ما هو معتاد فى مصر .



صورة رقم (٧٨)

المحمل الشريف عند عودته إلى القلعة

وبعـد أن يؤدى واجب السـلام والاحـتـرام بإطلاق المدافع هناك ، يقـوم مـحـافظ المحمل بأداء واجب الاسـتـقبال ، وتقوم فرقة مصر العسكرية المرافقة للمحمل بأداء التحية سريعًا مرة أو مـرتين وهم يعزفون ، وقد وقفوا برهةً فى أماكنهم ، حينذاك يكون من المؤكد أن ذلك هو مسك الختام فى هذه الاحتفالية .

وفى مصر يُطلق اسم موكب المحمل على المراسم الخاصة بكسوة الكعبة المعظمة . وبعد أن تنقل المكسوة المباركة من المصنع الذى ينسجه إلى موضع خاص بالقلعة ؛ حيث يتم ربط حلقاته الفضية ، يصل إلى جامع سيدنا الحسين الشريف ، وبعد أن يوضع فى صناديق (فى الجامع الشريف المذكور) تسلم إلى أمين الكسـوة ، وترسل إلى ناحية الحجاز ، وتقام بأداء مراسم خاصة معتادة كما ترى فى الصورة .

العروس ومراسم موكب الجهاز

تنتقل العروس المسلمة - الغنية والفقيرة - بعربات وكأنها بدار السعادة ، من منزلها إلى منزل الزوج ، غير أنه طبقًا للعادات القديمة ، يتم إحضار فرقة موسيقية من الفرق العسكرية الوطنية أو الإنجليزية [١] - وفقًا لدرجة ثرائها - أمام عربات العروس .

وبالنسبة لمن كان سعة حاله فى الدرجة الثانية أو الثالثة ، فإنه يحضر فرقة وطنية تجهز بشكل أيسر وأهون ، وإن لم يتيسر ذلك ، يقتصر الأمر على إحضار عازفى المزامير وقارعى الطبول . ومن موجبات العادات الوطنية اليوم القيام بالمراسم الخاصة والغناء فى الطرق والعبور من الشوارع المختلفة فى المدينة . ويخصص أرباب اليسار - الذين يفترون بثرواتهم ، فضلاً عن أنهم يشبهوننا فى ذلك الأمر - للعروس مستأجرين عربة المراسم الخاصة بذات الخديوى ذات الأربعة خيول والمزينة سياسها بالألبسة الفضية .

تتعاقب العربات على شكل قافلة طبقًا لدرجة يسار عربة العروس ، والمربوطة بالعربجية والحيوانات . أما من هم فى الدرجة الثانية ، فهم يستأجرون عربة ذهبية ذات أربعة خيول بسياس مزينة ألبستهم بالنسق نفسه . ويغطون كل أطراف عربات العروس بالشيلان وبالأقمشة المطرزة بأنواع من الخيوط وبالستائر البنية المطرزة بالخيوط الفضية ، وهى تتجول وتحمل الجهاز على عربات الحمولة ، أو الحمالين ، ويتم إيصالها وهى تطوف وأمامها فرقة موسيقية ، أو مجموعة من عازفى المزمار .

---

(١) مُنع هذا الوضع رسميًا الآن .

ولأن الأهالى عامة يعتبرون أن زيادة عدد عربات الحمولة فى نقل الجهاز تعد مدار فخار بالنسبة لهم ، فقد يزداد عدد العربات على نحو وضع مقعد واحد وكرسى واحد فقط من الكراسى والمقاعد التى تشكل متاع حجرة واحدة فى عربة واحدة ، ويُوضع فى العربات الأخرى كرسيان أو الكراسى الأخرى ، بل وتتصدر فرقة موسيقية أمام العربات الفارغة التى تذهب لإحضار الجهاز .

حفلة العرس

وهو مكلف للغاية ، ويسلكون حياله بتعامل سيىء فى مصر ، وبسبب تفاخر أرباب اليسار بهذا الشكل ، فهو مكلف جداً بدرجة يضطر معه الفقراء وذوو الطبقة المتوسطة إلى الاندحار فى سبيل ذلك .

ولهذا السبب ، فإنه على الرغم من إمكانية إقامة ليالى العرس وولائم الفرح والسرور داخل ديار من يتسع منازلهم لاستمرارها بالأسابيع ، فإنه لم يكن يتيسر لكل شخص إقامة الفرح باستئجار منزل مستقل نظراً لغلو إيجار المنزل فى القاهرة ، وذلك بسبب أن أكثر الأهالى الذين كانوا يقيمون فى بيوت ضيقة جداً تؤجر على شكل بناية كبيرة متعددة الطبقات ، فإن منازلهم لم تكن لتسمح بإقامة ولائم العرس بداخلها ؛ لذا فإنهم يقيمون ولائم السمر والطرب فى خيم الوليمة المنقوشة بالفسيفساء التى أقامتها الطوائف الحرفية أصحاب الولائم فى وسط الشارع ، ويفرحون ويطربون بالأسابيع .

وبصفة عامة ، فقد كان أصحاب الوليمة يتوفر لديهم كل ما يمكن حمله ونقله ، كما أن طوائف الحرفيين قد أحضرت معها أيضاً كل ما يمكن نقله لأى مكان والخاص بتعليق الزينات مثل الثريا والرايات والفوانيس والخيام ، وذلك من أجل إدخال السرور والفرح لدى المدعوين على امتداد الوليمة ، وتُعلق الثريات والرايات والفوانيس فى نظام

يشبه نظام الأسطول ، وتصطف المصابيح فى صفوف أربعة أو خمسة ، مع الاعتماد على الأعمدة المنتظمة فى كل صف فى الشوارع الممتدة من منازل الوليمة وحتى الشوارع .

كانت أصول زخرفة الخيام قد راجت رواجًا شديدًا ، وتزين بداخلها بالنقوش المزخرفة ذات الفسيفساء على الطراز العربى . تُزين الخيام بالنقوش المتنوعة والكتابات والرسوم فى المواضع التى يكثر فيها الذيول والظلال ، ويستفيد أصحاب هذا الفن استفادة عظيمة للغاية .

مراسم الجنازة

تستعمل بدعة غريبة فى كل جنازة ، كانت قد تخلفت منذ عهد القدماء المصريين ؛ حيث تنقل الجنازات بالذكر والتهليل ، وأحيانًا بقراءة مراثى مطبوعة ، ويتبع نساء المآتم الملقبات باسم الندابات ، واللاتى يحصلن على أجر طبقًا لسعة حال كل جنازة ، نساء جيران الحى عامة ، وهن يظهرن الحزن والكدر المصطنعين ، ويطلقن صراخهن بنغمات مؤثرة وموجعة للغاية ، وتنطلق التعبيرات والكلمات المرتبة مع صراخ وعويل ونغمات صياح مؤثرة حول فضائل الميت وعدم استمتاعه بمتع الحياة الدنيا إن كان رجلاً شابًا ، وعن محاسنها وحسن أخلاقها إن كانت امرأة ، وعن فضيلة المتوفى وكفاءته ورحمته وسخائه وتركه الأولاد والجماعة أيتامًا وبلا سند لهم ، وأحيانًا يدهن أقرب أقرباء المتوفى وجوههم بالسواد ، وأحيانًا ينفعل البعض ويتظاهر بمسح عينيه بمنديل فى يده ، أو يشق ملابسه حزنًا وغضبًا ، ولا يمكن أن تعتبر ما يقومون به هؤلاء من الأعمال اللائقة من الناحية الإنسانية ، كما أنها لا تتفق مطلقًا مع الآداب الإسلامية .

ومن المعروف أن نساء المآتم اللاتى يطلق عليهن اسم " الندابات " ، يستأجرن ، وهن يتبعن عربات الحمولة التى يطلق عليها اسم " الكارو " ؛ لحمل هؤلاء النسوة اللاتى يذهبن وهن ينُحْنَ ، وينظر إليهن بعين الكراهية فى ذهابهن ورجوعهن فى هذه العربات مرة أخرى .

ويقرأ القرآن الكريم خلال ثلاث ليال فى المنزل المصاب الذى تقام فيه مراسم العزاء ، ويأتى الأحباء والأعزاء الذين لم يستطيعوا أن يدركوا الجنازة ، والذين لم

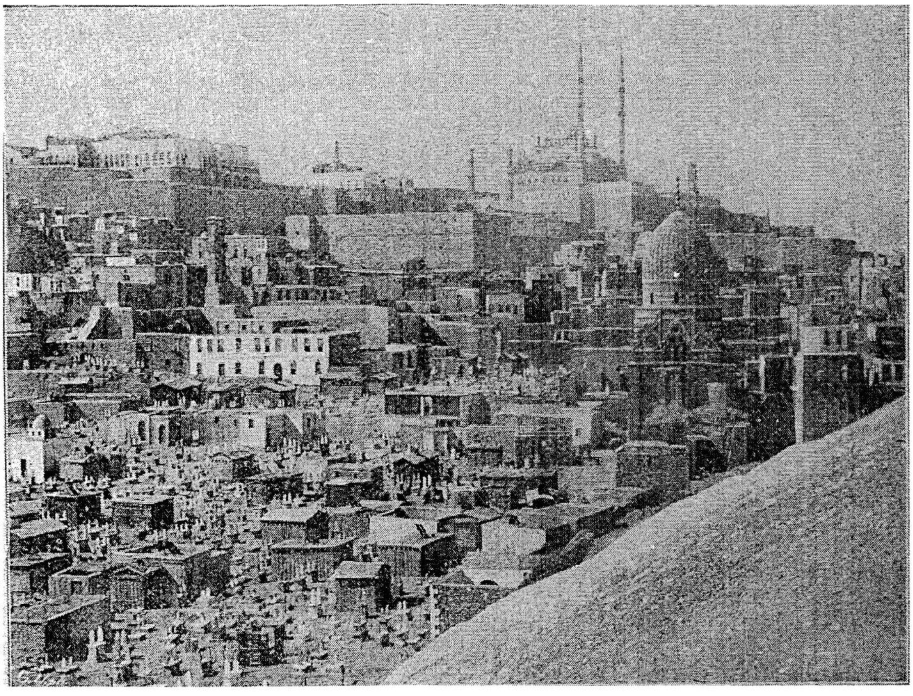
يتمكنوا من معرفتها يوم وقوعها ، إلى التعزية . يخصص يوم لزيارة القبور فى الأعياد والقيام بأداء مراسم خاصة باسم الذكرى السنوية .

وبطريقة ما سوف نتعرض لها فى بحثنا عن المقبرة ، يقوم المنزل المصاب باستقبال من يأتى للتعزية فى الذكرى بملابس الحداد السوداء تمامًا ، ويتجولون بالشيلان والزهور حسب درجة ثرائهم ، فيستقبلونهم على شكل وليمة ويقدمون لهم الشراب الحلو وحتى الطعام .

يلبس أفراد العائلة فى المنزل المصاب سنة واحدة هى سنة الحداد ، ويظهر حزن الرجال فى شكل يتجه إلى عدم الذهاب إلى المسرح سنة واحدة واستعمال بطاقة زيارة ذات إشارة سوداء بالحافة .

المقابـــــر

تنطوى المقابر فى مصر على غرائب خاصة أيضًا، وتوجد مقابر فى شمال مصر بالعباسية بجوار جامع تيمور طاش ، ومقابر أخرى فى جنوبها فى القرافة فى أطراف الجامع الشريف للإمام الشافعى وقبره الشريف ، والثالثة فى الخليفة التى يُطلق عليها اسم قبور الخلفاء ، وتوجد مقابر باسم المجاورين وهى على الحافة الشرقية الشمالية لجبل المقطم الموجود بها مقابر المماليك .



صورة رقم (٧٩)

مقابر القاهرة

ولا يوجد ما يلفت الانتباه من ناحية الطراز المعمارى الخاص بالمقابر ، وبصفة عامة لم يعثر فى أى قبر على الإطلاق على التابوت الحجرى ولا على أحجاره الجانبية ولا حاشية مزخرفة ، بل لا يوجد غالباً حجر المقبرة ، غير أنه كان يوجد فى المزارات العامة للأسر المعروفة حجرة خاصة أو مقبرة ذات قبة ، أو تحتوى منازلها على بضع حجرات فى الدور الأرضى والعلوى .

ويلتمس العذر لأى زائر لا يعرف التقاليد الشعبية المتعلقة بالمقابر الخاصة ؛ فهو يظن أن هذه المنازل التى هى بمثابة قبور بداخلها ، هى منازل مهجورة من سكناها .

لقد دأب المسلمون فى الأعياد على التوجه إلى هذه المنازل المشيدة فى المقابر يوم عرفة ؛ إذ إنه خصص يوم من بين أعياد المسلمين لزيارة القبور .

وقد دفن بعض ملوك الجراكسة داخل الجوامع والمنشآت الخيرية التى قاموا ببنائها .

كان " محمد على باشا "(١) وهو جد العائلة الخديوية قد دفن فى الجامع الشريف المنسوب باسمه فى القلعة . ودفن أبناؤه " إبراهيم باشا " و " عباس باشا " و" سعيد باشا " و " إلهامى باشا "(٢) ابن عباس باشا ، الذى كان قد توفى وهو شاب (وهو والد حضرة السيدة والدة الخديوى) فى مقبرة العائلة الخديوية بجوار مقابر الإمام الشافعى .

---

(١) على الرغم من أن " محمد على باشا " قد نقل إلى الإسكندرية بناءً على توصية الأطباء ، وكان قد خضع للعلاج إثر إصابته باختلال عقلى فى أخريات حياته ، فإنه كان قد توفى بالإسكندرية يوم الخميس الموافق الثالث عشر من رمضان ٢٦٥ ، وبسبب عدم فائدة العلاج المقدم وانعدام تأثيره أيضاً ، وطبقاً لوصيته قدمت جنازته من الإسكندرية إلى مصر ، ودفن فى جامعه الذى لم يتم بناؤه حتى ذلك التاريخ .

(٢) وهو صهر العائلة الملكية ، كانت قد ولدت حضرة السيدة المرحومة المشار إليها والدة الخديوى قبل أن ينال شرف مصاهرة العائلة السنية .

ولا يجذب الانتباه فى هذا المكان سوى كتابات منقوشة بخط بارز مستقيم بدرجة تتجاوز سنتيمترين ، وقد كتبت من قبل خطاط إيرانى مشهور يدعى " سنكلاخ " على مقبرة " إبراهيم باشا " ، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة توابيت فوق بعضهم البعض فى هذه المدافن . وقد دفن المرحوم الخديوى الأسبق " إسماعيل باشا " فى مقام بجوار القلعة (ودفن به حضرة الشيخ " شباك ") وهو من الأولياء ، وقد بقى هذا المقام ناقص البناء حتى بادرت والدة " إسماعيل باشا " فى إنشاء جامع شريف ضخم للغاية .

تُبذل الجهود فى هذه الأيام[٣] لإتمام الجامع الشريف ، وقد دفن المرحوم الخديوى الأسبق " توفيق باشا " فى مقبرة خاصة بنيت فى هيئة خاصة مبالغ فى زخرفتها ، وهى بجوار قبور الخلفاء أسفل المقطم .

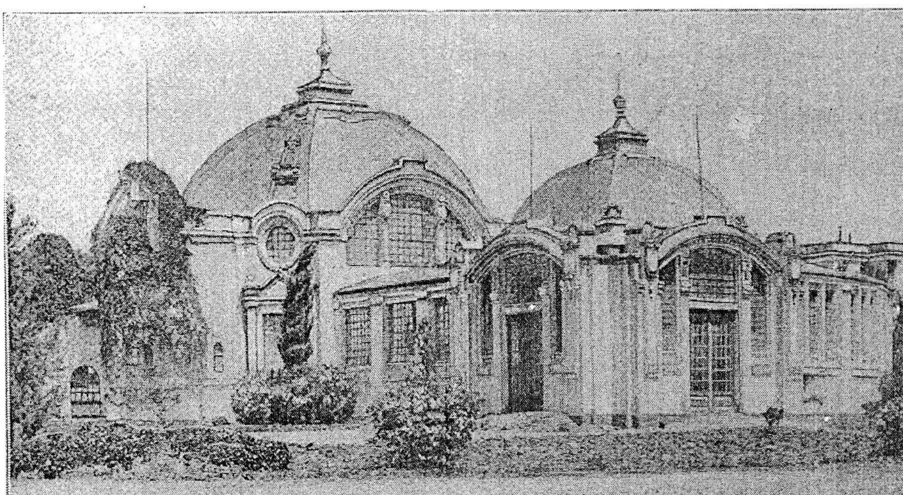
يقع مزار الشهيد " سنان باشا " فاتح مصر - داخل المقبرة التى تقع فى الشمال الشرقى من الجامع الشريف " تيمور طاش " بالعباسية ، وهو يعانى من الخراب الذى سوف يأسف عليه أرباب الحمية والغيرة ويتكدرون من أجله . وعلى الرغم من طلبات الرجاء المقدمة من أهل الحمية والرحمة بإنشاء مقبرة شريفة هنا ، فإنه لم يلمس لهذا أية نتيجة مع الأسف .

---

(٣) كان قد صادف زمن تحرير الذكريات شهرى يناير وفبراير عام ٣٢٤ رومية .

المتحف الزراعى

كنت قد قررت فى المذكرة - التى أعددتها ونظمتها لمشاهدة وتتبع الأماكن الجديرة بالمشاهدة فى مصر طبقًا لأهميتها - أن أقوم بجولة أيضًا فى المتحف الزراعى ، ولم تكن تكفى له زيارة واحدة ، بل زيارتان قمت بهما بشكل خاص قبل رسم الافتتاح ؛ بسبب الانشغال بترتيب الأشياء التى وردت وتصنيفها ، ولم تكن المحاصيل التى لا يمكن أن تبقى مدة طويلة مثل الزهور والخضروات ، قد وردت حتى الآن فى الحقيقة . وبناءً على عدم استكمال الحيوانات المستأنسة ، فلم يكن قد تبلورت فى ذهنى أية فكرة صحيحة عن زياراتى هذه .



صورة رقم (٨٠)

القاهرة - المتحف الزراعى

كان أخص أمل بالنسبة لى يتمثل فى رؤية مؤسسة المعرض ؛ فقد جذب أنظارى مسألة آلات الاستكشاف بالذات ، والتى كانت موقوفة على الأهداف الأساسية الخاصة بالعرض ؛ إذ إن حكومة سوق الأشغال فى مصر والسودان قد تنبهت إلى ما يمكن أن ينتج عن حفر البئر من حوادث ، ولهذا فإن سلامة طرق المواصلات هى ما تحاول الحكومة تأسيسها وتنفيذها باهتمام بالغ . فقد أولت الحكومة أهمية خاصة بحفر الآبار ؛ إذ إنه من غير الممكن حقيقة إقامة طريق بدون فتح الآبار فى تلك الصحراء اللانهائية . ولهذا السبب ؛ فقد بدأت العمل مخصصة عشرة آلاف جنيه من الميزانية المالية السنوية لحفر البئر فى السودان خلال الأربع سنوات الأخيرة ، وبذلت كل ما فى استطاعتها من تضحية فى سبيل ذلك ... وبعد حفر الآبار أقامت مكاتب البريد والأوتومبيلات على الطرق المرصوفة التى شيدتها .

كنت قد عقدت العزم على البحث والتنقيب عن محاولات الإقليم المصرى أيضًا فى تعميم آلات الاستكشاف المستعملة اليوم ، وهى معروضة فى المتحف ، و تعد مظهرًا من مظاهر الرقى والتقدم ، وتطبيقًا للتطورات الفنية . وكنا قد أوصينا بدراسة عميقة جدًا ودقيقة للغاية عن الحبوب والمحاصيل الزراعية الطينية المعروضة فى الدرجة الثانية ، يستفيد كل فلاح يوفق فى تحسين نوع محصول مطلوب تجاريًا استفادة مادية ومعنوية .

على سبيل المثال : ينال أى مالك أو مستخدم فى مزرعة ما يستطيع أن ينجح فى إنتاج قطن جيد ، أو يوفق فى تحسين نوعه ، ويقوم بعرض بضاعته – المكافأة الموعودة وكذلك يتم شراء أفضل محاصيل الحبوب من المزرعة التى تنال التقدير والمكافأة من المعرض ، والتى سوف يتم بيعها للمزارع والحقول المقامة حديثًا خلال العام ، وبذلك تضمن الحكومة أن تستفيد من قوة إنتاج الجهود الذاتية ، ومن الطبيعى أن يسعى كل منْ يرى المكافآت المادية والمعنوية ، ويحاول تطوير ما يقدمه من إنتاج ، ويجد كثيرًا فى تجديده .

ويعد البحث عن حيوانات المزارع وحيوانات الإسطبلات وسلالاتها التى عرضت فى المعرض ، من الأمور المطلوبة والمهمة للغاية تجاريًا . ومن الواضح أنهم قد نجحوا فى التوفيق فى تحسين نوع الحيوانات بواسطة المبادئ والأصول التى طبقت تمامًا ، وبشكل صحى وفنى ، وعلى وجه الخصوص طريقة التغذية والإعاشة .

وينبغى على من يزور المعرض أن يلمس إلى أى مدى وصلت إليه زراعة الزهور من الرقى والتطور ، وهى التى كان يظن أن مشاهدتها لن تفيد شيئًا سوى الاستمتاع برؤيتها فى شكلها العادى . وفى نهاية العام ينال المكافأة من يزين الحدائق بهذا المحصول كل عام ، مقدمًا ما وصل إليه من تطور وطبقًا لدرجة الاهتمام والسعى والإقدام الذى يبديه فى هذا المجال .

الجمعية الزراعية فى مصر

وهى إدارة خاصة مستقلة تمامًا لا تتبع أية إدارة حكومية على الإطلاق . ورئيس هذه الجمعية المحترمة هو حضرة الأمير " حسين باشا " أحد أعمام حضرة الخديوى القادم ، وهو أغنى ملاك الأراضى من بين أعضائها .

توجد مدارس للزراعة تتبع إدارتها وحدائقها وحقولها النموذجية هيئة المعارف ، وكان المعرض الزراعى وحديقته ومبناه ، قد أنشئ بجهود هذه الجمعية . ويفتتح المعرض مرة واحدة بصفة عامة ، وثلاث مرات بصفة خاصة تحت إشراف هيئة الزراعة المحترمة . وأول هذه المعارض الخاصة هو معرض الزهور الذى تعرض فيه أنواع الورود والأزهار ، والمرة الثانية يقتصر المعرض على زهور اللؤلؤة ، والمرة الثالثة يقتصر على معارض الحيوانات فقط ، أما المرة الرابعة فقد كان معرضًا عامًا ، ويمنح خلاله مكافأة نقدية تصل من عشرين جنيهًا إلى خمسين جنيهًا لمن ينتج محصولاً يحتل المرتبة الأولى.

وفى معرض الزهور تجرى المسابقات حول إعداد النساء لمائدة الطعام وتزيينها ، وتقدم مكافأة تقدر بخمسين جنيهًا لمن يفوز بالمرتبة الأولى من قبل هيئة المعرض التى تتكون من ذوى القدرة على التمييز بصفة خاصة جدًا . وقد عُرِضَ مائة نوع من هذه الزهور فى معرض زهور اللؤلؤة ، وفى ظل المكافآت الموزعة كان الأهالى قد دأبوا على السعى والعمل .

وتجرى منافسات حول تحسين الإنتاج وتنوعه عن طريق تلقيح بذور الأزهار قبل زرعها من أجل الحصول على ألوان مختلفة . وتوجد فى حدائق الاختبار بالجمعية أشجار وثمار عمرها سنتان أو ثلاث كانت قد استقدمت من كل البلاد ، وحتى من أمريكا وأستراليا ، واستزرعت فى هذه الحدائق .

تقدم الحكومة المعونة لهذه الجمعية على شكل تخصيص أموال لها تقدر بعشرة آلاف جنيه سنويًا . توجد إدارة خاصة باسم قلم الجناين تابعة لوزارة الشئون النافعة ، ووظيفتها إنتاج أشجار البلدية بالشوارع وتغيير القديم منها . وتروى شركة المياه الأشجار فى الشوارع مقابل ألف جنيه تحصل عليها المدينة أيضًا وتقدم الماء لحدائق البلدية . ورئيس الجمعية الزراعية هو " حسين باشا " ، وهو يملك أربعة عشر ألف فدان فى مصر ، منها ستة آلاف فدان فى إيتاى البارود ، وثمانمائة فدان فى المحلة الكبرى - بنوان ، وتتوفر فى مزارعه خطوط سكة حديدية ضيقة بعرض خمسين سنتيمترًا ، وامتداد ٣٠ كيلومترًا ، وبها قاطرات ، وقطارات ومعامل وورش ... وتوجد فى حديقته مائة نوع من الزهور ، وأربعة وثمانون نوعًا من العنب ، وتوجد زهرة القاسم التى يُطلق عليها اسم "زهرة اللؤلؤة" التى لها أنواع لا تعد ولا تحصى . كانت تجرى محاولات لتنوع "زهور اللؤلؤة" عن طريق تلقيحها ببذور وافدة جديدة ، وجعل لونها باللون الأزرق . كان يُباع محصول الموز كل أوقية بقرشين ؛ نظرًا لبيعه بالمقاولة ، بينما كان يُباع فى حقل آخر سعر كل فدان منه ٤٠ جنيهًا .

كانت إيرادات المشار إليه سنويًا تقدر بحوالى ٦٠٠٠٠ جنيه ، وهو الذى أدخل فى مصر كل أنواع الأشجار والخضروات وقام بتعميمها .

يعلن عن مراسم افتتاح المعرض قبل موعده بشهر بطرق مختلفة في الإعلانات والجرائد ، وكان قد أعلن فى منشور ظهر قبل يوم أو يومين من يوم الافتتاح أنه يجب دفع أجرة الدخول - وتبلغ خمسة عشرة قرشًا - لمن يرغبون فى مشاهدة المعرض فى اليوم الأول من مراسم الافتتاح ، ذلك أنه سوف تجرى مراسم افتتاح المعرض بحضور الخديوى والسادة أعضاء هيئة الوزراء ... وفى اليوم الثانى تكون الأجرة عشرة قروش ، والثالث خمسة قروش ، والرابع قرشان ، وسوف تقوم الفرقة الموسيقية العسكرية بالعزف طيلة هذه الأيام الأربعة حتى المساء .

وإننى لأبدى أسفى على عدم استطاعتى مشاهدة حفل الافتتاح لضرورة العودة قبل يوم واحد من رسم الافتتاح طبقًا للمأمورية التى كلفت بها . إننى أنقل بالكامل مقالات نشرت فى أعداد " ثروت فنون " النسخة المصورة بتاريخ ١٢ مارس ١٣٢٥ عدد ٩٣٠ ، كتبها " شرف الدين بك " وهو أحد الأطباء العثمانيين المقيمين بمصر ؛ لتكون خاتمة لذكرياتى ؛ إذ إنها صورت بأسلوب لطيف وبليغ المشاعر الوطنية ، وهو يقدم أيضًا ملاحظاته الشخصية التى تُضفى نوعًا من الاستفادة الجيدة ، بعد أن يقوم بإعطاء معلومات حول المعرض المقام بمصر والمنتجات المعروضة فيه :

" تعيش مصر عيدًا زراعيًا وصناعيًا منذ أسبوع ، كان مقر المسابقة بأكمله عبارة عن حدائق عامة وخاصة مستترة بين فرعى نهر النيل العظيم ، والتى تشبه تمامًا حديقة الفنار بإستانبول ، والعديد من القصور الأنيقة والفخمة الجميلة ، وذلك الخان المزخرف العظيم المسمى " جزيرة بالاس " ، والمراعى المرتفعة .

كانت مساحة واسعة مثل مراعى جزيرة " حيدر باشا " وهى كالجنة ، بشوارعها المرصوفة بالقطران والمظللة بأشجار الأقاسيا المشهورة والسامقة ونخيل البلح ، قد تصدت للمنافسة مع أهم الحدائق بإنجلترا ، وتزينت بالأعلام ذات الهلال الأحمر والثلاثة نجوم . ويتمتع بزيارتها يوميًا الكثير من المسلمين والمسيحيين والأجانب والوطنيين وهم يستفيدون منها أيضًا .

كنت قد قضيت مسروراً ساعة أو ساعتين يوم إجازتى الأحد ، فى معرض أفريقيا ذلك الذى لا يقل مطلقًا عن نظائره فى أوروبا . كان يعرض فى هذا المعرض الذى يعد من المعارض المتحضرة والمتطورة تمامًا ، كما أنه يفتتح كل عام أيضًا فى مصر – عينات من جميع أنواع الأشياء المستعملة فى مصر ، والتى تستورد من الخارج إلى الإقليم ، والمنتجات الصناعية الصغيرة جداً وجميع أنواع محاصيل أراضى وادى النيل ، وهى بلد زراعية صرف بلا غابات أو معادن .

ومن المناسب للغاية إطلاق اسم " قصر القطن " على المبنى الحجرى ذى القبة الواقع فى منتصف الساحة ... اصطفت عينات من القطن بمختلف أنواعه المرسلة من المزارع الخاصة ومن جميع البلاد والمدن فى أربعة صفوف داخل زنابيل كثيرة تحت تلك القنطرة الضخمة ووضع بجانب كل منها بذورها وشرانقها ، وبجانب كل قسم منها علقت لوحات كتب عليها اسم نوع المورد وصاحبه وجنسه .

كانت قد سويت مئات من السلات من العلف والقمح والذرة والفول ومساحات واسعة من التبن وحزم من قصب السكر طوله يبلغ مترين أو ثلاثة أمتار – فى ساحة فناء على شمال القبة ، وفى ناحية الشمال اصطفت أكوام كثيرة من الخضروات والفاكهة حتى أنها تمتد من الملوخية المزروعة هنا وحتى نباتات الجنجل .

وعلى أطراف هذه الإدارة المركزية بدت الشوارع المتعددة والخيام الضخمة ذات الخطوط الدائرية . ويعرض على يمين المدخل أقدم الصناعات المصرية وأبسطها ، وما كان موجوداً فى عصر الفراعنة ؛ أى قبل بضعة آلاف سنة ، وهى مجموعة من الآلات المصنوعة من الخيزران – والموضحة من خلال الرسومات التى بين الحروف الهيروغليفية – وهى مقيدة بالأحجار المستخدمة فى رصف الطرق .

ينسج الفلاحون الأقمشة العادية والغليظة أمام أعين الزوار ، ويقومون بعجن وبر الجمل مثل العجين . ويصنعون القلانس المصنوعة من اللباد على شكل نصف كرة تمامًا ، وكذلك نوع من غطاء الرأس – تخلف من عهد الفراعنة – ويرتديه حتى الآن الفلاحون القرويون – ولعله يكون الجد الأصلى والمنبع الأساسى لطرابيشنا .

أما على يسار المدخل ، فقد اتخذت ماكينة خياطة سينكر الأمريكية الصنع موضعًا كبيرًا ، وقد جذبت الأنظار عينات من أروع وأرق الفنون البشرية والألواح الفنية المرسومة والمنقوشة المصنوعة من هذه الماكينات - حتى ليخال أن صورة إمبراطور وإمبراطورة إنجلترا - وقد كانت من بين هذه الرسومات - أنها مدهونة بالزيت ، وكأنها صورة حقيقية .

وتوجد فى المنتصف أيضًا الخيام ومجموعات خاصة بصناعة السراجة والمنسوجات والنجارة والحرير والنحاس والسجاد ، وبسطت فى وسطها سجاجيد المصانع .

بعد ذلك توجد فروع لمصانع التدخين المتعددة ، أحدها ماكينة على أحدث نظام ؛ فهى تصنع ٥٠٠ سيجارة فى الدقيقة أمام أعين البشر ، بالإضافة إلى ذلك هناك شوارع لمعامل الزبد والألبان ، وعينات من خلايا النحل .

وعلى مقربة من ذلك يجذب الأنظار مصنع الأهرام المصنوع من البراميل - وهو مصنع للبيرة على شكل هرم بارتفاع ١٨ مترًا ، وأمامه حظائر خاصة بالحيوانات مثل الثور والبقر والجاموس والجمل والخيل والغنم .

وعلى طول الحدود توجد جميع أنواع ماكينات الحصاد والرحى ، وهى تابعة لمصانع البلاد المختلفة . وتسرب الآلات المحركة والمناخل التى تحنى الأوراق - الماء من المجارى المائية التى يطلق عليها العرب " الساقية " ، وتعمل المضخات التى تروى الأرض بالماء بانتظام بمقدار ٢٠ : ٣٠ هكتار فى الساعة ، وتنبثق منها المياه فى حجم الخصر ، وهى تتسرب من الأحواض التى على جوانبها ، وتندفع تجاه الحقول . تنبعث الموسيقى العسكرية من قصر خاص فى المنتصف ؛ لجذب الأهالى إلى هذا المكان وتسليتهم ، وتستمر النغمات من الظهر وحتى المساء . يوجد مقصف إفرنجى على النواصى ومحل كباب ومقهى لأهل البلد ، ويذهب أى إنسان إلى المكان الذى يختاره ويستريح فيه .

بينما كنت أسير وأشاهد خلال هذه الرحلة كما هو الحال دائمًا ـ ذلك المعرض البسيط والمتواضع – جاء إلى خاطرى إقليمى الروم أيلى والأناضول ، وهما بلدان زراعيان كما هو الحال فى هذا البلد – مستفسرًا عما يعود بالفائدة على أهالى كل ولاية منهما إذا أقيمت مؤسسات على هذا النحو فى موسم الربيع ؟ !! وما النتيجة ؟ وماذا نتعلم منها ؟ !!

أولاً : سوف يحاول كل شخص أن يعرض البضاعة بشكل جيد – فى ظل هذا التشجيع – لكى تفوز عينات المحاصيل الوطنية بالجائزة ، ويتبارز الإحساس بالتنافس بين أصحاب المزارع ، وبهذا الشكل تتضاعف الأمانى والرغبات فى الزراعة وتربية الحيوان وتنسيق الحدائق وتجميلها والصناعات الدقيقة المحلية .

ثانيًا : ينهض قروينا للإفادة من مشاهدتهم للمنتجات الأجنبية النافعة لمهنتهم وصناعتها ؛ فمثلاً يجتمع أهالى أى قرية أو مدينة على شاطئ النهر الذى يسرى ويفيض سحرًا وجمالاً وسط حقولهم ، ويجمعون المال فيما بينهم لصرفها على ما يحتاجونه من الماء ، واستحضار ماكينة مضخة بالاشتراك مع بعضهم البعض باسم القرية . وفى ظل ذلك يروون أراضيهم ويخلصون أنفسهم من خطر القحط ومخاطره . ولقد تجلت ساحات حدائقهم المزينة ، وبدت منذ عهد طويل . وإذا قامت حكومتنا الدستورية الجديدة بالتشجيع من الآن ، فإنه يمكن أن تفتح المعارض على هذا النحو فى المراكز التى تستحق الذكر فى الموسم الذى نحن بصدده ، وهذا يكفى إن هى أرادت أن تفتح .

المؤلف فى سطور:

خالد ضياء الدين

ولد سنة ١٨٦٧ م ، كان أبوه يعمل فى مهنة التجارة ويهوى الأدب ، بعد أن أفلست تجارته فى إستانبول ، بدأت اهتماماته بالرواية تظهر فى سن مبكرة ، هجر خالد ضياء المدرسة دون أن يتم تعليمه بها حتى يتسنى له مساعدة أبيه فى تجارته ، ثم التحق بوظيفة فى البنك العثمانى ، ثم عمل مدرسًا للغة الفرنسية فى إعدادية أزمير ، بدأ فى ترجمة الروايات الفرنسية ، وفى سنة ١٨٨٤ م أصدر عدة جرائد غير منتظمة الصدور مثل : " نوروز " و " خدمتى " و " آهنك " ، ومن خلالها نشر رواياته " سفيلة " و " بر أولونك دفترى " وغيرها من الروايات ، وفى سنة ١٨٨٩ م ذهب لمشاهدة معرض باريس ، وفى عام ١٨٩٣ م تولى رئاسة المكتبة فى إدارة التنسيق بإستانبول التى استقر مقامه فيها ، ثم انضم إلى مجلة " ثروت فنون " وحقق شهرة كبيرة بعد أن نشرت رواياته " مائى وسياه " و " عشق ممنوع " .

يعد أول روائى فى الأدب التركى على الطراز الأوروبى ؛ حيث كان قد ألف حكايات وقصصًا مليئة بالتحاليل النفسية متخذًا من القصاصين الفرنسيين نموذجًا يحتذى ؛ فقد قدم بعد عام ١٩٣٨ م نماذج من أقيم النماذج فى مجال القصة والحكاية ، بشخصيته القوية الواقعة تحت تأثير الأدب الفرنسى ومتأثرًا قليلاً جدًا بالشرق .

المترجمة فى سطور:

سامية محمد جلال

خريجة جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، قسم اللغات الشرقية ، فرع اللغات الإسلامية .

مدرس اللغة التركية وآدابها فى كلية الآداب ، قسم اللغات الشرقية ، جامعة القاهرة .

حاصلة على درجة الماجستير فى الأدب التركى بتقدير امتياز ، فى موضوع "جناب شهاب الدين شاعراً بين التقليد والتجديد" .

حاصلة على درجة الدكتوراه فى أدب الرحلة التركى مع مرتبة الشرف الأولى ، فى موضوع " مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر " .

المراجع فى سطور:

الصفصافى أحمد المرسى القطورى

مواليد بلقاس دقهلية / فبراير ١٩٤٠

دكتور فى الأدب فى اللغات الشرقية وآدابها - تركى - من جامعتى إستانبول وعين شمس فى ١٩٧٦/١٠/١٧ م.

أول مبعوث مصرى إلى جامعة إستانبول .

أستاذ مساعد فى ١٩٧١/١١/٩ م ، فأستاذ فى ١٩٨٨/٢/٢٩ م.

أعير إلى المملكة العربية السعودية لتأسيس الدراسات التركية بها على مدار مايزيد عن عشر سنوات .

قام ، ويقوم بتدريس اللغة التركية بثقافتها وحضاراتها فى كل الجامعات المصرية والعربية ، وأستاذ زائر فى بعض الدول الأوروبية .

شارك فى العديد من المؤتمرات المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية والثقافة والحضارة التركية الحديثة والمعاصرة .

له العديد من الأبحاث والكتب المؤلفة والمترجمة عن الحضارة الإسلامية والتراث التركى الإسلامى .

حائز على العديد من الميداليات وشهادات التقدير والتفوق عن أبحاثه المتميزة ، وكان آخرها الجائزة الأولى من رابطة الأدب الإسلامى العالمية فى مجال ترجمة المجموعات القصصية عام ١٩٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

حاليًا أستاذ متفرغ ورئيس شعبة الدراسات التركية فى مركز بحوث الشرق الأوسط والدراسات المستقبلية - جامعة عين شمس .

التصحيح اللغوى : د / **عبد الرحمن حجازى**

الإشـــراف الفنى : **حســـــن كــامـــل**